

الكتاب: الإسلام يتحدى

المؤلف: وحيد الدين خان

الجزء:

الوفاء: معاصر

المجموعة: مصادر التاريخ

تحقيق: مراجعة وتحقيق : الدكتور عبد الصبور شاهين

الطبعة: الأولى

سنة الطبع:

المطبعة:

الناشر:

ردمك:

ملاحظات: تعريب : ظفر الاسلام خان

الاسلام يتحدى
تأليف: وحيد الدين خان
تعريب: ظفر الاسلام خان
مراجعة وتحقيق: الدكتور عبد الصبور شاهين

(١)

تقديم الطبعة الأولى
بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين
ما أكثر ما يكتب عن الاسلام و المسلمين في مطبوعات هذا العصر في العربية، وغير العربية، وما أقل غناء أكثره.
قليل جدا من الكتابات الاسلامية هو الذي يعد اسهاما في معالجة مشكلات عالمنا الاسلامي، اسهاما جادا منخلصا من أجل عودته، وتقدمه.
وكثير جدا ما نقرأه من تلك الكتابات التقريرية، أو الرثائية الوعظية، التي تخطها أقلام، ان كانت تتاجر بالدين، فلا غرابة، في عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم، فاما إذا كانت معروفة بالعلم وبالذكاء، فذلك هو داعي الحسرة والاشفاق في أنفسنا على علمائنا الأذكياء.
أيمكن ان نتصور عالم الفكر الاسلامي مجرد أقاصيص تحكى للبهر، أو مقالات يجتهد أصحابها في تديج مقدماتها وسياقاتها، لنتهي بعد قراءتها إلى هز الرؤوس، ولوك عبارات الثناء والاعجاب؟
هذا على حين يتشاغل كتاب الفلاسفة المادية برسم تطلعات العصر، وعلاج مشكلات التطبيق
على مستوى عالمي، حتى ليحس المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجته إلى أن ينزوي
نفسيا في ركن من أركان الياس والقنوط، لأنه غائب تماما عن المعركة الحاضرة. تلك محنة الوجدان والعقل المسلم، الذي ينشد لدى كتابه ومفكره مستوى من المبادرة
والجد والاخلاص، ولونا من الكتابة المباشرة التي تعيش عصرها وأفكاره وتطلعاته، فإذا هم لا يزيدون على مضع حكايات الأولياء، واجترار بضعة خيالات محلقة في سماوات التيه،
ومجابهة الواقع الصارخ الملح بما يميعة: في وعي الجماهير، ثم يسرح بها بعيدا، في احلام الماضي وتصوراته.

ومن البله ان يظن ان اخبار السلف هدف ثقافي، يقصد لذاته كمتعة عقلية، دون ان يكون
من وراء ذلك مشروع انهاض، وخطة توعية من أجل صنع الحاضر، والتأثير في الأجيال
القادمة، حسب هؤلاء السلف انهم كانوا أمثلة مسهمة في صنع عصرهم، وتوجيه
معاصريهم،

ثم مضوا، عليهم من الله رضوان، ومن الناس سلام.
وجاء من بعدهم خلف، أصبح بعد حين سلفا، بعد أن مضى إلى الرفيق الأعلى، مخلفا
كذلك

تركة من السلوك، ومن الكفاح، هي جزء من تاريخ أمتنا.
وجاء جيلنا ليتوهم، أو ليراد له ان يتوهم، انه مجرد وارث لأجيال سابقة، عليه ان
يستغل تركتها في خلق ملذاته، فإذا ما جوبه بتحديات عصره لجأ إلى المباهاة بترائه،
المباهاة وحدها، المتمثلة في أكثر الكتابات المنشورة، التي لا تمل ان تحكى وتحكي،
حكايات في حكايات، وتقف أحيانا مستعلية من فوق منبر، لتمطر على الحضور وعظا
في وعظ،

دون ان تبلغ في ظن الجماهير ان تهز وجدانا، أو حتى تحرك قشة.
ان أخص صفات عصرنا هي انه ينتج من الأفكار بقدر ما ينتج من الأشياء، وليس من
الضروري ان نتطلب من الأفكار المنتجة ان تكون نافعة دائما كالأشياء، فان
المجتمعات

التي تصدر الينا أشياء الحضارة ترى في الأفكار سلعة ينبغي ان تتغير كل يوم، كما
تتغير طرز الأشياء، ولذلك يقف مثقفونا مبهورين امام موجات الفكر الواردة من
الخارج،

ماذا يأخذون، وماذا يدعون؟ بل قل: ماذا يقرؤون، وماذا يترجمون؟.. ولا شئ أكثر من
هذا... يكفيهم ان يستطيعوا ملاحقة الأفكار، دون ان يكون عليهم ان يواجهوها، أو
ينقدوها، فهم إلى أن يصوغوا نقدا معينا لاحد الاتجاهات الجديدة نسبيا يكون الوقت
قد

فات، وتقادم بمرور الزمن ما ينقدون، وغطت عليه أفكار أخرى أشد لمعانا، وأكثر
جاذبية
واشعاعا.

ومما لاشك فيه أن العالم الاسلامي هدف ثمين من أهداف تصدير الأفكار نظرا إلى
موقعه،

وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة، أو بعبارة أخرى: مراكز الانتاج، والهدف من
وراء

التصدير واحد لدى كل هذه المراكز: ان يبقى هذا العالم مفتقرا إليها، على اختلافها،

وان يحال بينه وبين أفكاره الأصيلة، التي يمكن ان تغنيه عن الاستيراد، وتحقق له الاكتفاء الذاتي.
ومن المعروف في دوائر الاقتصاد ان الاحتكار إذا تحقق لمركز انتاجي في سوق معينة فان
من المتوقع ان يبدأ المنتج في افساد السلعة، بتقليل جودتها، اعتمادا على الاحتكار
المتاح له، وطمعا في ربح أوفر. وسوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلا
للتزييف والافساد، ومن ثم حفلت أسواقنا بما هو أشد فتكا من السموم، وأعظم انتشارا
من
الهواء، يتخلل كل خلية، وينخر في

كل بناء.. أفكار ترتدي أثوابا، أو تحمل شعارات، أو ترفع مشاعل، ليس الثوب فيها، أو

الشعار، أو المشعل، الا قناعا يستر الزيف والخطر. وليس من الممكن ان نفهم موجات السيطرة الخارجية على مجتمعاتنا الا إذا لا حظنا مثلا

تبعية الفتاة المسلمة في كثير من بلاد الشرق العربي لكل ما يظهر في أوروبا أو أمريكا من أزياء، فما ان ترتدي الزي احدى (المانيكان) قصيرا بمقدار سنتيمتر واحد، حتى تبادر فتياتنا إلى تقصير أثوابهن بمقدار شبر واحد!! ليس المهم ملاحظة ان تقصر الفتاة أو تطول ثوبها بحكم (الموضة) الشائعة، فإذا لم تفعل عدت متخلفة، وانما المهم ملاحظة هذه السيطرة التي توفرت لملوك الأزياء، وأكثرهم صهيونيون، على فتياتنا المثقفات بخاصة، حتى كأنهن جميعا أعضاء في جوقة موسيقية واحدة، وأمامهن (ما يسترو) كلما أشار بإصبعه أو بعصاه تحرك العازفون والعازفات في اتجاه العصا، كالقطيع. ودلالة هذه التبعية أخطر مما قد يبدو في ظاهر الامر، لان تأثيرها يشمل كل القيم التي يقدها المجتمع في شخص المرأة، قيم الحياء والأنوثة الواعية، والجسد غير المتعرض لذباب الأعين، وقيم التماسك، والالتزام في تربيتها، وقيم الجيل الناشئ على يديها، وهو الذي ننشده لغد هذه الأرض، ومستقبل هذا

الدين، وبكلمة واحدة، وبلا مغالاة: نحن هكذا محكومون من عمق مجتمعا لملوك الأزياء، ودولة المانيكان.

ومع ذلك، قد يقال: ان مسألة الزي أقل خطرا من غيرها، فهي على اية حال مسألة غلاف... اما غيرها، كقضية المعتقدات التي تزيّف للأجيال الناشئة، وجوهرها تحطيم لدينها...

وقضية الروح المنهزمة امام انتصارات العلم في غير بلاد الاسلام، الروح التي تقف متضععة مبهورة امام منجزات الانسان الأوربي أو الأمريكي. وقضية الحرية الفكرية المعدومة في فلسفة التربية، حتى أصبح كل هم المدارس انتاج نماذج مصبوبة في بوتقة التبعية و التقليد... وقضايا أخرى كثيرة، كلها أهم من قضية الميني جيب، أو الميكروجيب.

وبرغم ذلك لا نكاد نلمح أدنى فاصل بين هذه القضايا جميعا، فالمصنع المنتج واحد، وهدف التصدير واحد، والمستهلك المستهلك واحد أيضا، هو الانسان المسلم. والمشكلة بالإضافة إلى هذا كله ان أكثر كتابنا أصبحوا يرون في قيام هذه الحالات شيئا مألوفا غير جدير بالمناقشة، اما زهدا في الدنيا، واما يأسا من الاصلاح، واما تعودا على المشاهدة اليومية، كما يتعود المدمن تأثير المخدر. وكأنهم المعنيون بقول

الشاعر:
من يهن يسهل الهوان عليه *** ما لجرح بميت إيلام

وأقول: (أكثر كتابنا)، لان هنالك (قلة) نصبت أقلامها للذود عن المستقبل، والدفاع
ضد

التيار المخرب، متحملة في ذلك عنت الفساد وسلطانه، و متحدية في المجتمع مراكز
استيراد الأفكار، وعناصر اللامبالاة، وهؤلاء القلة لا تكاد والحمد لله تخلو منهم
ارض الاسلام، يكتبون بكل لغة، ويحاربون في كل معركة، ايماننا منهم بوحدة
المقاتلين

امام الخطر الزاحف. ومن هؤلاء القلة مؤلفنا هذا، الذي يدخل اسمه لأول مرة حقل
اللغة

العربية، بنشر ذلك الكتاب: (الاسلام يتحدى)، وان كان لاسمه رنين مدو في شبه
القارة

الهندية، باعتباره ثالث اثنين، يتولون قضية الاسلام المعاصر في وجه الزحف الفكري:
أبو الأعلى المودودي، وأبو الحسن الندوي، ووحيد الدين خان.

والحق ان علماء باكستان والهند المسلمين قد أتيح لهم ان يتصلوا اتصالا مباشرا
بمصادر المعرفة الحديثة، حتى أصبحوا من اعلامها، وهم في هذا يضارعون أكثر
علمائنا

العرب اتصالا بثقافة الغرب، مع فارق جوهري، في رأينا، هو ان الأولين الذين نشير
إليهم لم يغرقوا أنفسهم في المعرفة الأكاديمية، لتستولي من بعد على عقولهم
وأقلامهم، وليصبحوا مجرد ناشرين، أو مفسرين، أو حتى معلقين، على ما يقدمون من
فكر

الغرب وعلومه.

لقد وقف هؤلاء عمالقة في وجه التيار وانغمسوا في مشكلات الجماهير وحاولوا ان
يقدموا

لهم تصوراتهم من أجل المستقبل، ومن أجل تحريك الثورة الفكرية في كيان الانسان
المسلم، فهم في الحقيقة كتاب ثوريون، ذوو أصالة ووعي وايمان.
وليس من السهل ان نقول: انهم جميعا يمثلون طريقة واحدة في الأداء، برغم ان هدفهم
واحد، فان لكل منهم أداءه الخاص، وطريقته الفذة التي عرفته بها الجماهير المسلمة.
وحسنا ان نقرأ هذا الكتاب الجديد لنذكر انه يمثل عقلا وثقافة ومنهجيا يختلف بها
مؤلفه عن جميع من عرفنا من الكتاب المعاصرين ولعل من المناسب ان أورد هنا ما
كتبه

المؤلف في صحيفته (الجمعيّة الأسبوعية) في عدد ٧ من فبراير ١٩٦٩، موضحا
الدور الذي

يحاول ان يقوم به، قال:

(ان المشكلات التي يواجهها الاسلام في هذا العصر، منها ما هو علمي، يوجه اليه بلغة

العلم ومصطلحاته، ولذلك كان لزاما ان نضع إجاباتنا في مواجهة هذه الحملات
المسعورة
بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين. ولا زال هذا
الميدان، منذ امد طويل مجالا لنشاطي واهتمامي، حتى كان آخر ما كتبت: (الاسلام
يتحدى).
والميدان الثاني لنشاطي هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الاسلامية وتعميرها، والعمل
على نهضتها، وعلينا في هذا المجال ان نكشف العلل، ونمحص الأسباب السياسية
والاجتماعية التي

أدت إلى سوء أحوال المسلمين، ثم وضع خريطة للمستقبل، بعد الوقوف على أسباب النكسة

التي أصابتنا، وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين (في شبه القارة الهندية)، ليربط بين مختلف أنشطتهم، فيجعلها مجموعة معنوية متكاملة، وحثهم على مواصلة الجهد لتكون

منهم أمة قوية جامعة في العالم.

وبكلمة أخرى، نحن نصبو إلى بعث الأحلام التي رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحققها،

لإعلاء شأن الأمة المسلمة، وهي الأحلام التي لم تتحقق، لسبب أو لآخر. وهذه هي المهمة الفكرية التي تضطلع بها صحيفتنا (الجمعيّة الأسبوعية)، ويمكننا ان نقول بحق: ان هذه المهمة قد أصبحت أكبر ميزة خاصة لجريدتنا في المجال الصحفي، في

هذا العصر، على حين أصبحت الصحافة الاسلامية علما على الرثاء، بل إن آخر ما تستطيعه

هذه الصحافة هو مجرد التعليقات السياسية على الاحداث العامة، وتقديم بعض المعلومات

الطريفة التي يتشوق إليها العامة من القراء. ففي هذا المناخ الصحفي تعتبر (الجمعيّة الأسبوعية) الصحيفة الوحيدة التي تعمل على احياء وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين، باحثه عن مواطن الخطأ في كفاحهم الحضاري، ونحن لا نجد كلمات نشكر الله

بها، على أنه - سبحانه اختارنا بمشيئته لسد هذا الفراغ.

فالرجل كما نرى صاحب دعوة، يريد ابلاغها إلى ضمير الأمة المسلمة بلاغا يحركها نحو

أهدافها، ويوحدها امام الاخطار، وهي دعوة ذات شقين، أحدهما يستنفد العمر كله، ولكنه

يعمل لتحقيق كليهما بوسائله المتاحة: ان يكتب كتبا، وان يسخر مجلة أسبوعية. والواقع ان كتابه هذا يعتبر تحقيقا لحلم طالما راود كتاب العقيدة والمدافعين عنها، فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة على وجود الله، واثبات الرسالة، وما يتصل بهما من حقائق ميتافيزيقية قد وقفت عند جهود علماء الكلام، باستخدام الأقيسة المنطقية، التي بليت لطول ما لاكتها الألسن، وأصبح مجرد التحدث بها داعية إلى الملل منها، بل إن

لغتها لم تعد مفهومة لشباب الاسلام، الذي يعيش في هذا العصر ظروفًا تتغير من يوم لآخر، وتطالعه ثقافات ذات جدلية ماهرة، ومناهج علمية تجريبية، لم يعد العقل يقنع

بدونها.
لقد أصبح كل شيء موضع شك. وبذلك سقطت القضايا القائمة على المسلمات المنطقية، لأنه
لا شيء في العقل الحديث بمسلم منطقيا، الا وله نقيض منطقي يمكن ان يحتمله العقل.
اما التجربة فهي الدليل الذي لا يدفع على قضيتها، وما ينتج عن التجربة ليس مسلما منطقيا، ولكنه حقيقة نسبية موضوعية، وهذا شان العلم. ومن هنا كان لا بد من تغيير المناهج الكلامية، لاشباع رغبات متجددة في اليقين، تريد أن تؤسس موقفها على ارض من المعرفة الجديدة التي اخترقت الآفاق، وقاست ابعاد النجوم، وتغلغت في اسرار المادة، حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها.

وإذا قيل: إن قضايا علم الكلام هي قضايا الغيب المطلق المحجوب الاسرار، ولا يعقل ان

يكون للتجربة دور في معالجتها. تذكرنا في رد هذا الرأي ما قاله عربي يعيش على فطرته، وينطق على سجيته، دون ان يكون قد الم بشيء من منطق أرسطو: (البعرة تدل على

البعير، واثر السير يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وارض ذات فجاج، وبحار ذات

أمواج، الا يدل ذلك كله على الله اللطيف الخبير)؟؟.

وكلمات هذا الأعرابي الصق بالمنهج التجريبي، القائم على الملاحظة، وأقرب إلى التأثير في النفس، واقدر على اقناع العقل، من اية صيغة قياسية ما في ذلك شك. لقد أصبح سيئا للغاية ان ينطق رجل الدين امام الناس، أو امام الطلاب بقضايا متقدمة، قال بها الأولون، دون ان يحاول مزج المعرفة التقليدية بالجديد، وأكثر ما تتجلى هذه المعرفة التقليدية في علم التوحيد والكلام أو مباحث العقيدة على اختلاف المصطلحات حيث يصبر بعض الأساتذة على حكاية النزاع بين المعتزلة وأهل السنة، والفرق

بين الأشاعرة والماتريدية، ووجهة نظر الخوارج والشيعة، والخلاف بين الجبرية وغيرهم،

وتناقض ما بين العقل والنقل أو تساندهما، وكل ذلك دائر في حلقة مفرغة، بعيدة عن مجال

تفكير الشباب المتحول، لان هذا الكلام كله قد أدى وظيفة على خير وجه، حين كان جزءا

من صراع عصره حول المفاهيم والقيم، فلما مضى عصره أصبح جزءا من تاريخ الفكر، لا

أساسا من أسس النقاش الحي النابع من التجربة المعاشة.

ولذلك يعجز هذا الكلام عن اقناع ملحد حديث يخطئه، لان أسباب الحاده ليست من موضوعات

الكلام، فالجدل الحديث لا يتناقش حول الجوهر والعرض، ولا حول القدم والحدوث، وانما

هو يتناقش حول حتمية المادة، ووجود المادة الواقعية والمادة العقلية، والعلاقة بين المادة والحركة، حين ينتهي كل موجود مادي في حقيقته إلى حركة، والاحتمالات الرياضية

لتأثير الصدفة في نشأة الكون، وامتداده، وحتمية التطور. وحقيقة الوجود في ضوء الادراك الجديد لنسبية الظواهر الكونية، وأهمها الزمان، ذلك البعد الرابع الذي كشفه

اينشتاين، والتوقعات العلمية لوجود عوالم أخرى غير عالمنا، في سمائنا، وفي
السموات
الأخرى، التي يدركها العلم، أو يحس بوجودها، ويحاول معرفة شيء عنها... الخ. فإذا
لم تكن هذه القضايا الجديدة هي محور النقاش في قاعات الدرس الجامعي. الذي
يصوغ عقول
الشباب فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل في فراغ ايدولوجي، وتخرج للمجتمع نماذج
خرابة،
واهنة، أو مشوشة، أو يائسة من جدوى العقيدة في بناء المجتمع الجديد، نماذج تحس
في
أعماقها بالجفاف الروحي، فهي لم تظفر بأرضية من الفكر الديني تقف عليها مطمئنة
في
مواجهة رياح التغيير العاصفة، إما لأنها محرومة من هذا اللون من الدراسة،

وإما - وهو الأخطر لأنها غير مقتنعة بما عرض عليها من موضوعاته. وينتهي الامر بهذه النماذج إلى أن تتبعثر في الفراغ، وتحس باللامبالاة تجاه مسائل العقيدة، لان أسلم الطرق الا تبالي، فالهرب أسلم المسالك.

والغريب ان هذه الحال قد طفحت على سطح المجتمع منذ أوائل القرن التاسع عشر، حين بدا

اللقاء والاصطدام بين ثقفتي الشرق والغرب يواجه مبعوثينا إلى أوروبا، على عهد محمد علي - في مصر، وتعرضت اعمال روائية، منذ ذلك العهد، وحتى يومنا هذا، لتصوير التمزق

الفكري، الذي يعانيه هؤلاء المبعوثون، من أمثال: تخليص الابريز لرفاعة الطهطاوي، وعلم الدين لعلي مبارك، وحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي، وقنديل أم هاشم ليحي

حقي، وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، ومليم الأكبر لعادل كامل فانوس، أي ان المشكلة

ثائرة وملحة من قديم، دارت حولها روايات قيمة. ومع ذلك لم يبحث لها المفكرون الدينيون عن حل، ولم يعرضوا لها بمناقشة لاستكناه أسبابها، على حين اكتفت الاعمال الروائية بالتقاطها وتصويرها. والخطر بهذه السلبية إلى تفاقم، والخراب إلى استفحال، والضحية دائما هو الانسان المسلم.

أليس غريبا ان يكون بعض عتاة الملاحدة في مجتمعاتنا ممن يمتون إلى أسر ذات اتصال

بالدراسة الدينية؟! وان تنشر مجلة أسبوعية ان احدى المانيكان تمثل جامعة الأزهر الشريف، ثم تأتي بصورتها فإذا هي ترتدي ما ترتديه بنات باريس (١)!! ودعك من أن تكون

إحداهن فتاة غلاف، تنشر لها صورة عارية، أشبه بصور السابحات الفاتنات، وهي من بنات

العلماء؟ (٢) انهم جميعا، واضرابهم، نتاج هذا الانفصام بين الفكر الديني وقضايا العصر، بحيث لم يأخذ هذا الفكر شكل ثقافة حية تجمع بين المعرفة والسلوك، أي ان هناك

عجزا شائنا في الثقافة المستخدمة للاقناع، على حين استطاعت الثقافات الأخرى ان تحتازهم لمعسكرها، لأنها صادفت فراغا فتمكنت، بصرف النظر عن جدية الاشخاص أو

هزليتهم وتفاهتهم، واحد أسباب هذا الانفصام أيضا ان من يتولون سدانة الفكر الديني لم ينهضوا لمواجهة تحدي العصر، ربما لأنهم فعلا غير فاهمين لرسالاتهم، الا على انها استحضر لماض أثري لا علاقة له بحاضر، وربما لتوهمهم انه لا تحدي أصلا، بل كل

شئ
هادئ على الجبهة!! والدنيا بخير والحمد لله!! فالمشكلة من هذه الواجهة أزمة في
الشعور الذي يؤدي حين يكون سويا إلى الأرق المنتج، والقلق الخلاق، فاما حين لا
يكون
هناك شعور فان الدين يتحول عند بعض رجاله إلى باب سخي للوجاهة والارتزاق،
وعند
بعضهم إلى سلبية قاتلة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

-
- (١) انظر العدد الصادر من جريدة اخبار اليوم في ٢٩ من نوفمبر ١٩٦٩.
(٢) اخبار اليوم ٢٥ / من اكتوبر ١٩٦٩.

ولست أنكر ان محاولات جادة قام بها بعض العلماء القلقين على مصير الانسان، في الشرق

والغرب، من أجل البرهنة على وجود الله على أساس علمي، ولكن قضية الدين ليست هي قضية

(وجود الله) فحسب. لا مرء في أن الايمان بوجود الله سبحانه أساس ومنبع، ولكنه يستتبع الايمان بقيم أخرى ومبادئ، دعا إليها الرسل. وحثت عليها الأديان، وأهمها ضرورة الايمان بوجود كائنات غير الانسان، دل عليها الدين وسماها (الملائكة) الملهمين الخير، وكائنات أخرى غير الانسان والملائكة دل عليها الدين، وسماها الجن،

ومنهم (الشياطين) النازغون بالشر، وضرورة الايمان بالغيب، وباليوم الآخر. وما يتصل به من جنة ونار، وحساب، وثواب وعقاب، بل ما يسبق ذلك من قيامة، هي في حقيقتها دمار

للدنيا، وتحطم للكواكب والنجوم، وضرورة التزام شريعة الله، التي جاء بها الرسل، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، متى صح الايمان بوجود الله، مالك الملك، ومنزل

التشريع بالحلال والحرام، وفي كلمة واحدة: ضرورة اقرار ما علم من الدين بالضرورة. وهكذا نجدنا امام كل مترابط لا يمكن انفصام اجزائه الا على طريقة بني إسرائيل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ولقد وجد في المجتمع الاسلامي فعلا هذا الصنف من الناس، الذين يحدثونك بأنهم مؤمنون

بالله، وكفى، ولا داعي لمطالبتهم بأكثر من هذا!! وهم يواجهون من يدعوهم إلى الالتزام بأوامر الله ونواهيه: بان الهدف من هذه هو تزكية النفس، وعدم إيذاء العباد، فإذا تحقق هذا الهدف بوسيلة أخرى كالثقافة مثلا كان في ذلك غنى عن الالتزام بالتكاليف، لان هذه هي روح الدين!!.. وغاب عنهم، أو تجاهلوا، ان العبادة في حقيقتها

ثمرة الايمان بالله، وتأكيد لعبودية الانسان له، وان الله سبحانه قد اختار لعباده ان يخاطبوه ويقدموه بكيفية معينة، لا خيار لهم فيها، بصرف النظر عن تحقيق مصلحة معينة لهم من العبادة أو عدم تحققها: (وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون) (١) فمصلحة الانسان العليا في أن يرضى خالقه بإنفاذ امره، والتزام طاعته. فهذا صنف من الناس يجتزىء من الدين بما لا يقتضيه تكلفه: أن يقول: آمنت بالله فحسب،

وهو يستعمل مسالة تسليمه بوجود الله جل وعلا ذريعة إلى التحلل والانعقاد من سائر قضايا الدين، والصدود عنها، وهو امر ينبغي ان يلحظ على أنه من صميم أزمة الدين في

أنفس المثقفين المعاصرين، لان الثقافات الإلحادية قد اتخذت لنفسها خطة لئيمة، فحواها ان دعوة المسلم إلى الكفر تلقي نفورا في المجتمع الاسلامي، ويكاد يكون من المحال احراز تقدم فيه باعتناق هذه الدعوة، ولذا ينبغي ان تكون الخطة أولا تجريد شخص المسلم من الالتزام بالتكاليف، وتحطيم قيم الدين الأساسية في نفسه، بدعوى العلمية والتقدم،

(١) الذاريات / ٥٦.

دون مساس بقضية الإلهية مؤقتا، لأنها ذات حساسية خاصة، وبمرور الزمن، ومع الف المسلم لهذا التجريد يسهل في نهاية الامر تحطيم فكرة الإلهية أساسا في عقله ووجدانه وإذا بقيت افتراضا، فلا ضرر منها، ولا خطر، لأنها حينئذ لن تكون سوى بقايا دين، كان

موجودا ذات يوم بعيد.

وهكذا يحكم أعداء الاسلام مخططاتهم، ويدبرون لتدمير الدين ومبادئه، ابتداء من ابسط

السنن والواجبات، وانتهاء إلى قضية القضايا: وجود الله ذاته. فإذا أفرد بعض العلماء مسألة وجود الخالق بالعلاج العلمي فقليل منهم فيما اعلم من تصدي لعلاج هذه القضايا جميعا، وبخاصة هذا الكتاب: (الاسلام يتحدى). واحسب انه من

هذه الناحية سوف يصبح متى بلغ عمق المجتمع دستور الاقناع الديني، أو كما يعبر العنوان الفرعي الذي تخيرناه له: (مدخلا علميا إلى الايمان). وقد كان المؤلف منطقيا مع عصره إلى أبعد الحدود، فإذا كان أقطاب الالحاد في الفلسفة

الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلا علميا إلى الكفر، فلا مناص من أن يحاول هو بحسه

الصادق، ووعيه بحاجة المسلمين وضع مدخل علمي إلى الايمان، يعتبر أساسا لعلم كلام،

أو علم توحيد جديد. وهذا هو الاعتبار الذي كان من وراء الحماس المخلص، بذله مترجم

الكتاب الأستاذ ظفر الاسلام خان، نجل المؤلف، واقتضاني ان أعكف شهورا تبلغ سنوات

على مراجعته، وتحقيق نصوصه الدينية.

ولذلك سوف نجده يعرض (قضية معارضي الدين) بكل حيطة وأمانة، حتى لا يتهم من أول

لحظة بمخالفة المنهج العلمي، ثم يبدأ في مناقشتها معتمدا في الأساس على الانتاج الفكري الغربي، من باب (وشهد شاهد من أهلها) (١)، مرجئا مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية في آراء الأعداء قبل الأصدقاء.

ولا يتبادرن إلى ذهن القارئ ان المؤلف رجل دين متحمس، ييشر بدعوة الاسلام بأسلوب

جديد، انه مفكر مصلح يعمل بالصحافة، رئيسا لتحرير مجلة (الجمعيت الأسبوعية) وما عرضته هنا هو نتيجة تأمل واهتمام مؤرق بمشكلات الشباب المسلم، حتى أصدر كتابه

هذا
عام ١٩٦٦، وما زال وفيما لقضيته، مجاهدا في سبيلها.
ولئن كنا قد المحنا قبل بضعة أسطر إلى بعض ملامح منهجه، فان تنظيم هذا المنهج قد
اقتضاه ان يضع قضاياها في ترتيب منطقي:
فهو قد وضع كتابه علاجا للمشكلات العقيدية التي تواجه البشر، ولما كان المتوارد

(١) يوسف / ٢٦.

على مسرح الاحداث، مبدأ الدين، ومبدأ الالحاد، وكان هو من معسكر الدين وجب عليه ان

يدلف إلى هدفه من خلال دعاوى الخصوم، حتى لا يتهم بتجاهلها، فعرض فكرة معارضي الدين

وبين أسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية. ومعنى ذلك أنه يعوض جوهر فلسفات ثلاثة

: الدارونية والفرويدية والماركسية وهي المبادئ التي قادت في مجموعها قطعانا من البشر في وادي الالحاد، وانكار وجود الله، وتاليه المادة.

فإذا بدا بمناقشة هذه المبادئ سلك نفس السبيل التي سلكتها. فاستقى أدلته من الطبيعة، ومن البحوث النفسية، والتاريخية.

وإذا كان أعظم قضايا الدين. بعد الايمان بالله، الايمان باليوم الآخر، حقيقة غيبية، لا مرأ فيها، وكانت أهم دعاوى الالحاد قائمة على انكار هذا اللقاء مع الخالق فان اثبات امكان الآخرة، بالأدلة الطبيعية، والبيولوجية والتاريخية هو أيضا من الأدلة القاطعة بصحة الدين، وبوجود الله، ومن ثم نجده متألقا في تبيان الحاجة إلى الآخرة نفسيا، وأخلاقيا، وسلوكيا، حتى إذا استقر في وعي القارئ ضرورة الآخرة كان ذلك طريقا إلى اقرار ضرورة الايمان بالله من جانب آخر. فالآخرة إذن قضية وبرهان في آن. والمؤلف لا يكتفي في هذا الباب بدليل واحد، بل هو يقدم بحوثا قيمة في ضرورة الآخرة

من الناحية الكونية، ويسوق شهادات تجريبية، وبحوثا نفسية وروحية، تؤكد هذه الضرورة،

كما يزيد القارئ ثروة في المفاهيم، ويفسح له آفاق الاقتناع.

ويأتي بعد ذلك دور الرسالة، وهي الدليل التاريخي على الحقيقتين السالفتين، لان الرسل هم الذين دلوا عليهما، قبل أن يخطو الانسان هذه الخطوات الجبارة في ميدان العلم والتجربة.

ومن الضروري ان نلفت النظر هنا إلى أن المؤلف لا يعني بكلمة (الدين) الا ما عناه الحق سبحانه بها في قوله: (ان الدين عند الله الاسلام) (١)، فإذا تناول قضية

الرسالة فمقصده قطعا رسالة الاسلام، وكتابها المعجز: القرآن.

ويعقد في هذا الباب عدة فصول يتحدث فيها عن اعجاز القرآن التاريخي، والعلمي، ويورد

لمحات كثيرة عن تنبؤات القرآن، وما تضمنته آياته من حقائق لم يكشف عنها الا في العصر الحديث، في الفلك، وطبقات الأرض وغيرهما.

فإذا انتهى من اثبات هذه الصفة العلوية للقرآن، وأكد به الحقيقة الأولى، وهي وجود الله، عقد بابا خاصا بعلاقة الدين بمشكلات الحضارة، فتناول في جانب منه

مشكلات

(١) آل عمران ١٩.

التشريع، وعناصره الأساسية، وتحديد الدين لمفهوم الجريمة، وعلاقة القانون بالأخلاق، وبالفرد، وبالعدل.

ولا يفوته ان يتحدث عن بعض مشكلات الحضارة الحديثة، كمشكلة المرأة، والتمدن، والملكية، مقارنة في كل ذلك نظام الاسلام بنظامي الحكم المعاصرين: الرأسمالية والشيوعية.

ويأتي أخيرا حديثه عن مستقبل هذا العالم الاسلامي، وما ينشده أبنائه من أهداف سامية، وما ينبغي ان يكون لهم من رسالة في هذا العالم الحائر، بين مذاهب الالحاد الواهية المتهاوية، ودين الفطرة الذي جعله الله ختام الأديان، وجعل نبيه خاتم المرسلين، مبينا كيف أدى الالحاد في المجتمعات الأوربية إلى التحلل، والتمزق الأسري، وتكون طبقات من المجرمين والشواذ، وانتشار أعصى الأمراض النفسية والعصبية،

جاء الحرمان من الايمان بالله، خالقنا ومالكننا، ويختار لختام كتابه كلمة قبسها عن الأستاذ كريسي موريسون، إذ قال: إن

الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الاخلاق، والقيم والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره نفحات إلهية لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد، فالالحاد نوع من

الأنانية حيث يجلس (الانسان) على كرسي (الله).

(لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين).

(سوف يتحول النظام إلى فوضى).

(سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك).

(سوف يتفشى الشر في كل مكان).

(انها لحاجة ملحة ان نقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله).

فهذا هو منهج الكتاب في ايجاز شديد، وهو منهج يشدني إلى ملاحظة هامة أحب ان أضعها

بين يدي القارئ. ذلك أن خطوات هذا المنهج، بنفس الترتيب تكاد تكون طبق الأصل من

كتاب أخرجه من قبل مترجما عن الفرنسية، هو كتاب (الظاهرة القرآنية)، للمفكر الجزائري مالك بن نبي، وهي ملاحظة غريبة في المنهج، لا تنصرف إلى مادة الكتابين، لان المؤلفين مختلفان في عقليتهما، وثقافتهما، وطريقة معالجهما لهذه القضايا الدقيقة، حتى اني أكاد اقطع بان المحاولتين من حيث المصادر والمادة والأسلوب متباعدتان تماما، إحداهما عن الأخرى، بعد ما بين الجزائر والهند، ولم يحدث ان التقى الرجلان في صعيد واحد، فيما اعلم. وتفسير هذا التوافق ينحصر في توارد الأفكار على

مشكلة واحدة.
بيد ان ذلك لا يمنعني من أن أقر ان كلا الكتابين صادر عن نفس الإحساس بضرورة

وضع منهج جديد للاقناع الديني، وكلاهما توفرت فيه المنهجية الحديثة، وموضوعهما مشترك

كذلك، والروح الكامنة في مضمونهما روح تائفة، مؤمنة. وحسب الشباب المسلم من هذه الملاحظة دليلاً على أن روح الإسلام طاقة لا يمكن أن

تخمد، وستظل تصنع المعجزات، برغم التفوق المادي الذي حققته مجتمعات الملاحظة

المعاصرين.

نعم.. ان هذا التوافق العجيب بين مفكرين من أكابر مفكرينا يكاد ان يكون من بدائع الروح الخالدة، روح الإسلام، وأقول: الخالدة، لان الروح طاقة، والطاقة لا تفنى، وذلك وعد الله. (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (١).

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وصلى الله على محمد خاتم النبيين.

عبد الصبور شاهين

الكويت ديسمبر ١٩٦٩

(١) الحجر ٩.

تمهيد

الموضوع الذي سندرسه في الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة إلى اللغة الأردنية. ولكن

المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصا، رغم الجهود الطيبة التي بذلها بعض الكتاب. والعصر الحديث يسمى: (عصر الالحاد)، لانكاره الدين. وهذا الالحاد ليس محض ادعاء. بل

يرى أصحاب نظريته انها طريقة بحث ودراسة، اهتدى إليها الانسان، بعد التطور الحديث

في ميادين العلم المختلفة، وهذه (الدراسة التطورية) لا تهدف إلى اثبات نظرية ما أو انكارها، وانما هي منهج خالص في البحث، أثبت لأصحابه ان الدين باطل، ويمكن ان نفهم

هذه الطريقة الجديدة في ما قاله ت. ر. مايلز:

(ان الدراسة الجديدة هي تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة، وهي لا تستهدف وضع

إجابات قطعية. وهو من هذا الوجه تغير هام طرا على الفلسفة في النصف الأخير من هذا

القرن، ولسوف يبقى هذا التغير مستمرا، دون امل في توقفه على المدى (١) البعيد). ولا بد لباحثينا إذا ما أرادوا البحث في العلوم الحديثة، دفاعا عن الدين، الا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير، سواء اعتبرناه تفسيرا علميا محضا توصل اليه المفكرون المحدثون، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل، ركنوا اليه، حين أخفقوا في البحث عن التفسير

المادي للكون، بعد انكار الدين.

وعلى سبيل المثال: ان الاعمال التي قام بها علماءنا لاثبات النبوة، تفترض مقدما ان العصر الحديث يدعي: ان محمدا صلى الله عليه وسلم (كان نبيا كاذبا)، فيبدأون في جمع كميات كبيرة من المواد التي تثبت ان محمدا كان (نبيا صادقا). ومغزى القول: (كان محمد نبيا كاذبا)، هو ان هناك أنبياء آخرين صادقين، على حين يشك الانسان الجديد

في المبدأ نفسه، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلا. فأما (النبى الكاذب) False Prophet فهو

اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى، الذين يؤمنون بأنبيائهم، وينكرون نبى الاسلام. واما العقل الحديث، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبيا (صادقا أو كاذبا)، وانما يبحث عن

.۱۳ P ,۱۹۵۴ ,Religion & the Scientific Outlook (۱)

(۱۹)

منبع كلامه النبوي، وينتهي اعتمادا على المناهج المعروفة، إلى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو: (اللاشعور)... وهو يرى ان التعبير عن كلام اللاشعور بالوحي والالهام يصلح ان يكون استعارة جميلة، ولكنه يستحيل اعتباره واقعا حقيقيا. ولذا، فان مهمتنا لا تنتهي عند اثبات صدق نبوة رسول الاسلام، بل علينا ان نضطلع بالبحث عن الوحي والالهام، ونثبت ان الوحي ينزل على أناس معينين، من بينهم نبي الاسلام. ***

كان هذا موقف من يتصدى لنقد الفكر الحديث، دون فهم موقفه من القضية. وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين. ولكنهم، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث، يرون ان كل ما توصل اليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات العلمية)، ومن ثم تقتصر بطولتهم على اثبات ان هذه النظريات، التي سلم بها علماء الغرب، هي نفس ما ورد في القرآن الكريم، وكتب الأحاديث الأخرى. وهذه الطريقة في التطبيق والتوفيق بين الاسلام وغيره، هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة. واية نظرية تقدم على هذا النحو، يمكنها ان تكون تابعة، ولكنها لا يمكن ان تكون رائدة! ولو خيل إلى أحدنا انه يستطيع ان يغير مجال الفكر في العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية، ليشرق على البشرية نور الحق، فهو هائم ولا شك في عالم خيالي، لا يمت إلى الحقائق بسبب.. فان تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتي من طريق التلفيق، بل عن طريق الثورة الفكرية. وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسي وهام من أفكار الدين، فلا بأس بان يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة (الشهاب الثاقب) التي وردت في القرآن، حين يجد كشافا جديدا في علم الفلك الحديث، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التي تثار حول الدين، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلي في هيكل الفلسفة الدينية بنفسه.

وأوضح مثال في هذا، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا (نظرية النشوء والارتقاء)، لان علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها، بعد دراساتهم ومشاهداتهم.. واضطروا، بناء على هذا، إلى تفسير جديد للاسلام في ضوء النظرية الجديدة، وحين احتاجوا إلى لباس جديد، قاموا بتفصيل ثوب الاسلام مرة أخرى،

ولكنه
ثوب مشوه المعالم، لا اثر فيه من روح الاسلام، التي ضاعت مع الاجزاء المقطعة في
عملية التلفيق الجديدة.

ان نظرية النشوء والارتقاء تستهدف اقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية. وبناء على هذا: لا بد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي، لا في المستقبل. ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم. ولذا، ادعى العلماء المسلمون، الذين قبلوا هذه النظرية، ان الجحيم ليست مكانا للعذاب، وانما هي مركز للتربية والتزكية. فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات. والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب، سوف يمرون

بأحوال الجحيم الصعبة، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة. ومن هنا ترى هذه الطائفة ان قوانين الملكية مثلا في الاسلام، ليست الا (احكاما مؤقتة)، فان هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعي ويمكن فهم نوعية الاعمال التي قام بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين، فهي اعمال ناقصة، رغم الجهود التي بذلت في صوغها. ولا يدعي المؤلف ان محاولته تخلو من

النقص. ولكنه يقول: ان المحرك الحقيقي لمحاولته هو شعوره بان عملا من هذا

القبيل

كان لا بد ان يكون.

ان الطريقة التي يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين: فكرية وتجريبية، وبعبارة أخرى: فلسفية وعلمية، ان صح التعبير. وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية، وهي التجريبية أو العلمية. والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي

وضعت على المنهج الأول، على حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني. وانني لأشعر بأن المضممار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لا ثبات الدين، هو تصديق لما جاء في القرآن، في سورة النمل: (وقل الحمد لله، سيريكم آياته فتعرفونها). وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الامكانيات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة.

وهذا الكتاب ليس دراسة موضوعية، بل هو دراسة ذاتية، بناء على التقسيم الجديد للكتب.

وهذا الواقع، كما يرى العقل الحديث، هو، من تلقاء نفسه، صوت ضد الكتاب! فكيف يمكن

الاعتماد على دراسة ذاتية، قدمها عقل يستهدف اتجاها معيناً؟ وجوابا على هذا الاعتراض، الذي قد يثار، انقل هنا عبارة للمستشرق النمسوي المسلم محمد أسد في مقدمة

أحد كتبه:
(ان هذا الكتاب لا يستهدف مسحاً محايداً للمسائل بل هو عرض لقضية هي قضية
الاسلام في
مواجهة الحضارة الغربية) (١).

(١) Islam at the Crossroads, p ٦.

وعلى الرغم من الاحكام التي قدمها علم النفس حول امكان ان يكون المرء محايدا في أبحاثه، أو لا، فإنني أسلم نظريا بأنه لا بد لكل مؤلف ان يبذل قصارى جهده، لكي يكون

محايدا، من أجل الوصول إلى نتيجة ما، وهذا هو ما يقصده كل كاتب امين. لكن هذا الكاتب نفسه، عندما يجلس إلى مكتبه في الواقع لا نجده باحثا عن الحقيقة أثناء كتابته، بل يكون قد توصل إلى احكام محددة المعالم.

وهناك طريقة أخرى، هو ان يسرد المؤلف قصة بحثه بجميع مراحلها، غير أن اعتبار مثل

هذا الكتاب محايدا لا يعدو ان يكون قناعا مزر كشاً تختبئ تحته أهداف المؤلف.

فليس

هناك من كاتب يبدأ دراسته عندما تبدأ الكتابة، وانما هو يعرض نتائج بحثه في كتابه. فالكتاب انما يكون ذاتيا أو موضوعيا، بالنظر إلى طريقة ترتيبه للموضوعات، ولا علاقة لهذا الترتيب بحياد البحث أو موضوعيته.

لقد وردت كلمة (الدين) كثيرا في هذا الكتاب، وليس لاحد ان يغالط في هذا الموضوع..

فان الكتاب يدور حول موضوع عام، ولذلك كان لاستعمال الكلمة العامة أهميته. اما ذهن

المؤلف، فإنه لا يقصد بالكلمة شيئا وهميا، وانما يعني (الدين) المعتمد عند الله تعالى الآن وهو دين الاسلام. وانا حين أطلب مواطنا هنديا بمراعاة القانون، فليس معنى ذلك أنه تكفيه مراعاة قانون ما، أو أي جزء من دستور الهند، وانما عليه مراعاة ذلك القانون الذي يعتبر دستور البلاد الرسمي. وهكذا، فالمراد بالدين العملي اليوم هو الاسلام، مع أنه من الممكن اطلاقه على أي شئ عرف في التاريخ بذلك الاسم، ولكن

الدين الذي يجلب رضا الله تبارك وتعالى، والذي يكفل لمعتنقيه نجاة الآخرة، هو الاسلام لا غير..

لقد تعرضت لسؤال بعد محاضرة، ألقيتها في احدى الجامعات، ذات مرة، وكنت أشرت في

محاضرتي إلى مقال لفرويد، فوقف أستاذ في علم النفس، أثناء فترة الأسئلة، وقال: (لقد أشرتم إلى مقال لفرويد، تأييدا لنظرية دينية، على حين يعارض (فرويد) معارضة كاملة تلك النظرية التي تمثلونها).

ومن الممكن إثارة هذا السؤال، حول هذا الكتاب، على نطاق أوسع.. فهناك اقتباسات

كثيرة وردت فيه، ومن الجائز الا يوافق أصحابها على النتائج التي توصلت إليها.
وعلى سبيل المثال: الاقتباس الذي ورد في آخر الباب الخامس (دليل الآخرة). ولكن
هذا
الاعتراض غير ذي موضوع، لان المؤلف لا يدعي ان هذه الشخصيات تؤيد قضاياها..
وبكلمة
أخرى، لم يقل المؤلف: ان هذه القضية، أو تلك، صادقة لان فلانا يصدقها أو

يؤيدها. وعلى العكس من ذلك، فان جميع هذه الاقتباسات قد استعملت توضيحا لدليل أو

قضية، فقد يعبر المؤلف عن قضية معينة بألفاظه تارة، وقد يستعير ألفاظ الآخرين حتى يتبين الموضوع، تارة أخرى.

والاتجاهات التي تمثلها هذه الاقتباسات ليست بآراء ذاتية لأصحابها، وانما هي كشف

علمية، يمنحها الملحدون معاني مختلفة. اما نحن فقد جمعناها حين شعرنا انها في صالح

الدين. واما الاقتباسات التي تؤيد الدين صراحة، فأكثرها لعلماء يدينون بالمسيحية، ولا عجب، فهم يشاركوننا في كثير من العقائد السماوية. * * *

وواضح من عنوان الكتاب، انه يهدف إلى اثبات أحقية الدين امام الفكر المادي الجديد.

وهذا الاثبات يتخذ لنفسه أسلوبين، أولهما: ان نستدل بان الدين ليس (ماديا)، بل فوق المادة، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية ان تعترض طريق الدين. وقد أصبح هذا الاستدلال في غاية القوة، حيث إن العلماء قد اعترفوا في هذا القرن: (بان العلوم المادية لا تعطي الا علما جزئيا عن الحقائق). ومغزاه انه، بناء على اعتراف هذه العلوم نفسها، هناك حقائق أخرى، لا تستطيع العلوم المادية الوصول إليها، ومنها حقائق الدين. ويعتبر كتاب (ج. و. ن. سوليفان) خير محاولة في هذا الموضوع، وسوف

نستعرضه في الباب السابع من هذا الكتاب.

واما الطريقة الأخرى لاثبات حقائق الدين، فهي اتباع نفس الطرق العلمية التي يتبعها العلماء الملحدون لاثبات معتقداتهم. وقد ركز المؤلف أهمية أكثر على هذا الجانب.. فهو يرى أنه لا بد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التي يستغلها الملحدون.. حتى يمكن

اثبات حقيقة الدين. * * *

وهناك ناحية أخرى لا بد من توضيحها هي ان الأسلوب الذي سلكه الكتاب قد يكون غريبا

على بعض الأذهان، من علماء الدين. وإذا كان الامر كذلك، فاني أقول: انه لا بد من مراعاة حقيقة، هي ان هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين، بل هو وليد ضرورة كلامية،

فبالأسلوب الذي يسلك عند تفسير الدين امام أصحاب الفطر الدينية المؤمنة، غير

الأسلوب
الذي يستخدم عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة وأضحوكة
وتخدير للشعوب،
فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التي تثار ضد الدين، كان لا بد من تغيير لهجتنا ولغتنا،
بتلك التي يستغلها الأعداء، حتى نستطيع ان نقف اما العواصف. وعلينا الا ننسى ان
طريقة

الكلام وأسلوبه قد تغيرا بتغير الزمن، ولذلك علينا ان نأتي بعلم كلام جديد لمواجهة تحدي العصر الحديث..

وقبل ان اختتم هذا الحديث أرى لزاما علي ان اعترف بجميل زميلين من الرفاق مهديا إليهما هذا الكتاب وهما من الشخصيات اللامعة التي عرفت بخدمة الاسلام في الربع الأخير من هذا القرن.. وهما: مولانا أبو الأعلى المودودي، ومولانا السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي. فالفضل يرجع إلى الأستاذ المودودي في أنه كان المحرك الذي حثني بطريقة غير مباشرة على أن أضحي بحياتي لخدمة الاسلام منذ خمسة عشر عاما، في أدق

مرحلة من مراحل حياتي.. واما الأستاذ الندوي فهو الذي حملني على القيام بهذا العمل،
فجزاهما الله خير جزاء..

لكناؤ

وحيد الدين خان

في ٢٦ أغسطس ١٩٦٤

الباب الأول: قضية معارضي الدين
تعتبر التطورات العلمية التي حدثت في القرن الماضي انفجارا معرفيا Knowledge
Explosion في وجه جميع الأساطير الانسانية عن الآلهة والدين كما تفجرت
الأفكار

القديمة عن المادة ونسفت بمجرد تفجير الذرة.. هذه هي قضية العلم الحديث
الموجهة
إلى الدين كما يقول البروفسور جوليان هكسلي (١). وتعتبر الصفحات التالية ردا على
هذا التحدي، فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين، ولم تنجح من اية
ناحية

في الإساءة اليه. بل إن جميع ما وصل أو سيصل اليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق
لما

أسماء الاسلام: بالحقيقة الأخيرة قبل أربعة عشر قرنا من الزمان:
سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق (٢).
* * *

والدين، يزعم الملحدون من العلماء: شئ لا حقيقة له، وهو مظهر للغريزة الانسانية
الباحثة عن حقائق الكون، والتي تحاول تفسيره. ان هذه الغريزة الانسانية في ذاتها شئ
مستحسن، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا إلى إجابات غير
صحيحة،

وهي التي تحتويها الآن أفكارهم عن الاله والدين. اما اليوم، وبعد ما توفرت لدينا
الوسائل العلمية، وأصلحت المعلومات الحديثة شيئا كثيرا من معتقداتنا الاجتماعية
والحضارية، فقد حان الوقت لنعيد النظر في جميع ما وصل اليه أجدادنا من أفكار.
* * *

ويذهب الفيلسوف الفرنسي اوجست كونت الذي نشأ في النصف الأول من القرن
التاسع عشر

إلى أن تاريخ تطور الفكر الانساني ينقسم إلى ثلاث مراحل:

(١) Hindustan Times, Sunday Magazine, Sept ٢٤, ١٩٦١.

(٢) فصلت ٥٣.

الأولى: المرحلة اللاهوتية (Theological Stage) وهي التي فسرت الاحداث فيها باسم الاله.

والثانية: المرحلة الميتافيزيقية: وفيها فسر الانسان الاحداث باسم عناصر خارجية، لا يعلمها، ولكنه لا يذكر اسم الاله.

والثالثة: المرحلة الوضعية (Positive Stage)، التي اخذ الانسان يفسر فيها الاحداث

باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة، يمكن ادراكها بالمطالعة، أو بالمشاهدة العلمية. وفي هذه المرحلة لا تذكر الأرواح والآلهة والقوى المطلقة. ونحن، وبناء على هذا، نعيش في المرحلة الثالثة التي تسمى في الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism). ان نظرية الوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية (Scientific Empricism) لم تعرف كحركة علمية عالمية الا خلال العقد الرابع من

القرن الحاضر، ولكنها. كفكرة، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة. وعلى ظهر هذه الفكرة نجد

أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال: هيوم، وميل. إلى برتراندرسل. وقد أصبحت هذه

الفكرة اليوم، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التي تقوم بدور فعال في الدعاية لها،. من أهم الحركات العلمية الحديثة. ويقول أحد الباحثين: كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب. بحيث يمكن فحصها أو اثباتها. بصورة مباشرة أو غير

مباشرة (١). وبناء على هذا يدعي معارضو الدين ان التطور الذي بلغ به الانسان اليوم أعلى مستوى من الانسانية، هو نفي للدين من تلقاء نفسه.. والسرف في ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد ان الحقيقة ليست الا ما يمكن فحصه وتجربته علميا. وقد قام الدين على حقيقة لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علميا وبعبارة أخرى: ان التفسير اللاهوتي للأحداث والوقائع لا يمكن اثباته بالوسائل العلمية، فهو باطل لا حقيقة له. ويترتب على هذا القول بان: الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية، ذلك أن علم الانسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقي للأحداث..، على حين ان القانون العام للتطور أتاح لنا ان نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة.

ويمكن ان نقول هذا الكلام بأسلوب آخر: ان موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب شيكا لا رصيد له في المصرف، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية،

وعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نحوا، ولكن ليس لها أي أساس علمي

.(۲)

.۲۸۵ .Dictionary of Philosophy, N. Y., P (۱)
.۲. .Religiin and The Scientific Outlook, p (۲)

(۲۶)

لقد أثبت (نيوتن) انه لا وجود لإله يحكم النجوم. وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة ان النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي أسطورة لاهوتية.. وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و (باستور) في ميدان البيولوجيا. وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصلنا في هذا القرن بمكان الإله، الذي كان مفروضا انه هو مدير شؤون الحياة الانسانية والتاريخ (١).
لقد قامت قضية معارضي الدين على أسس ثلاثة:

الأساس الأول: بطل هذا الانقلاب في البيولوجيا هو (نيوتن)، الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت ان الكون مرتبط بقوانين ثابتة.، تتحرك في نطاقها الاجرام السماوية ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع، حتى قيل: إن كل ما يحدث

في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم، سموه قانون الطبيعة. فلم يبق للعلماء ما يقولون، بعد هذا الكشف. غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون. وضرب (والثير) مثلا في هذا الصدد: ان الكون كالساعة يرتب صانعها آلتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها، ثم تنقطع صلته بها.، ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الإله الميت، وعلى حد قوله: لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع. ولكننا لم نر الكون

وهو يصنع، فكيف نسلم بان له صانعا؟

لقد جلى التطور العلمي للانسان كثيرا من سلسلة الاحداث التي لم يشاهدها من قبل. فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها

تشرق وتغرب. وها قد عرفنا اليوم ان شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها

وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائيا، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية إلى هذه الحركة الكونية. فإذا كان قوس قزح مظهرا لانكسار أشعة الشمس على المطر، فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء من أجل هذا كله، وغيره قال هكسلي:

إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي ان ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة (٢).

.oλ .p ,19oλ ,.Religion Without Revelation, N. Y (1)
oλ .p ,19oλ ,.Religion Without Revelation, N. Y (2)

(27)

والأساس الثاني: وقد ازداد العلماء يقينا بعد البحوث العلمية في ميدان علم النفس، حين توصلوا إلى نتائج تثبت ان الدين نتاج اللاشعور الانساني، وليس انكشافا لواقع خارجي.

ويقول عالم كبير من علماء النفس:

God is nothing but a projdction of man on a Cosmic screen

ليس الاله سوى انعكاس للشخصية الانسانية على شاشة الكون. وما عقيدة الدنيا والآخرة الا صورة مثالية للأمني الانسانية، وما الوحي والالهام الا إظهار غير عادي لأساطير الأطفال المكبوتة (Childhood Repression) (١).

ويرى علم النفسي الحديث ان العقل الانساني مركب من شيئين هما: (الشعور)، وهو مركز

الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عادية، و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التي مرت بنا ونسيناها، ولا تظهر الا في أحوال غير عادية، كالجنون والهستيريا. وهذا القسم الثاني أكبر بكثير من الأول. ويمكن ان نمثل لهما بجبل من الجليد، فلو قسمناه تسعة اجزاء لكان منها ثمانية في جوف البحر، ولظهر جزء واحد على السطح. اكتشف فرويد بعد جهد طويل ان اللاشعور قد يقبل أفكارا في الطفولة، وتؤدي إلى اعمال

غير عقلية، وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية: فان فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الانسان ابان طفولته، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها، فتبقى دفينة في اللا شعور، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتمناه، شان الرجل الذي قد لا يظفر بما يحب في الواقع فيحصله في المنام.

وهكذا خرجت عقدة التفرقة بين الصغير والكبير (Father complex)؟ من الجرائم

الاجتماعية، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء. ويقول رالف لنتون:

ان عقيدة القادر المطلق الظالم في نهاية الامر، الذي لا يرضى الا بالطاعة الكاملة والوفاء، كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامي. لقد خلق هذا النظام جبروتا غير عادي. وكانت نتيجته ان شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مفصلة عن المحرمات في كل مجال

من الحياة الانسانية. وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون احكام آبائهم العمياء ويطيعونها. وما التصور الإلهي (اليهودي) الا خيال مثالي لأب

سامي، مع شئ من المبالغة والتجريد في الأوصاف والطاقات (٢)

(١) Iqbal Review, April ١٩٦٢ .
(٢) Tree of Culture, Ralph Linton

والأساس الثالث: لقضية معارضي الدين هو: (التاريخ). يقولون: ان القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان، فلم يكن في استطاعته ان يفلت من السهول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض، فأوجد (قوى فرضية) يستغيثها، لتنقذه من البلايا النازلة. وهكذا ظهرت الحاجة إلى شئ يجتمع الناس حوله، ولا يتفرقون، فاستغل اسم (الاله) الذي تفوق قوته قوة الانسان، ويهرع الجميع إلى رضاه).

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم الدين وبجانب المؤثرات الأخرى التي ساعدت في خلق الدين، فان اسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جدا في هذا المجال.، ان الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التي كانت تسود على ظهر الأرض. فعقيدة كون الإله الملك الأكبر صورة أخرى للملكية

الانسانية، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية. وكان الملك الأرضي القاضي الأكبر، فأصبح الاله يحمل هذه الصفات، ولقب بالقاضي الأكبر الأخير،

الذي يجازي الانسان على الخير والشر من اعماله. وهذه العقيدة القضائية التي تؤمن بكون الاله محاسبا ومجازيا لا توجد في اليهودية فحسب، وانما لها مقامها الأساسي في

العقائد الدينية. المسيحية والاسلامية (١).

لقد خلق العقل الانساني الدين، وتم خلقه، في حالة جهل الانسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية. ويضيف جوليان هكسلي إلى هذا قوله:

فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الانسان وبيئته (٢). ويقول أيضا:

ان هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد. وقد كانت هي المسؤولة عن هذا التعامل، فاما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين، ويضيف لقد انتهت العقيدة

الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهي لا تستطيع ان تقبل الآن أية تطورات: لقد اخترع الانسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين، جاء بالسحر، ثم بالعمليات الروحية.، ثم بالعقيدة الإلهية، حتى اخترع فكرة (الاله الواحد). وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته.، ولا شك ان هذه العقائد كانت في وقت ما جزءا مفيدا من حضارتنا،

بيد ان هذه الاجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها، ومدى افادتها للمجتمع الحاضر المتطور (٣).

.۲۳۳ .p ,۱۳ .Vol ,۱۹۵۷ ,Encyclopaedia of Social Sciences (۱)
.۱۳۰ .Man in the Modern World, p (۲)
.۱۳۱ .Ibid. p (۳)

وترى الفلسفة الشيوعية ان الدين خدعة تاريخية، وهي تركز الأسباب في عوامل اقتصادية، لأنها تنظر إلى التاريخ في ضوء الاقتصاد. وهي ترى ان العوامل التاريخية التي خلقت الدين هي النظام البورجوازي الاستعماري القديم. وهذا النظام القديم يلقي اليوم حتفه. فلندع الدين أيضا يذهب معه.
يقول فيلسوف الشيوعية انجلز:

ان كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الخير من خلق الظروف الاقتصادية (١)
فالتاريخ الانساني هو تاريخ حروب الطبقات التي امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء، وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين.

ويقول البيان الشيوعي: (Communist Manifesto):

ان الدستور والاخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية، وهي تتستر وراءها من أجل مطامعها.

ويقول لينين في خطاب له ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في اكتوبر سنة ١٩٢٠: اننا لا نؤمن بالاله، ونحن نعرف كل المعرفة ان أرباب الكنيسة والاقطاعيين

والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الاله الا استغلالا، ومحافظة على مصالحهم، اننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة، غير الانسان،

والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقيّة، ونؤكد ان كل هذا مكر وخداع، وهو ستار على عقول

الفلاحين والعمال، لصالح الاستعمار والاقطاع، ونعلن ان نظامنا لا يتبع الا ثمرة النضال البروليتاري، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقيّة البروليتارية (٢).

كانت هذه هي قضية معارضي الدين التي يزعم بعض العلماء الجدد بناء عليها ما يمكن تلخيصه في كلمة أستاذ أمريكي في طب الأعضاء:

s crueliest and whckediest hoaxScince has shown
.Religion to be history

لقد أثبت العلم ان الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ (٣).
ولسوف ننظر في مدى صحة هذه القضية على أسس علمية في الباب الآتي، ان شاء الله.

.۱۳۱ .p ,۱۹۵۴ ,Anti Duhring, Moscow (۱)
.۶۶۷ .Vol, II, p ,۱۹۴۷ ,Lenin, Selected Works, Moscow (۲)
, ۴ .Quoted by CA Coulson, Science & Christian Belief, P (۳)

الباب الثاني: نقد قضية المعارضين
عرضنا في الباب الأول قضية المعارضين، الذين يزعمون أنه لا داعي لان يبقى الدين في
عصرنا الحاضر. والحقيقة ان هذه القضية لا تقوم على أساس، ولسوف نتناول في
الأبواب

الآتية، أفكار الدين الأساسية، واحدة واحدة، لننظر في مدى حقيقتها، كما كانت قبل
العصر الحديث.

واليكم نقدا عاما لقضية المعارضين:

أولا: حقيقة الطبيعة:

لنتكلم أولا في الدليل الذي يعرض باسم البيولوجيا، وهو ان الحوادث تحدث طبقا
(لقانون الطبيعة)، فلا حاجة لان نفترض لهذه الحوادث إلها مجهولا. ان أحسن ما قيل

في

هذا الصدد ما قاله عالم مسيحي: Nature is A Fact, Not An

Explanation

ان الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيرا (له). لان ما كشفتم ليس بيانا
لأسباب وجود الدين، فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور وراء
الكون، وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون. ان العلم الحديث تفصيل لما يحدث،
وليس

بتفسير لهذا الامر الواقع، فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال: ما هذا؟، وليس
لديه إجابة عن السؤال: ولكن لماذا؟. وان التفسير الذي نحن بصدده هنا يتعلق
بالأمر الثاني.

لنفهم هذا من مثال بسيط. فالكتكوت يعيش أيامه الأولى، داخل قشرة البيضة القوية،
ويخرج منها بعد ما تنكسر مضغة لحم، كان الانسان القديم يؤمن بان الله أخرجه
ولكننا

شاهدنا اليوم بالمنظار انه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار
الكتكوت، يستعمله في تكسير البيضة، لينطلق خارجا منها. ثم يزول هذا القرن بعد
بضعة

أيام من خروجه من البيضة.

هذه المشاهدة، كما يزعم المعارضون، أبطلت الفكرة القديمة القائلة: بان الاله يخرج الكتكوت من البيضة، إذ قد رأينا يقينا ان قانونا لواحد وعشرين يوما يحدث هذه العملية والحقيقة ان المشاهدة الجديدة لا تدلنا الا على حلقات جديدة للحادث، ولا تكشف عن سببه الحقيقي، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسر البيضة، بل عن

(القرن)؟. ان السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا

القرن.،، العلة التي كانت على معرفة كاملة بان الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع ان نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) الا انه مشاهدة للواقع على نطاق أوسع، ولكنه ليس تفسيراً له.

يقول البروفسور (سيسيل بايس هامان)، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا: كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل إلى الاله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيميائياً، هل أبطل هذا وجود الاله؟ فما القوة

التي أخضعت العناصر الكيميائية لتصبح تفاعلاً مفيداً؟... ان الغذاء بعد دخوله في الجسم

الانساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل ان يتحقق وجود هذا النظام

المدهش باتفاق محض. فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات ان نؤمن بان الله يعمل

بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!. (١)

كان الانسان القديم يعرف ان السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع،

وليست في ذاتها تفسيراً لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف

قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى أن العلماء يستنبطون

منها قوانين علمية؟ والحقيقة ان ادعاء الانسان بعد كشفه لنظام الطبيعة انه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة

مكان الحلقة الأخيرة.

ويضيف العالم الأمريكي سيسيل قائلاً:

Nature does not explain, she is herself in need of
.explanation

ان الطبيعة لا تفسر شيئاً (من الكون)، وانما هي نفسها بحاجة إلى تفسير.
فلو انك سألت طبيبا: ما السبب وراء احمرار الدم؟
لأجاب: لان في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منها ٧٠٠ / ١ من البوصة!

(١) The Evidence of God in an Expanding Universe, p ٢٢١.

حسنا، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟
في هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين) وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين في القلب.

هذا لجميل. ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل الهيموجلوبين؟
انها تصنع في كبدك.

عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها، بعضها

ببعض ارتباطا كليا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟
هذا ما نسميه بقانون الطبيعة.

ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا. يا سيدي الطبيب؟

المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيمائية.

ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها، حتى تطير

الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد انسان في الدنيا، بجميع ما لديه من
الامكانيات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

لا تسألني عن هذا، فان علمي لا يتكلم إلا عن: (ما يحدث)، وليس له ان يجيب:
(لماذا

يحدث؟).

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا
الكون.

ولا شك انه قد ابان لنا عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين
جواب لسؤال آخر، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية، فلو أن هذه الكشوف
زادت

مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الانسانية بحاجة إلى الدين، ان جميع هذه
الكشوف

حلقا ثمينة من السلسلة، ولكن ما يحل محل الدين لا بد ان يشرح الكون شرحا كليا
وكاملا. فما الكون على حاله هذه الا كمثل ما كينة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها
الا انها (تدور:)، ولكننا لو فتحنا غطائها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر
وتروس كثيرة، يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلها. هل معنى هذا اننا قد علمنا
خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها؟ هل يفهم منطقيا ان مشاهدتنا
هذه

أثبتت ان الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتيا؟ لو لم يكن هذا
الاستدلال منطقيا فكيف إذن ثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون انه جاء تلقائيا،

ويتحرك ذاتيا؟...
لقد استغل البروفسور هريز (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن
النشوء والارتقاء، فقال:

ان الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصلح)، ولكنه لا يستطيع ان يفسر حدوث هذا الأصلح: (١).

ثانيا: اللاشعور ودليل علم النفس:

لنعالج الآن الدليل الذي يقدمه علم النفس والقائل بان الاله والآخرة قياس للشخصية الانسانية واما نيتها على مستوى الكون. ولست بمستطيع ان أدرك نقطة الاستدلال في هذا

الدليل. ولو انني ادعيت بدوري ان الشخصية الانسانية وأمانيتها موجودة فعلا على مستوى

الكون فلست أدري ما عسى ان يبطل ادعائي هذا من منطق المعارضين؟!

نحن نعرف ان مادة (الجنين) التي لا تشاهد الا بالمنظار تنبئ في ذاتها عن انسان طوله ٧٢ بوصة، وان (الذرة) التي لا تقبل المشاهدة تحتوي نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسي، فلا عجب اذن ان يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الانسان في

الجنين، وعلى مستوى النظام الشمسي في الذرة موجودا أيضا، وبصورة أكمل على مستوى

الكون. ان ضمير الانسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا، فلو كان هذا الامل صدى

لعالم حقيقي فلست أرى في ذلك أي ضرب من ضروب الاستحالة!! (١) لا شك في قول العلماء: ان الذهن الانساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد في صورة غير عادية. ولكن سوف يكون قياسا مع الفارق ان نعتمد على هذه الفكرة كي نبطل

الدين. فهو قياس في غير محله، وهو يعتبر استدلالا غير عادي من واقع عادي. فهو أشبه

بمن يشاهد مثلا يصنع صنما فيصرخ: هذا هو الذي قام بعملية خلق الانسان. ومن معايب الفكر الحديث انه يستنبط من حادث عادي دليلا غير عادي، فهذا الدليل لا

وزن له من الناحية المنطقية، ولو افترضنا ان رجلا يسير في شارع اخذ يهذي بكلام غريب

نتيجة لأفكار مختزنة في ذهنه، فهل يمكن ان نستغل هذا الحادث في البحث في كلام الأنبياء، وهو الكلام الذي يكشف سر هذا الكون...؟؟ سوف يكون هذا الاستدلال غير علمي،

وغير منطقي، ولسوف يدل على أن صاحبه يفتقر إلى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام

رجل الشارع وكلام الأنبياء، فلا يدعي ان هذا الهديان هو المسؤول عما جاء به الدين.
فالقيم تتغير ذاتيا بتغير الأوضاع، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد إلا عند أصحاب
الفكر الحديث.

(١) A. Lunn, *Revolt against Reason*, ١٣٣.

ولنتخيل ان رهطا من سكان بعض النجوم هبط الأرض..، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرّون على

الكلام، ولنتصور انهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية إلى تكلم الانسان، وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح، واحتك غصنان، أحدهما مع الآخر.. فنتج صوت،

وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح، وإذا بهم يعلن كبيرهم: لقد عرفنا سر كلام الانسان، وهو ان فمه يحتوي على فكين من الأسنان، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت! ولا شك انه إذا احتك شئ بالآخر يحدث صوتا، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن

سر الكلام الانساني، كما لا يصح تفسير اسرار النبوة بكلام غريب كهذيان رجل الشارع،

في حال الجنون أو الهستيريا.

(ب) واللا شعور الانساني من الوجهة العلمية فراغ في اصله، لا شئ فيه قبل مولد الانسان، وانما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن، لان (اللا شعور) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الانسان في حياته، ولو مرة، ومن المستحيل ان

يحتزن حقائق لم يعلمها من قبل. والذي يشير الدهشة ان الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان

اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا

طريق لهم إلى العلم بها؟

ان الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة الطبيعة، والفلك، وعلم الحياة، وعلم الانسان، وعلم النفس، والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم، وكل حديث في التاريخ الانساني مصدره (الشعور)، فضلا عن اللا شعور، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة. اما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيوب..، رغم اتصاله بجميع العلوم، ولقد

مرت قرون اثر قرون، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون، وما زال صدق كلام النبوة باقيا على الزمان، ولم يستطيع أحد ان يدل على باطل جاء به، وكل من حاول ذلك أخفق.

وإيكم مثلا من هذا القبيل اعتمد عليه فلكي كبير، حتى ادعى انه كشف غلطة علمية في

القرآن الكريم.
يقول (جيمز هنري بريستد):
لقد راج التقويم القمري في الدنيا لكثرة تداوله في غرب آسيا، ولغلبة الاسلام
سياسيا بوجه خاص ولقد مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاختلاف بين التقويم
القمري
والشمسي إلى أقصى حد من العبث يمكن تصوره، حتى أنه أبطل إضافة الشهور
الكبيسة

(Intercalary months). ان السنة القمرية المزعومة تشتمل على ٣٥٤ يوما،
وتقل أحد عشر

يوما عن السنة الشمسية. وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة، وثلاث
سنين
في كل قرن فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في
ابريل.

لقد مضى ١٣١٣ عاما منذ (١) الهجرة، حيث إن قرننا (الميلادي) هو بمثابة مائة سنة
و ثلاث سنين في تقويم المسلمين، وقد سجل تقويمهم واحدا وأربعين عاما زائدا في
هذه

المدة من قرننا. وقد الغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة إضافة
الشهور (Intercalation) لتجعل بتقويمها مثل التقويم الشمسي. وهذا هو السبب
في أن

غرب آسيا يعاني حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة التقويم القمري (٢).
لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمري والشمسي. ولكن لا بد من توضيح ان
ما

نسبه المؤلف إلى رسول الاسلام هو في الحقيقة غفلة شديدة ترجع إلى المؤلف نفسه،
ولم

يمنع القرآن الكريم إضافة (الشهور الكبيسة)، وانما حرم النسيء (التوبة: ٣٨)، ومعناه
في اللغة: (التأخير)، ومنه: (نساء الدابة) عن الحوض لكي تشرب الخرى، ومعناه في
الاصطلاح: (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه).

لقد كان من بين العادات الكريمة التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام العرب تحريم
أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب،
وقد

كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية، لكي يؤدوا فريضة الحج والعمرة.
و حين دب

الفساد في بعض القبائل، اخترعوا بدعة (النسيء)، وهي ان يضعوا شهرا غير حرام
محل

الشهر الحرام، كأن يجعلوا صفر في مكان المحرم، وذلك لكي يحاربوا قبيلة يلزم قتالها
في الشهر الحرام. وهذه هي البدعة المقيتة التي وصفها القرآن الكريم بأنها: (زيادة في
الكفر).

وقال العلماء: ان الشهور الكبيسة كانت رائجة في العرب، وكانوا يضيفون عدد الشهور
في

السنة للتقويم. وقال مفسر للقرآن الكريم في هذا الموضوع. وهو مولانا شبير احمد

العثماني في تفسيره: ان بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمري. ولا يدخل هذا العمل في النسيء).
ان ما قاله رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم في عهد الظلام لم يكن من الجهالة، ولا يدخل

(١) كان ذلك في عام ١٩٣٥ م.
(٢) Time and its Mysteries, N Y .١٩٦٢ , p .٥٦.

قطعا في نطاق ما أورده (جيمز هنري بريستد) طعنا عليه، ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادرا عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء، ما من ذلك بد. ***

ثالثا: الاستدلال بالتاريخ والاجتماع:

ان الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطأهم الأساسي انهم لا يدرسون الدين من وجه

صحيح، ولهذا يبدو لهم الدين شيئا غريبا، ومثال ذلك أن ترى شيئا مربعا من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثا. ان الخطأ الذي يقعون فيه هو انهم يتناولون الدين على أنه مشكلة موضوعية Objective problem. فهم يجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه

اسم (الدين)، من رطب ويابس، في أي مرحلة من التاريخ، ثم يتأملون في ضوء هذا المحصول

حقيقة الدين!! ان موقفهم ينحرف من أولى مراحلها، فيبدو لهم الدين جراء هذا الموقف الفاسد عملا اجتماعيا. لا كشفا لحقيقة، ومن المعلوم ان لكل ما يكشف عن حقيقة من

الحقائق مثلا أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق ان ندرس مظاهرها وتاريخها في

ضوء مثله الأعلى.. اما الأمور التي تأتي بها اعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى. وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها.

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف.، فليس من الممكن البحث عن حقائقه، كما يبحث عن

تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات، لان الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها، أو يقبلها في شكل ناقص، ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة

واحدة في ذاتها، وانما يختلف في اشكاله المقبولة، ولهذا لا يمكن ان نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الاشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين.

ولنأخذ على سبيل المثال لفظ (الجمهورية). فهي قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم وفي ضوء

هذه القيمة نستطيع ان نحكم على بلاد بأنها جمهورية، أو بأنها ليست كذلك. لكننا لو

ذهبنا نبحث عن معاني (الجمهورية) في النماذج السياسية التي توجد عبر القارات، ويلتصق بها لفظ (الجمهورية)، ثم زعمنا ان كل هذه البلاد قائمة (على أسس

جمهورية). فسوف تصبح كلمة الجمهورية بلا معنى. ففي هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الأمريكية. وستعارض (جمهورية) إنجلترا (الجمهورية) العربية المتحدة. كما أن (جمهورية) باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التي تلتزم بها الهند. فإذا تأملنا كل هذه المشاهدات في ضوء (فلسفة التطور) فإن هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتما، لان فرنسا التي أنجبت النظام الجمهوري سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل في ديكتاتورية ديجول العسكرية. وهذا النهج في التناول يؤدي إلى نتيجة غريبة، هي انه لا حاجة إلى (الاله) في الأديان!!

إذ يوجد مثال لهذا في تاريخ الأديان وهو مثال البوذية. التي تخلو تماما من فكرة (الاله). ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الاله، ولو اننا

سلمنا بالفكرة القائلة بان شيئا مثل (الدين) لا بد منه للانسان، لحاجته إلى الوعي الخلقى والتنظيم الاجتماعي، فلا داعي إذن للإله ان يوجد، وربما قيل: إن الدين الذي يصح لهذا العصر يلزم ان يكون مثل البوذية فان اله العصر الحاضر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية)، ورسول هذا الاله هو (البرلمان) الذي يوجه الشعب إلى ما يرضيه، ومعايد هذا الاله العصري ليست المساجد أو الكنائس القديمة، وانما هي المصانع الكبيرة والسدود العظيمة (١)

ان لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة، التي تنتقل من (دين الاله) إلى فكرة (الدين بغير الاله) وذلك ناشئ عن الطريق المعوجة التي سلكها بحثهم، وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحي العلمية الأخرى التي

تلقي ظلالات من الشكوك حول جداولهم الارتقائية. ومثاله ان علماء الاجتماع والانسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة إلى أن (نظرية الاله) شكل ارتقائي لفكرة تعدد الآلهة، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه إلى طريق غريبة، وحيير العلماء كما شوش امره على نفسه، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة، غير أن هذا الارتقاء ضل تعدد الآلهة إلى فكرة الاله الواحد.

ان فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قيما اجتماعية مؤداها ان يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة في سلام باعتراف متبادل ما بينهم ولكن فكره الاله الواحد بطلت حتما هذا الامكان بخلقها نظرية الدين الأعلى (Higher Religion) ونتيجتها ان بدأت حروب ضارية لا نهاية

لها بين شعوب الدنيا وهكذا سعت فكرة الاله الواحد إلى حتفها بظلفها، بارتقائها في اتجاه مناقض. وهذا هو قانون النشوء والارتقاء (٢)

ولكننا فعلا قد تركنا الواقع الحقيقي في هذا الجدول، فالتاريخ المعلوم يثبت ان أول رسول معلوم كان سيدنا نوحا عليه السلام، وكان يدعو إلى الله الواحد. كما أن تعدد الآلهة (Polytheism) ليس في درجة واحدة. وانما معناه: ان يشرك الانسان مع الاله

الأكبر آلهة آخرين. يقربونه اليه ويشفعون له وفي وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء إلى ادعاء لا دليل عليه.

وفكرة (ماركس) هي أكثر نظريات هذه المجموعة عبثا، فهي تقول: ان الأحوال الاجتماعية

هي التي تقوم ببناء الانسانية وتكملها، ومن ثم كان العصر الذي وجد فيه الدين

(١) Religion Without Revelation, Julian Huxley

(٢) Man in the Modern World, p ١١٢.

عصر الاقطاع والرأسمالية. وهو عصر الانتهازيين للصوص، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التي تولدت في هذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازي الاستعماري. والحق

ان هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية. كما انها عند التحليل العلمي والتجربة العملية لا طريق إلى تصديقها.

فالفكرة الماركسية تنفي بشدة إرادة الانسان.، وهي تحيل الاحداث إلى تأثير عوامل أزمة الزمن الاقتصادية، ومعنى ذلك أن الانسان لا شخصية له، فهو يصاغ في مجتمعه، كما

يصاغ الصابون في المصنع، ولا طريق امامه كي يشق أفكارا وطرقا جديدة وانما هو ينطلق

مفكرا على النهج الذي سمحت له به حياته الاقتصادية، فإذا كانت هذه القضية صحيحة،

فكيف تمكن كارل ماركس وليد النظام الرأسمالي من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره، هل صعد القمر لكي يبحث في أحوال الأرض؟ وبعبارة أخرى: لو صح ان الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام

الاقتصادي لعصرها؟؟.. وإذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة إلى الدين؟؟.. الحق ان هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره أي دليل علمي

أو عقلي.

هذا وقد اتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية. وحسبنا روسيا، هنالك حيث سادت

الماركسية نصف قرن من الزمان. ادعت روسيا خلاله ان أحوال البلاد المادية قد تغيرت

تماما وان النظام الزراعي.، والمبادلة، وتقسيم الأموال.، قد جرت على أسس غير استغلالية، ولكننا وجدنا حين مات ستالين ان قادة الروس أنفسهم قد أقروا بان الظلم والفساد كانا رائجين في عهده، وانه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام في البلاد الاستعمارية. ولو وضعنا في اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الاعلام، وهي التي تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم ان عهده هو عهد العدل والانصاف، فلا ريب ان هذه الرقابة موجودة هناك اليوم أيضا، ومن هنا نستطيع ان نفهم

ان الأمور تجري وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه في عهد ستالين. وان كان المؤتمر العشرون (١٩٥٦) للحزب الشيوعي الروسي قد أفشى مظالم ستالين.،

فلا غرابة

ان يجيء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعي بافشاء اسرار حكام روسيا اليوم (١).
ان هذا النظام الذي استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلنا على أن الانسان لا
يتغير بتغير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم، ولو كان العقل الانساني تابعا للنظام
الاقتصادي فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال في نظام روسيا الشيوعي؟

(١) وقد اكد هذا عزل خروشوف والحوادث التي تلتها في روسيا في اكتوبر عام ١٩٦٤ م.

ان قضية العصر الحاضر لا تعدو ان تكون سفسطة علمية Scientific Sophism ذلك أن

علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم في ضوء العلم الحديث، غير أن هذه المعالجة لا تجدي

نفعاً، لأنها قائمة على العلم المحض و حسب، على حين لا بد من اعتبار أشياء أخرى، ومثال ذلك: ان نشرع في دراسة علمية لأشياء علمية ناقصة، فسوف تؤدي هذه المطالعة

العلمية إلى نتائج غير علمية، ناقصة، باطلة..

لقد عقد في دلهي في يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولي للمستشرقين، اشترك فيه الف ومائتان من

العلماء من جميع انحاء العالم. وقدم أحدهم في هذا المؤتمر بحثاً يدعي فيه مآثر كثيرة لمسلمي الهند ليست من عمل المسلمين، وانما هي من عمل الملوك الهندوس. وضرب لذلك مثلاً

بمنارة قطب في دلهي المنسوبة إلى الملك قطب الدين ايبك، على حين بناها الملك الهندوسي سامودرا جوبت قبل ٢٣ قرناً. وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوا إلى الملك

قطب الدين. ويستدل هذا البحث بان في المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة نحتت قبل عصر الملك قطب الدين.

وهذا كما يبدو استدلال علمي. إذ أن بعض أحجار المنارة فعلاً من الصنف الذي ذكره العالم، ولكن هل يكفي مشاهدة بعض أحجار المنارة للبت في امر بانيتها؟ أو انه لا بد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها في هذا الصدد. ومن هنا فان هذا التفسير لا يصدق على

منارة قطب ككل. هذا تفسير. وهناك تفسير آخر، هو ان هذه الأحجار القديمة التي يوجد

بعضها في المنارة. انما جاءت من أنقاض أبنية قديمة، كما هو معروف في كثير من الأبنية التاريخية الحجرية. ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثاني حين نشاهد منارة قطب الدين في ضوء طابعها المعماري ورسومها وتصميمها. والمسجد الناقص بجوارها، والمنارة الثانية التي لم تكمل، ثم ننتهي إلى أن التفسير الأول ليس إلا قياساً خاطئاً قائماً على المغالطات.

وهذا هو امر قضية المعارضين، فإنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية، لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقاً، واعتقدوا ان الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين، على حين اننا

لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلا فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف.

والدليل الذي يقنعني بصدق الدين هو ان عقولا مثالية منا بعد أن تركت الدين قد اخذت

تهذي بكلمات لا حقائق وراءها، وتعمه في تيه الظلام، ذلك أن الانسان بعد أن يفقد أساس (الدين) لا يجد أساسا آخر لأفكاره. والأسماء التي تأتي في قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة، ولكنهم بعد أن تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروبا من اللغو غاية في الاهمال والتمزق، حتى انني أتحير أحيانا - فلا افهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء؟.. وان السجل الذي أنتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وآراء

متناقضة، واعترافات بجهل الحقيقة، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة. فبطولة هؤلاء

تكمن في أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء، كما تتمثل في استدلالهم بالشاذ من الأمور.، وذلك من سمات القضايا الباطلة.، اما القضايا الصحيحة فإنها تقوم على أسس علمية ثابتة، لا على الشواذ. ***

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الانسانية في ضوء الدين، انها صورة جميلة لطيفة، تتوافق مع أفكار الانسان السامية، كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية، بعكس تلك الصورة التي يرسمها المعارضون، فهي صورة جدا قبيحة، وهي لا تتفق أبدا مع الذهن الانساني، وانظر إلى ما

يقوله برتراند رسل:

والانسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، ان بدأه ونشوءه، وأمانيه ومخاوفه، وحبه وعقائده، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نضام الذرة، والقبر ينهي حياة الانسان. ولا تستطيع اي قوة احياءه مرة أخرى. ان هذه المجهودات الطويلة. والتضحيات،

والأفكار الجميلة، والبطولات العبقريّة، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي. ان الكفاح الانساني كله سوف يدفن حتما مع الأرض تحت أنقاض الكون، ولو لم

تكن هذه الأفكار قطعية فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة، حتى أن اية فلسفة تحاول انكارها ستلقى فناءها تلقائيا (١).

ويكاد هذا الاقتباس ان يكون خلاصة الفكر المادي، فالكون في ضوء هذا الفكر المادي

يكاد يفقد أهدافه، ولا يبقى غير الظلام الحالك، الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر، حتى أن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلما، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أنه حال يوما ما. اما الفكر الديني فهو فكر الضوء والامل. الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة، وكل القيم والأفكار الانسانية السامية تجد لها مكانا فيه، وان كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة، فان تصديق العقل الانساني الفكر الديني دليل قطعي على أنه هو الحقيقة التي طالما بحثت عنها الفطرة الانسانية.، وعندئذ لا نجد أساسا واقعيا لانكار قيمة الفكر الديني، هذا وهو؟ المقياس العلمي الذي يشير اليه الرياضي الأمريكي البروفسور (ارل تشستر ريكس) قائلا:

انني استخدم في أبحاثي ذلك المقياس العلمي المسلم، الذي يستخدم في ترجيح احدى

فكرتين مختلفتين أو أكثر، عن حقيقة واحدة. وهو المقياس الذي نرجح بناء عليه
الفكرة
التي تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة. لقد استخدم العلماء هذا
المقياس

(١) Limitations of Science, p ١٣٣.

لاختيار احدى نظريتي بطليموس وكوبرنيك: كانت الأولى تزعم ان الأرض هي مركز النظام الشمسي. على حين أكدت الثانية ان النظام الشمسي هو مركز الأرض. وكانت نظرية بطليموس غاية في التعقيد حتى رفضها العلماء (١) ولا بأس من الاعتراف بان هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس. فان أبواب عقولهم المادية موصدة دون أي كلام مهما يكن علميا عن الاله أو الدين. ومن المؤكد ان موقفهم هذا ليس لان استدلالنا ضعيف، وانما هو راجع إلى تعصبهم المقيت ضد الأفكار الدينية، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جينز الذي يعتبر ولا شك أعظم علماء العصر الحديث حيث قال في كتابه الشهير (عالم الاسرار).

ان في عقولنا الجديدة تعصبا يرجح التفسير المادي للحقائق (٢) وذكر (ويتكر شامبرز) في كتابه (الشهادة) Witness حادثا كان من الممكن ان يصبح نقطة تحول في حياته. ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلقت أذناها نظره. فاخذ يفكر في أنه من المستحيل ان يوجد شيء معقد ودقيق، كهذه الاذن، بمحض اتفاق، بل لا بد انه وجد نتيجة إرادة مدبرة. لكن (ويتكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه، حتى لا يضطر ان يؤمن منطقيا بالذات التي أرادت فدبرت، لان ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة.

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديودباركس) بعد أن يذكر هذا الحادث: انني اعرف عددا كبيرا من أساتذتي في الجامعة. ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر. وهم يقومون بعمليات كيميائية وطبيعية في المعامل (٣) لقد اجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء.. وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة. فكل مشكلة تحتاج إليها في تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد.

هذا جانب من النظرية، واما الجانب الثاني وهو الجانب المظلم منها الذي يقرر (فكرة التطور العضوي) Organic Evolution الذي استنبطت منه فكرة الارتقاء. فقد بقي إلى يوم

الناس هذا بلا براهين، وبلا أدلة علمية! حتى قال كثير من العلماء: انهم لا يؤمنون بهذه النظرية، الا لأنه لا يوجد أي دليل لها سوى الايمان بالله مباشرة.

-
- (١) .The Evidence of God, p ١٧٩ .
- (٢) .Mysterious Universe, p ١٨٩ .
- (٣) .The Evidence of God, pp ٧٣ - ٧٤ .

وكتب سير آرثر كيث يقول:
ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا. ولا سبيل إلى اثباتها بالبرهان. ونحن
لا نؤمن بها الا لان الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الايمان بالخلق الخاص المباشر)،
وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه (١)!!
انني أقر هنا بعجزني عن اقناع أولئك الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير
المادي.، بحقية الدين. ولهذا التعصب جذور عميقة. كما يقول عالم أمريكي: ان كون
العقيدة الإلهية معقولة. وكون انكار الاله سفسطة لا يكفي ليختار الانسان جانب
العقيدة الإلهية. فالناس يظنون ان الايمان بالله سوف يقضي على حريتهم، بتلك الحرية
العقلية التي استعبدت عقول العلماء، واستهوت قلوبهم، فأية فكرة عن تحديد هذه
الحرية
مثيرة للوحشة عندهم (٢).
وبناء على هذا يدعي جوليان هكسلي ان فكرة النبوة هي إظهار للتفوق بطريقة شاذة لا
يمكن احتمالها، إذ أن معنى الايمان بنبي ان نؤمن بكلامه على أنه كلام الاله، ثم
نمثل طوعا أو كرها لكل ما يأمر به.
ولكن إذا كان الانسان مخلوقا وليس خالقا، عابدا وليس معبودا فكيف يستطيع ان
يقضي
على الحقائق بمجرد أفكار نبتت في عقله؟.. اننا لا نستطيع ان نغير الحقائق، وانما
نستطيع ان نعترف أو نؤمن بها فحسب. وإذا كنا لا نحب ان تكون عاقبتنا عاقبة
النعام،
فأفضل خيار لنا ان نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائيا.
ان كفرنا بالحقيقة لن يسيء إلى قضيتها، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا
في
الآخرة.

(١) Islamic Thought, Dec ١٩٦١.

(٢) George H. Blount, The Evidence of God, P ١٣٠.

الباب الثالث: طريقة الاستدلال العلمي
ان قضية العصر الحاضر ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال، أعني الطريقة الجديدة التي
كشفتها العلم الحديث بعد التطورات في ميادينه العديدة، بحيث لم تعد تقف امامها
دعوى

الدين وعقائده هذه الطريقة الجديدة هي معرفة الحقيقة بالتجربة والمشاهدة على حين
تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا، ولا يمكن اخضاعها للتجربة. (فالدين كله
مبني على قياس واستقراء) (١). وهذا هو ما يجعله باطلا، لأنه ليس له أساس علمي.
وقضية العصر الحاضر باطلة، لأنها لا تقوم على أسس علمية، فالطريقة الجديدة لا تنفي
وجود أشياء لم تجرب مباشرة، كما لا تنفي قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء
شاهدناها

تجريبيا وهو ما يسمى قياسا علميا، ويعتبر كالتجربة المباشرة، فالتجربة لا تعد
حقيقة علمية لمجرد انها شوهدت، كما أن القياس ليس باطلا لمجرد انه قياس. فامكان
الصحة والبطالان موجود فيهما على سواء.

كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب. اعتقادا منهم ان الماء لا
يحمل الا ما يكون أخف منه وزنا، وحين قال بعضهم: ان السفن الحديدية سوف تطفو
على سطح
الماء كالتي من الخشب. أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزوا، وجاء نحاس فألقى
بنعل

من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية بدل ان تطفو
على سطح الماء استقرت في القاع. كان هذا العمل تجربة. ولكننا جميعا نعتقد اليوم
انها كانت تجربة باطلة، فلو كان النحاس قد القى بطبق من حديد لشاهد بعينه صدق
ما
قيل من طفو السفن الحديدية.

(١) ومثاله ان أصحاب الدين إذا أرادوا اثبات وجود الاله لا يقدرّون على ذلك باستعمال
التلسكوب، ولكنهم يستدلون بان نظام الكون وروحه العجيبة تدلان على أنه يوجد عقل
إلهي وراءهما. وهذا الدليل لا يثبت وجود الاله مباشرة، وانما هو يثبت قرينة تستلزم
الايمان بالله بعد الايمان بها.

في بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا انها سحب من البخار والغاز، تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما. ولكننا حين تمكنا من صناعة منظار قوي، وشاهدنا هذه الاجرام مرة ثانية علمنا ان هذه الاجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب.، نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض. وهكذا نجد ان التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين، وان العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة. لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق. ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية، وغير مهمة نسبيا. اما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها. والذي يطالع العلم الحديث، يجد ان أكثر

آرائه تفسير للملاحظات وان هذه الآراء لم تجرب مباشرة، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل

العلماء على الايمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعية، فأى عالم من علماء عصرنا لا

يستطيع ان يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل: القوة Force والطاقة Energy

والطبيعة Nature وقانون الطبيعة Law of Nature، وما إلى ذلك. ولكن هذا العالم

لا يدري ما القوة والطاقة والطبيعة وقانونها؟ فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة، لكي يبين عن علل غير معلومة. وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ، تماما كرجل الدين، لا يستطيع تفسير صفات الاله، وكلاهما يؤمن بدوره بعقل غير معلومة.

يقول الدكتور (الكسيس كيرل):

ان الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض، لا تشتمل على شئ غير معادلة الرموز، الرموز التي تحتوي على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها (١)

والعلم الحديث لا يدعي، ولا يستطيع ان يدعي، ان الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، فالحقيقة ان الماء سائل. ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة. ولكن الواقع ان كل (جزء) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين، وذرة

من الأوكسجين وليس من الممكن ان نلاحظ هذه الحقيقة العلمية، ولو اتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها ثبتت لدى العلماء لايمانهم بالاستدلال المنطقي.

.١٥ .Man The Unknown, p (١)

(٤٦)

ويقول البروفسور ا. ي. ماندير:

ان الحقائق التي نعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة **Percieved Facts** بيد ان

الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في الحقائق المحسوسة، فهناك حقائق أخرى

كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه بالحقائق المستنبطة **Inferred Facts** والاهم هنا ان نفهم انه لا فرق بين الحقيقتين، وانما الفرق هو في التسمية. من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة، وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائما هي الحقيقة، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط (١) ويضيف ماندير قائلاً:

ان حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل، فكيف يمكن ان نعرف شيئاً عن الكثير

الآخر؟.. هناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكري، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة، حتى ننتهي بنظرية: ان الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً (٢)

وهنا نتساءل: كيف يصح الاستنباط المنطقي لأشياء لم نشاهدها قط؟ وكيف يمكن ان نسمي

هذا الاستنباط بناء على طلب العقل: حقيقة علمية؟ ويجب ماندير بنفسه عن هذا السؤال:

ان المنهج التعليلي صحيح، لأن الكون نفسه عقلي. فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر، حقائقه متطابقة، ونظامه عجيب، ولهذا فان اية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها هي دراسة باطلة. ويقول ماندير في هذا الصدد:

ان الوقائع المحسوسة هي اجزاء من حقائق الكون، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكون جزئية وغير مرتبطة بالأخرى. فلو طالعناهما فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقاً. فاما إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة، فإننا سندرك حقيقتها.

ثم يأتي بمثال سليم يفسر ذلك فيقول:

اننا نرى ان الطير عندما يموت يقع على الأرض، ونعرف ان رفع الحجر على الظهر أصعب،

ويتطلب جهداً، ونلاحظ ان القمر يدور في الفلك، ونعلم ان الصعود

(١) A. E. Mander, *Clearer Thinking*, London, p ٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩.

في الجبل أشق من النزول منه. ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى

ظاهرا. ثم نتعرف على حقيقة استنباطية - هي قانون الجاذبية، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق، فنعرف للمرة الأولى انها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام. وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة، فلن نجد بينها اي ترتيب، فهي متفرقة، وغير مترابطة، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق (١)

ان قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته قطعاً، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية، وانما هي أشياء أخرى، اضطرروا لاجلها منطقيا ان يؤمنوا بوجود هذا القانون.

واليوم يلقي هذا القانون قبولا علميا عظيما، وهو الذي كشف عنه نيوتن لأول مرة، ولكن.. ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟.. هاهو ذا نيوتن يتحدث في خطاب

أرسله إلى (بتلي) فيقول:

انه لا امر غير مفهوم ان نجد مادة لا حياة فيها ولا احساس وهو تؤثر على مادة أخرى، مع أنه

لا توجد اية علاقة بينهما (٢)

فنظرية معقدة غير مفهومة، ولا طريق إلى مشاهدتها، تعتبر اليوم، بلا جدال، حقيقة علمية!!! لماذا؟!.. لأنها تفسر بعض ملاحظتنا، فليس بلازم آذن ان تكون الحقيقة هي ما

علمناه مباشرة بالتجربة، ومن ثم نمضي إلى القول بان العقيدة الغيبية التي تربط بعض ما نلاحظه، وتفسر لنا مضمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة!..

يقول البروفسور ماندير: القول بأننا عرفنا الحقيقة يعني: اننا عرفنا معناها، وبعبارة أخرى: اننا بحثنا عن وجود شيء، وعن أحواله ففسرناه وأكثر عقائدنا تدخل في هذا النطاق فهي في الحقيقة تفسيرات للملاحظة ويستطرد ماندير فيتكلم عن الحقائق الملحوظة:

(١) Clearer Thinking, p ٥١.

(٢) Works of W. Bently, III, p ٢٢١.

عندما نذكر ملاحظة فإننا نقصد شيئا أكثر من المشاهدة الحسية المحضة فمعناها:
الملاحظة الحسية والتعرف بما يشمل جانب التفسير (١)
نظرية التطور العضوي:

هذه هي القاعدة العلمية التي على أساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية (التطور
العضوي) كما قال ماندير: لقد ثبت صدق هذه النظرية، حتى اننا نستطيع ان نعتبرها
أقرب شئ إلى الحقيقة و (٢)
ويقول سمبسن في هذا الصدد:

ان نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكليا، وليست بقياس، أو (فرض بديل)
صيغ للبحث العلمي (٣)

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨): ان نظرية الارتقاء في الحيوانات
حقيقة، وان هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين.
وقال ر. س لل:

ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد، يوما بعد يوم، بعد داروين حتى أنه لم
يبق شك لدى المفكرين والعلماء في أن هذه هي الوسيلة المنطقية الوحيدة التي تستطيع
ان تفسر عملية الخلق وتشرحها (٤)

هذه النظرية التي اجمع العلماء على صحتها، هل لاحظها أحدهم أو جربها في
معمله؟..

والجواب: لا! فذلك ضرب من المستحيل، ان مزعومة الارتقاء معقدة، وهي تتعلق
بماض

بعيد جدا، حتى أنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها. وهي على ما أكده (لل) في
كلمته

السابقة: وسيلة منطقية لتفسير مظاهر الخلق، وليست بملاحظة واقعية. وارى ان هذا
هو

السبب الذي دفع السير آرثر كيث - الذي يعتبر محاميا متحمسا لنظرية الارتقاء ان
يسلم بان هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة، وانما هي مجرد عقيدة. ومن كلماته:
ان نظرية الارتقاء عقيدة أساسية في المذهب العقلي (٥)

(١) Clea Thinking, p .٥٦.

(٢) Ibid, p .١١٣.

(٣) Meaning of Evolution, p .١٢٧.

(٤) Orgainc Evolution, p .١٥.

(٥) Revolt against Reason, p .١١٢.

وعرف أحد المعاجم العلمية نظرية داروين بأنها نظرية قائمة على تفسير بلا برهان (١).

فما الذي يجعل شيئا غير ملاحظ وغير قابل للتجربة حقيقة علمية؟ يذكر (ماندير) أسباب ذلك فيقول:

- ١ - هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة.
 - ٢ - هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع، لا يمكن فهمها الا من طريقها.
 - ٣ - ولم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة (٢)
- فإذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية فهي كذلك موجودة في جانب الدين على وجه أتم وأكمل. والقول بصدق نظرية الارتقاء وابطال الدين في نظر الذهن العلمي لا يعني مطلقا ان قضية المعارضين هي قضية الاستدلال العلمي، وانما هذه القضية تتعلق بالنتيجة، فلو أثبت نفس الاستدلال امرا طبيعيا محضا فسيقبله المعارضون، وسيرفضونه لو أثبت امرا إلهيا لأنه غير مرغوب فيه عندهم.

(١) Ibid, p ١١١.
(٢) Clearer Thinking, p ١١٢.

مشكلة تعيين حقائق الأمور

وبهذا لا ينبغي القول بأن الدين هو الايمان بالغيب وبأن العلم هو الايمان بالملاحظة العلمية. فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الايمان بالغيب. غير أن دائرة الدين الحقيقية هي دائرة تعيين حقائق الأمور نهائيا وأصليا، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعيينا حقيقيا ونهائيا؟ وهو ميدان الدين الحقيقي؟ فإنه يتبع نفس طريق الايمان بالغيب. الذي يتهم به الدين. ولا بد من هذا السلوك في الميدان الثاني، كما قال سير آرثر أدنجتن: ان عالما في العصر الحاضر يعمل على منضتين في وقت واحد: أحدهما:

المنضدة العامة التي يستعملها الرجل العادي، التي يمكن لمسها ورؤيتها. وأما الأخرى: فهي المنضدة العلمية، وأكثرها في الفضاء، وتجري فيها الكترونات لا حصر لها ولا تشاهد، ويستطرد سير آرثر أدنجتن قائلا: وهكذا نجد لكل شئ صورة ذات وجهين،

أحدهما: (ملحوظ)، والآخر: (صورة فكرية) لا سبيل إلى مشاهدتها بأي ميكروسكوب أو تلسكوب (٣)

أما الوجه الأول فيشاهده العلم، ويشاهده لمدى بعيد جدا، ولكنه لا يستطيع أن يدعي أنه

يشاهد الوجه الآخر. وطريقة العلم الحديث أنه يقدم رأيا عن شئ بعد مشاهدة مظاهره. وأما الميدان الثاني فهو

ميدان معرفة حقائق الأشياء وتعيينها والعلم في هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة بوساطة حقائق معلومة..

وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من الحقائق الملحوظة فإنه يحس بضرورة

وضع نظرية أو فرض علمي. وبعبارة أدق: ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية، تقوم بتفسير

الملاحظات. وربط بعضها ببعض فإذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية في تفسير الحقائق تفسيرا كاملا عدت حقيقة علمية رغم انها لم تلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الأخرى التي

نعرفها بالمشاهدة أو بالملاحظة العلمية.

ومعنى ذلك أن العالم يؤمن بوجود شئ غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره فكل حقيقة نؤمن

بها تكون دائما (فرضا) في أول امرها إلى أن نكشف حقائق جديدة تدعم صدقها،

فنزداد،

يقينا بها، حتى نبلغ حق اليقين: وإذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخلينا عنها. ومن أمثلة هذه الحقائق: حقيقة الذرة التي لا سبيل إلى انكارها، برغم انها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت في هذا العصر. وهذا هو

السبب الذي دفع أحد العلماء ان يعرف (النظريات) العلمية بالألفاظ التالية:
Theories are Mental Pictures, That Explain Known Laws
النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة.

حقيقة النظريات العلمية
ان الحقائق التي تعرف في العلم باسم الحقائق الملحوظة ليست بحقائق شوهدت فعلا، وانما هي تفسيرات لبعض المشاهدات، لان المشاهدة الانسانية لا يمكن ان توصف بأنها
(كاملة)، ولذا فان جميع هذه التفسيرات تعد إضافية، ومن الممكن ان تتغير بتطور الملاحظة.

ويقول البروفسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية
هذا العرض للنظريات العلمية يثبت ان معنى نظرية علمية صحيحة انها فروض عملية ناجحة **Successful Working Hypothesis**، ومن الممكن تماما ان يكون سائر النظريات

العلمية باطلا، ذلك أن النظريات التي نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست الا قياسا

(٣) Nature of the Physical World, pp ٧ - ٨.

على وسائلنا المحدودة للملاحظة، ولا تزال قضية الحقيقة في عالم العلم قضية عملية
نفعية Pragmatic Affair (١)

ولا يزال العلماء بعد هذا يعتبرون ان الفرض الذي يفسر ملاحظاتهم لا يقل في قيمته
عن الحقيقة الملحوظة نفسها، فهم لا يستطيعون ان يقولوا: ان الحقائق الملحوظة هي
وحدها العلم، وان ما سواها من النظريات الشارحة لا تدخل في نطاق (العلم)، لأنها
غير ملحوظة.. والحق ان هذا هو ما نسميه الايمان بالغيب، وهو بالنسبة إلى المؤمنين
ليس سوى الايمان بحقائق غير ملحوظة، فهو ليس بعقيدة عمياء، وانما هو خير تفسير
للحقائق التي يشاهدها العلماء..

وكما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular
Theory of

Light لأنها لم تنجح في تفسير مظاهر حديثة للضوء، فإننا نرفض أفكار الفلاسفة
الملحدين، لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة.

ان مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذي يستقي منه العلم الحديث ملاحظاته، لكي
يثبت

نظرية علمية. ولقد انتهينا بعد دراسة الحقائق الملحوظة إلى أن تفسير الدين للطبيعة
هو عين الحق حتى أن هذا التفسير لم يتغير ولن يتغير على مر الدهور، على حين ان كل
نظرية صاغها الانسان منذ قرن أو أكثر أو أقل قد رفضت أو أصبحت موضع شك الآن،
وان صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها في الملاحظة حتى ليصبح كل كشف
علمي جديد

تصديقا لحقائق الدين!

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية في الأبواب التالية.

(١) J. W. N. Sullivan, Limitations of Science, p ١٥٨.

الباب الرابع: الطبيعة تشهد بوجود الإله
أصدرت الكنيسة المسيحية في كيرالا جنوبي الهند كتيباً بعنوان:
Nature and Science Speak. about God

الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله. واعتقد ان هذه الكلمات هي أفضل عنوان لهذا الباب.

ان أكبر دليل على وجود الاله هو مخلوقه، هذا الذي نجده اماننا، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعوننا إلى الايمان بأنه لا ريب ان لهذه الدنيا إلها واحدا. ونحن لا نستطيع ان نفهم أنفسنا وان نفسرها، بله الكون كله مجردين من الايمان بوجود الاله. ان وجود الكون، والنظام العجيب الذي اشتمل عليه، وأسراره الدقيقة، لا يمكن تفسير ذلك كله الا بأنه قد خلقتة (قوة)، وان هذه القوة (عقل) لا حدود له، وانها ليست بقوة عمياء.

أولا نظرية التشكيك في الوجود:

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جدا تشك في مجرد وجود مثل هذه القوة وتعتقد

هذه الجماعة انه لا وجود للانسان، ولا للكون، وان الوجود عبارة عن عدم محض ولا شئ غير ذلك.

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا امر الاله دون شك.. ولكننا حين نؤمن بان الكون موجود نضطر تلقائيا ان نؤمن بالإله، أو بالقوة الخالقة كما نسميها، فليس بمعقول ان نؤمن بالوجود من العدم المحض ذلك قياس باطل!!
فهذا التشكيك في وجود الكون، والذي يتخذ أحيانا شكل نظرية اللا ادوية (١) يمكن ان

يعد نكتة فلسفية لا علاقة لها بالحقيقة. فنحن حين نفكر يكون فكرنا هذا دليلا

(١) هذا مصطلح مستعمل في اللغة الأردية مأخوذ من عبارة لا أدري، يشير إلى الاتجاه الذي ينكر معرفة شئ عن الكون، لان الكون لا وجود له على الحقيقة المراجع.

قاطعاً في ذاته على أن لنا وجوداً (١). وحين نصطدم في الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل في ذاته على أن هناك عالماً موجوداً وجوداً ذاتياً خارج وجودنا. وهكذا تدرك

حواسنا في كل وقت أشياء كثيرة، من الفرح والألم والتذوق..، فهذا الإحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود في كون، وعلى أنه يملك وجوده الذاتي، وحينئذ فلو قام

أحد يشكك نفسه في وجوده الذاتي ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة،

لا ترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس. وسوف نقول عن هذا الرجل الفذ: انه قد غاب في عالمه الذهني، حتى نسي نفسه...

بل اننا لو سلمنا - جدلاً - بأنه ليس للكون في ذاته وجود خارج ذاتنا، فلست اعتبر هذا

دليلاً ملزماً بأنه لا وجود للإله.

وعلى كل حال فهذه هي الفكرة الوحيدة التي ترى وجود الإله مشكوكاً فيه، بكل ما تتضمن

من السفسطة والجهالة وانعدام الواقعية..، وهي فكرة لا معنى لها في ذاتها، وليست مفهومة لدى جمهور الناس، كما انها لم تحظ بقبول في دنيا العلم. ***

(١) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة. انا أفكر، اذن فانا موجود الوجود والخلق

ان الانسان العادي، والعالم العادي يؤمن على كل حال بان له وجوداً، وبان للكون أيضاً وجوداً، وعلى هذا الأساس من العلم والايمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمي والحيوي. فإذا آمننا بوجود الكون فلا بد ان نؤمن باله هذا الكون منطقياً إذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ونحن لا نعلم شيئاً جاء إلى الوجود من العدم دون ان يخلق، فكل شيء مهما بلغ حجمه عظم أو صغر، جل أو دق، وراءه علة، فكيف بنا نؤمن بان كوننا عظيماً مثل كوننا جاء إلى الوجود ذاتياً، دون خالق؟؟

ذكر (جون ستوارت ميل) في سيرة حياته: ان أباه قد علمه ان سؤال من الذي خلقني؟ لا يكفي لاثبات وجود الاله، إذ ينجم تلقائياً سؤال: فمن ذا الذي خلق الاله؟، وقد اعتد (برتراند رسل) هذا الاعتراض الثاني كافياً لرفض مدلول السؤال الأول (٢). ونحن نعرف ان هذا الاستدلال قديم جداً لدى الملحدين، ومقتضاه. اننا لو افترضنا خالقاً للكون فسوف نضطر ان نتصوره أزلياً!!

(٢) Morton White, The Age of Analysis, pp ٢١ - ٢٢.

الأزلي. الخالق أم المادة؟

إذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون؟ وهذا الكلام لا معنى له، لأننا لم نعثر على صفات للكون، اية كانت، تثبت انه خالق نفسه،

ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر، ولكننا اليوم، وبعد كشف

القانون الثاني للحرارة الديناميكية Second Law of Thermo Dynamics نجد ان هذا

الاستدلال فقد كل أساس كان يقوم عليه وهذا القانون الذي نسميه قانون الطاقة المتاحة أو ضابط التغير Law of Entropy يثبت انه لا يمكن ان يكون وجود الكون

أزليا، فهو يصف لنا ان الحرارة تنتقل دائما من (وجود حراري) إلى (عدم حراري)، والعكس غير ممكن، وهو ان تنتقل هذه الحرارة من (وجود حراري قليل) أو (وجود حراري

عدم) إلى (وجود حراري أكثر). فان ضابط التغير هو التناسب بين الطاقة المتاحة والطاقة غير المتاحة.

وبناء على هذا الكشف العلمي الهام فان عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوما بعد يوم، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينذاك لا تبقى اية طاقة مفيدة

(للحياة والعمل)، وسيترتب على ذلك أن تنتهي العمليات الكيماوية والطبيعية، وتنتهي تلقائيا - مع هذه النتيجة الحياتية. * * *

وانطلاقا من هذه الحقيقة القائلة بان العمليات الكيماوية والطبيعية جارية، وان الحياة قائمة، يثبت لدينا قطعا ان الكون ليس بازلي، إذ لو كان الكون أزليا لكان من اللازم ان يفقد طاقته منذ زمن بعيد، بناء على هذا القانون، ولما بقي في الكون بصيص من الحياة. يذكر هذا التحقيق العلمي الحديث عالم أمريكي في علم الحيوان، هو الأستاذ

(ادوارد لوثر كسيل) فيقول:

وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد ان لهذا الكون بداية فأثبتت تلقائيا وجود الاله، لان كل شئ ذي بداية لا يمكن ان يتبدى بذاته، ولا بد ان يحتاج إلى المحرك الأول الخالق الاله (١).

وقد قال نفس الكلام السير جيمس: تؤمن العلوم الحديثة بان (عملية تغير الحرارة) Entropy سوف تستمر حتى تنتهي طاقتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن

إلى آخر
درجاتها، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض، حتى
نفكر

(١) The Evidence of God, p .٥١.

هذا الكون ليس
بمتجمد، وانما هو يتسع كل لحظة، حتى أنه بعد (٠،٠٠٠٠٠٠٠، ٣٠٠، ١) سنة تصير
هذه المسافات
الكونية ضعفين!! وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية ان تكمل
دورانها حول هذا الكون ابداء، وانما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع
الدائم
في الكون (٢).

(١) The Mysterious Universe, p ١٣٣.
(٢) هذه هي نظرية اينشتين عن الكون. ولكنها ليست الا قياسا رياضيا، والحقيقة ان
الانسان لم يستطع حتى الآن ان يفهم سعة هذا الكون!!

عندما تكون السماء صافية نستطيع ان نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم..
ولكن
هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (٢٠٠٠٠٠٠٠) من النجوم حين نستعمل تلسكوبا
عاديا.
وأقوى تلسكوب في العالم هو الذي يوجد في مرصد (ماؤنت بالومار) في الولايات
المتحدة
الأمريكية، ويستطيع ان يشاهد بلايين من النجوم.
ان الفضاء الكوني فسيح جدا، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها، بسرعة خارقة، بعضها
يواصل
رحلته وحده، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات..،
ولو انك
لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك. فسترى ان هناك ذرات كثيرة
من الغبار
تتحرك وتسير في الهواء، فلو استطعت ان تتخيل هذا في شكل أعظم لأمكنك ان
تحظى من
الفهم بشيء عن السيارات والكواكب في الكون، مع الفرق الهائل المتمثل في أن
ذرات
الغبار تتحرك، ويتصادم بعضها مع بعض. ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد
منها
سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى. ومثلها مثل بواخر عديدة تمشي في
أعالي
البحار متباعدة، حتى أن إحداها لا تعرف شيئا عن الأخرى. ان هذا الكون يتألف من
مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم، تسمى مجاميع النجوم وكلها تتحرك دائما...

وأقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (٢٤٠٠٠٠) ميلا. وهو يدور حول الأرض، ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم.
وكذلك
تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣٠٠٠٠٠٠) ميلا، وهي تدور في محورها بسرعة
الف ميل في
الساعة، في دائرة (١٩٠٠٠٠٠٠٠) ميلا، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في سنة
كاملة.
وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض..، وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة.
وابعد هذه

الكواكب السيارة بلوتو الذي يدور في دائرة (٧، ٥٠٠، ٠٠٠٠٠٠٠) ميلا حول الشمس. وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا أخرى، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفا من النجيمات، وآلاف من النجوم ذوات الأذنان، وشهب لا حصر لها، وكلها تدور، وفي وسطها ذلك السيارة العملاق الذي نسميه الشمس، وقطرها (٨٦٥، ٠٠٠) ميلا وهي أكبر من الأرض (١، ٢٠٠، ٠٠٠) مرة!! ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة، أو واقفة في مكان ما، وانما هي بدورها، مع كل هذه السيارات والنجيمات، تدور في هذا النظام الرائع، بسرعة (٦٠٠، ٠٠٠) ميلا في الساعة... وهناك آلاف من الأنظمة، غير هذا النظام الشمسي، يتكون منها ذلكم النظام الذي نسميه مجاميع النجوم، أو المجرات، وكأنها جميعا طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب

أدنى تغير في
سرعة دورانها، حتى بعد مرور قرن من الزمان وهذا القمر الذي يتبع في حركته الأرض
يدور
في فلك مقرر ومنضبط، مع تفاوت يسير جدا، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاما ونصف
عام،
بدقة فائقة، وتلك هي حال جميع الاجرام السماوية. ويرى علماء الفلك ان مجرات
النجوم
يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة، في
مجرة
أخرى مثلها (وتتحرك سياراتها هي الأخرى)، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا، دون ان
يحدث أي تصادم بين سيارات المجرتين.
وان العقل، حين ينظر إلى هذا النظام العجيب، والتنظيم الدقيق الغريب، لا يلبث

وجود منظم قائم على هذا التنظيم؟ انه يستحيل قيام هذا التنظيم في الذرة دون منظم قائم عليه.

اننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون، ونتحير إذا وجدنا ان مكالمة من

لندن إلى ملبورن بأستراليا تتم في بضع ثوان، فإذا كان تعقيد نظام أسلاك التلفزيون يوقنا في هذه الحيرة، فما بالنا بنظامنا العصبي، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا؟! ان ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي؟ الذي أوجدته الطبيعة؟ من جانب إلى آخر، ليل نهار. وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقها، وفي حركتها، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم في الحركات الرئوية. ولو لم يكن

هذا النظام موجودا في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقا لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص.

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الانسان، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية،

ومع كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم، وتسمى هذه الأسلاك الأنسجة

العصبية، وفي هذه الأنسجة يجري نظام استقبال وارسال للأخبار، بسرعة سبعين ميلا في

الساعة. وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق، ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا، بل إن هنالك

ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds. ولكل منها سلك عصبي خاص متصل

بالمخ. وبوساطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة. وتوجد في الأذن عشرة آلاف

خلية سمعية. ومن خلال نظام معقد، يسري من هذه الخلايا، يسمع مخنا. وفي كل عين مائة

وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء Light Roceptors، وتقوم بمهمة إرسال

المجموعة التصويرية إلى المخ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا، فإذا

قربنا إلى الجلد شيئا حارا، فان ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ. وإذا قربنا إلى الجلد شيئا بارداً، فان ربع مليون من الخلايا، التي تلتقط الأشياء الباردة، تحس به، وعندئذ يمتلىء المخ بأثرها، ويرتعد الجسم، وتتسع الشرايين الجلدين، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة، ويرتعد الجسم، ويزودها بالحرارة. وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة، فان مخابرات الحرارة

توصلها إلى الدماغ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية؟ تلقائياً؟ عرقاً

باردا إلى خارج الجسم.
والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع. منها الفرع المتحرك ذاتيا Autonomic Branch.

ويقوم بأعمال تحدث ذاتيا في الجسم، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب.
ويندرج تحت

هذا الفرع نظامان: أحدهما النظام الخالق للحركة Sympathetic System
والآخر: هو

المانع لها Payasympathetic. وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع. ولو
ترك

الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه، ولو سيطر
النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفا تاما. وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها
في دقة فائقة، وفي توازن عام، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين،
فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة، وعندئذ تزيد سرعة
عمليات القلب والرئة، والنظام الثاني يتغلب عند النوم. فيسود السكون جميع الحركات
الجسمية.

تقليد الطبيعة

ان أحسن الآلات من صناعة الانسان لا يمكن أن تقف أمام النظام العجيب الذي يوجد

في

الكون. ولهذا فان تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم مصنوعا خاصا في العلم، يولي أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام. وأصبحنا نرى علما جديدا

يسمى

بيونيكس Bionics لهذه الدراسة. وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى

الكامنة في

الطبيعة واستغلالها.

واليوم يسلك النظام البيولوجي سبلا كثيرة للحصول على معلومات تساعد على حل

مسائل

الهندسة.

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة في الصناعة آلة التصوير، وهي في الواقع تقليد

ميكانيكي لعين الانسان، فعدسة الكاميرا Lens هي كالشبكة الخارجية للعين،

والحجاب

الحاجز Diaphragm هو قزحية العين Tyis والفيلم الذي يتأثر بالضوء. انما هو

شاشة

العين التي توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة (١).

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس الذبذبات تحت الصوتية

- Infra

Sonic Vibrations. وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما

أشبهها

من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتي عشرة ساعة، وخمس عشرة ساعة.

وهي أقوى

من الآلات المستعملة خمس مرات. فمن أين جاء هذا التفكير إلى العلماء؟ لقد

استنبطوه

من سمكة قنديل البحر، التي تسمى هلامي Jelly Fish فقلد المهندسون أعضائها،

وهي

شديدة الحساسية، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية (٢)!.
وهناك أمثلة كثيرة جدا غير هذه يمكن عرضها، وهي تؤكد أن علماء الطبيعة

والتكنولوجيا

يقلدون؟ في تفكيرهم الحديث؟ النماذج الحية في الطبيعة.

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من أزمان مضت، على حين حلتها الطبيعة منذ

زمن بعيد. وان كانت أجهزة التصوير وتلقي الأخبار التليبرنتر لا يمكن وجودها بغير عقل انساني، فمن المستحيل ان نتصور ان نظام الكون؟ الذي هو أكثر تعقيدا من أي نظام؟ قد قام بنفسه بغير عقل وراءه، بل لابد أن له مهندسا منظما؟ هو الاله، ولا يمكن أن يتصور العقل نظاما دون منظم، فليس من اللا معقول أن نعتقد بوجود منظم للكون، بل إن من اللا معقول أن ننكر خالق هذا النظام، فالحقيقة أن العقل الانساني لا يملك أساسا عقليا لانكار الاله.

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا أن يدعي أن آلة التصوير جاءت عن نفسها، دون اختراع انساني. ولكن الكثيرين من علمائنا يعتقدون أن العين جاءت عن صدفة واتفاق محض!!.
(٢) Soviet Land, Delhi, Dec ١٩٦٣.

ثالثا؟ روح الكون الغريبة:

ليس الكون كسلة المهملات، وانما هو منطو على روح غريبة. وهذه الروح لا يمكن أن تصدر

إلا عن عقل قام بخلق الكون، ويقوم بتدبيره.

وليس من الممكن أن يوجد نظام وروح في عملية مادية عمياء، حدثت اتفاقا، فالكون متوازن، ومتناسب إلى حد لا يمكن تصوره. لقد قال شادفاش Chadvalsh: ان من الممكن أن

نسأل أي رجل؟ مؤمنا بالله كان أو منكر له؟ نسأله ان يثبت كيف يمكن ان يكون هذا التوازن في صالحه، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة؟ (١).

لابد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضيا. ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضيا موجودة على سطح الأرض فعلا.

وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون، هي المتسببة في وجود هذه الحالات.

التوازن المدهش في الأرض

الأرض أهم عالم عرفناه، إذ توجد فيها أحوال لا توجد في شئ من هذا الكون الواسع، وهي

في ضخامتها (كما تبدو لنا) لا تساوي ذرة من هذا الكون العظيم، ولو أن حجمها كان أقل

أو أكثر، مما هي عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها، فلو أنها كانت في حجم القمر مثلا، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا. لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية،

ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها، كما هي الحال في القمر، الذي

لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائي، لضعف قوة الجاذبية فيه. وانخفاض الجاذبية في

الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها.

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقدارا كبيرا من

الماء. وكثرة الماء أمر ضروري لاستمرار الاعتدال الموسمي على الأرض، ومن ثم أطلق

أحد العلماء على هذه العملية لقب عجلة التوازن العظيمة Great Balance
Wheel (٢)

وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائي للأرض في الفضاء ثم يتلاشى. ويتبع ذلك أن تبلغ
درجة

حرارة الأرض أقصى معدلها، ثم تنخفض إلى أدنى درجاتها، على ما سبق ذكره.
وعلى العكس من ذلك، إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت جاذبيتها

(١) .The Evidence of God, p ٨٨.

(٢) .The Evidence of God, p ٨٨.

الحالية، وحينئذ ينكمش غلافها الجوي؟ الذي هو على بعد خمسمائة ميل؟ إلى ما دون ذلك. وسترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من

الضغط الجوي، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر في الحياة. ولو أن الأرض تضاعف حجمها، فصارت مثل حجم الشمس مثلا، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل

جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة، ولاقترب غلافها الهوائي، حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط، بدلا من خمسمائة ميل، ولأرتفع الضغط الجوي إلى معدل طن واحد على

كل بوصة مربعة. وذلك يؤدي إلى استحالة نشأة الأجسام الحية. وهو من الناحية النظرية

يعني أن يصير وزن الحيوان الذي يزيد رطلا واحدا؟ تحت الكثافة الهوائية؟ الحالية؟ خمسمائة رطل. كما يهبط حجم الانسان حتى يصير في حجم فار كبير، ولاستحالة وجود العقل

في الانسان، لأنه لا بد للعقل الانساني من أنسجة عصبية كثيرة في الجسم، ولا يوجد هذا

النظام الا إذا كان حجم الجسم بقدر معين.***

نحن قائمون على الأرض ظاهرا، ولكن الأصح ان نقول: نحن ملقون على رؤوسنا، ولتوضيح

ذلك نقول: ان الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الانسان، فوضع الناس بعضهم بالنسبة إلى

بعض على هذه الكرة، ان سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالي الهند، وسكان الهند

سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا.

فأرضنا هذه ليست بثابتة، وانما هي تدور بسرعة مقدارها ألف ميل في الساعة، وذلك يجعل

وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة، يوشك أن تقذف بها في

الفضاء، ولكن الأرض لا تقذفنا، بل نحن مستقرون عليها، فكيف تمسكنا وهي تدور بهذه

السرعة؟!!!.

ان في الأرض جاذبية غير عادية، وهي بهذه الجاذبية تشد كل شئ إليها، فجاذبية

الأرض
وضغط الهواء المستمر يمسكانها فوقها بنسبة معلومة، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين
العمليتين إلى كرة الأرض من كل ناحية.
وضغط الهواء الذي يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلا معناه: أن كل
انسان
يتحمل ما يقرب من ٤٠ ر ٢٢٨ رطلا من الضغط الجوي على جسمه، ولكن الانسان
لا يحس بهذا
الوزن، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية، كما يحدث عندما نسبح في الماء. ثم إن
الهواء
؟ وهو علم على مركب معين من الغازات؟ ذو فوائد كثيرة، لا يمكن حصرها في
كتاب.

لقد توصل نيوتن، من خلال مشاهداته ومطالعاته، إلى أن الأجسام يجر بعضها بعضا، ولكنه لم يستطع تعليل هذا، ولذا سلم بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية. وقد ذكر هذه المسألة (وهايت هيد) قائلا:

لقد كشف نيوتن؟ حين سلم بهذا؟ عن حقيقة فلسفية عظيمة، هي أن الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها، كما أن الشخص الميت لا يستطيع أن يحكي لنا واقعا. ان جميع

التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيرا على أن تكون إظهارا لهدف، لأن الميت لا يمكن أن يكون حامل (١) أهداف.

وسوف أدفع حديث (وهايت هيد) إلى الأمام، قائلا انه إذا لم يكن هذا الكون تحت سلطان

وجود ذي ادراك فلماذا توجد فيه هذه الروح المدهشة؟.***

ان الأرض تتم دورة واحدة حول محورها، في كل أربع وعشرين ساعة. ومعنى ذلك أنها تسير

حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتي

ميل في الساعة، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات، بالنسبة إلى ما هي عليه الآن، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس؟ بشدة حرارتها؟ كل شئ فوق الأرض، وما بقي بعد ذلك

ستقضي عليه البرودة الشديدة في الليل.

وهذه الشمس، التي نعددها اليوم وسيلة حياتنا، تبلغ حرارة سطحها اثني عشر ألف درجة فهرنهايت، والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣،٠٠٠،٠٠٠ ميلا.

وهذا البون الهائل دائم، لا يتغير أبدا بزيادة أو نقص، وفي ذلك عبرة عظيمة لنا، لأنه لو نقص، واقتربت الشمس من الأرض. بمقدار النصف، مثلا، من الفاصل الحالي، فسوف يحترق

الورق على الفور من حرارتها، ولو بعد هذا الفاصل، فصار ضعف ما هو عليه الآن فان البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد، سوف تقضي على الحياة في الأرض، ولو أنه

حل

محل الشمس سيار آخر غير عادي، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة، فسوف

يجعل من الأرض تنورا رهيبا...

ثم إن هذه الأرض دائرة في الفضاء، وهي تؤدي عملها بزواوية ٥٣٣ درجة، الأمر الذي

تنشأ

عنه المواسم، ويترتب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة، ولسار بخار البحار شمالاً

(١) The Age of Analysis, p. ٨٥.

وجنوبا، ولما بقي على الأرض غير جبال الثلج، وفيافي الصحراوات، وهكذا تنجم
مؤثرات
كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة.

فلو كان قياس العلماء صحيحا، وهو: أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة
المناسبة
المتوازنة، فما أعجب هذا القياس، وما أكثر إثارته للدهشة!! يقولون: ان الأرض
انشقت
من الشمس، ومعنى هذا: أن درة حرارتها كانت في مبدأ أمرها، نفس حرارة الشمس،
وهي
اثنا عشر ألف درجة فهر نهيت، ثم بدأت الأرض تبرد، إذ لا يمكن اتصال الأوكسجين
بالهيدروجين الا بعد أن تنخفض الحرارة إلى أربعة آلاف فهر نهيت؟ وفي هذه المرحلة
وجد الماء، وهكذا استمرت عمليات التقلب على سطح الأرض ملايين السنين، حتى
جاءت
الأرض في صورتها الحالية، منذ أكثر من بليون سنة مضت، وذهبت الغازات من فضاء
الأرض
إلى فضاء الكون، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك إلى المركب المائي، أو انجذبت
إلى
الأشياء الأرضية، أو بقيت في صورة الهواء، وأكثرها في صورة الأوكسجين أو
النتروجين.
وهذا الهواء، في كثافته، يعد جزءا واحدا من ٢,٠٠٠,٠٠٠ من أجزاء الأرض. ولم
تنجذب كل
الغازات إلى الأرض، كما انها كلها لم تتحول إلى (هواء). ولو أنه حدث، لاستحالت
حياة
الانسان، فلو أننا فرضنا المستحيل، ووجدت الحياة في ظروف كهذه؟ تتحمل فيها
البوصة
المربعة آلاف في الأرتال من الضغط الجوي؟ لكان من المستحيل أن توجد الحياة في
صورة
الانسان الحالية.
ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا، بمقدار عشرة اقدم من سمكها الحالي، لما وجد
الأوكسجين، (١) وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية.
وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام، أكثر من القاع الحالي، لانجذب (ثاني
أكسيد

الكاربون)، والأوكسجين (٢)، ولاستحالة وجود النباتات على الأرض، فضلا عن الحياة.
ولو كان الغلاف الهوائي للأرض ألطف مما هو عليه الآن، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجي، ولرأيناها مضيئة في الليل، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها،
فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا في الثانية، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة، فإنها ستحرق كل شيء يمكن احتراقه على الأرض، حتى تصبح الأرض غربالاً في وقت ليس ببعيد..

(١) إذ أن القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين.
(٢) حتى يمتصهما الماء.

فلو لا ان غلاف الأرض الهوائي يقينا من هذه الشهب لا احترقنا. فان سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة كما أن حرارتها الشديدة كافية لاهلاك كل شئ، بما فيه الانسان. فنحن أذن في حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون، الذي لا تخترقه الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية Actinic Rays الا بالقدر الذي يكفي لحياة النبات،

وايجاد الفيتامينات، والقضاء على الجراثيم الضارة، وما إلى ذلك.. ان هذا التوازن للكميات، المحتاج إليها، عجيب جدا. فالغلاف الذي فوق الأرض مكون من

سنة غازات، منها ٧٨ في المائة من النتروجين، و ٢١ في المائة من الأوكسجين، والغازات

الأخرى توجد بنسب قليلة، هذا الغلاف يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلا في البوصة المربعة،

ونسبة الأوكسجين في هذا الضغط ٣ أرطال في البوصة المربعة، والمقادير الأخرى للأوكسجين الموجود اليوم قد انجذبت إلى الأرض، وهي تمثل ٨، ٠ من الماء الموجود على

سطح الأرض، والأوكسجين هو الوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض، ولا طريق إلى

ذلك من غير الفضاء.
**

قانون الضغط والتوازن

وهنا يظهر سؤال هام، وهو. كيف تجمعت هذه الغازات الشديدة الحركة، مع احتفاظها

بمقاديرها المتناسبة، التي لا بد منه للحياة، في الفضاء؟
والجواب: انه لو كانت نسبة الأوكسجين ٥٠ %، أو أكثر، بدلا من ٢١ %، لزادت قابلية

الاحتراق، بما يساوي ارتفاع هذه النسبة... فإذا احترقت شجرة واحدة في غابة، حينما تكون نسبة الأوكسجين ٢١ % فان الانفجار الخاطف، الناجم عن ارتفاع هذه النسبة إلى

٥٠ % يجعل احتراق الغابة كلها امرا حتميا في لحظات!
ولو أن هذه النسبة انخفضت فأصبحت ١٠ % لكان من الممكن، على مدى الكون ان تعتاد

الحيوانات الحياة مع انخفاض نسبة الأوكسجين إلى هذا الحد ولكنه يكون من المستحيل

ان تزدهر الحضارة الانسانية، كما هي عليه في الظروف الحالية (١).
ولو أن الأوكسجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأوكسجين الذي انجذب
قبل ذلك
في الأرض، لكان من المستحيل (الوجود الحيواني الحسي).
ان الأوكسجين والهيدروجين وثاني أو أكسيد الكربون، وغازات الكربون الأخرى،
على
اختلاف اشكالها، تتركب معا فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية، وللأسس

(١) إذ أن أعضاء الجسم الانساني على فرض وجودها في هذه الحالة لن تتمكن في تلك
الظروف من مواصلة عملها كعادتها اليوم في الظروف المتاحة فعلا، وذلك لاستحالة وجود
الأنسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة في ظل تلك الظروف، لأنه كلما قل
الأوكسجين قل النشاط الجسماني والعقلي.

التي تقوم عليها الحياة الانسانية، وبناء عليه لا يوجد احتمال ٠.٠٠٠٠٠٠، ١٠١ ان
تجتمع،
هذه الغازات في تناسبها المطلوب، وبجميع خصائصها اللازمة للحياة، على كوكب
معين،
بطريق الصدفة.

ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة:

Science has no explanation to offer for the facts, and to
say it is
is to defy mathematics accidental

ان العلم لا يملك أي تفسير للحقائق والقول بأنه حدثت اتفاقا انما يعتبر تحديا
وتصادما مع الرياضيات.

ان هناك وقائع كثيرة جدا، لا طريق لنا إلى فهمها أو تفسيرها، الا إذا سلمنا بان
للعقل يدا عليا في احداثها..

فمن الخصائص المهمة التي توجد في الماء: ان كثافة الثلج Density تقل بنسبة
كبيرة عن

كثافة الماء، فالماء أذن مادة معلومة، تقل كثافتها بعد التجمد ولهذا الامر قيمة
عظيمة بالنسبة إلى الحياة، إذ يترتب على هذه الخاصة ان الثلج يطفو على سطح الماء،
ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار، ولولا ذلك، لكان الماء كله قد تجمد في البحار،
والأنهار، والخزانات المائية، ان الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذي تحته، كيما
تبقى حرارته دون درجة التجمد، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة..
فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج، ولولا خاصية الثلج هذه لعانى سكان الأقطار
الباردة الكثير من المتاعب والمصائب، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج.
* * *

لقد أصاب مرض الأندوثيا Endothia في أوائل القرن العشرين أشجار (شاه بلوط)
الشمينة

في غابات أمريكا، وانتشر بسرعة فائقة فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة
الكبيرة في

مظلة الغابات: انها لن تمتلئ ابدا!!

ولم يكن أي نوع من الأشجار - حتى ذلك الحين قد انتزع هذا الامتياز الذي كان
خاصا

بهذا النوع من أشجار البلوط، ذات الأخشاب الشمينة الغالية حتى كان يلقب:.. ملك
أشجار

الغابات الأمريكية قبل وصول وباء الأندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريبا.

اما الآن، فلا توجد هناك اية اثار لشاه بلوط، ذلك الشجر العظيم، في الغابات الأمريكية. ولكن سرعان ما امتلأت تلك المواضع في غابات أمريكا بنوع آخر من الأشجار،
يسمى: التبوليب، كانت لا تحتل من الغابات الا حيزا صغيرا، ولم تكن مزدهرة.

لقد انتهزت أشجار التيوليب هذه الفرصة، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط. اليوم لا يتذكر أي تاجر أخشاب أمريكي وجود أشجار شاه بلوط، فقد حلت محلها أشجار التيوليب، التي تتضخم كل سنة بنسبة بوصة واحدة في الجذع. وترتفع ست بوصات في الفروع والأغصان، كما تعطي خشبا ممتازا يستعمل في جميع الصناعات الدقيقة. * * *

ومن الاحداث العلمية الهامة التي وقعت في هذا القرن ما حدث في استراليا.. لقد زرعوا نوعا خاصا من الصبار في مزارعها لكي يحميها. ولم يكن في استراليا أي نوع من الدودة يعادي ويأكل هذا النبات ذا الشوك، فاخذ ينتشر انتشارا رهيبا ومروعا، حتى استولى على منطقة توازي مساحة جزر بريطانيا كلها، لقد هاجم الصبار القرى والمدن، وخرب المزارع والحقول، حتى استحالت الزراعة، ولم يتمكنوا من استئصاله باية طريقة لقد أصبح جيشا جبارا، يزحف لكي يسيطر على استراليا كلها، وهي لا تجد ما تقاوم به، واستمرت هذه الحال، حتى خرج علماء الحشرات، يبحثون عن دودة تأكل الصبار. فاكتشفوا دودة لا تعيش الا عليه، ولا غذاء لها سواه، وقد كان نسلها يزيد بسرعة، ولا عدولها في حشرات استراليا، وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة على جيش الصبار العظيم، وانتهت مصائب استراليا!!!

أيمكن ان يكون هذا القانون قانون الضبط والتوازن Checks and Balances قد حدث دون تخطيط واع، هكذا صدفة واتفاقا؟! * * *

السنن الرياضية المحكمة وفي الكون سنن رياضية محكمة، بصورة تدعو إلى الدهشة والاكبار، وحتى المادة الجامدة،

التي لا تملك شعورا لا يمكن ان تجري على غير نظام، وانما هي تتبع قوانين صارمة معلومة، ولفظ الماء، أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة، لن يكون معناه سوى مادة سائلة تحتوي على ١، ١١ ٪ من الهيدروجين، و ٩، ٨٨ ٪ من الأوكسجين. ولذلك يستطيع أي

عالم يجري عملية تسخين الماء في معمله أن يقول بكل قطعية: ان درجة حرارة غليان الماء هي (١٠٠) سنتي جراد، دون ان يرى مقياس الحرارة، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠ م.م.

فإذا كان ضغط الهواء أقل، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التي تدفع جزئيات الماء. وتعطيها صورة البخار، وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء، وعلى العكس، لو

كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة غليان، بمقدار زيادة ضغط الهواء. لقد

جربوا هذه العملية مرارا، إلى أن تمكنوا من البت في امر الغليان، حتى قبل تسخين الماء، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس. ولو لم يكن هذا النظام والضبط

في المادة وعمليات الطاقة، لما وجد الانسان أسسا يقيم عليها كشوفه ومنجزاته العلمية. ولولا النظام والضبط لحكمت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة! ولكان من المستحيل على علماء الطبيعة ان يقولوا. انه بمباشرة عمل ما في حالة معينة تحصل نتيجة كذا..

نظام العناصر والدورية

ان أول شئ يشاهده الطالب في معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها، وقد وضع العالم الروسي ماندليف خريطة للعناصر الكيماوية، بمقاديرها الجوهرية، وسميت بالخريطة الدورية Periodic Chart، وفي ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها،

حتى تملأ كل الخانات الموجودة في الخريطة، فتركها ماندليف خالية، إلى أن ملأها العلماء فيما بعد، كما تخيلها العالم الروسي من قبل كشفها بسنين طويلة، وهذه الخريطة تحوي جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة. ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذي يوجد في مركز الذرة، من الشحنات الكهربائية الايجابية البروتون، وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر، فالهيدروجين، الذي نعتبره أبسط عنصر يوجد في مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربائية الايجابية، وكذلك توجد

في العنصر المسمى هيليم شحنتان، وفي لثيم ثلاث شحنات. وما كان لنا ان نتمكن من

وضع خرائط العناصر المختلفة الا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة. وهل هناك مثال للضبط أفضل من أننا عثرنا على العنصر رقم (١٠١) بمجرد معرفة شحناته الكهربائية الخمسة عشر!!؟

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع في الطبيعة عبارة: الصدفة الدورية Periodic Chance، وانما هو القانون الدوري Periodic Law وليس من الممكن

أو نتنكر لما تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود اله ومهندس.. فان عدم ايمان العلم الحديث بالإله انكار في الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية!.

سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩ م، ويمكن رؤيته كاملا في كورنفال (١)،

ليس هذا مجرد تنبؤ قياسي، ولكن علماء الفلك يؤمنون بأنه لا بد من هذا الكسوف، بناء

على نظام دوران الشمس الموجود حاليا.

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا إلى السماء، ونشاهد الكواكب والنجوم التي لا حصر لها،
ان هذه الكرات السماوية، التي لا تزال معلقة في الفضاء، منذ قرون لا نعرف عدتها،
نور
في الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين معلوم بحيث يمكننا معرفة جميع الوقائع

(١) بلدة في جنوب غربي إنجلترا؟ المراجع.

المستقبل قبل وقوعها بقرون. انه نظام لا مثيل له، من الذرة إلى قطرة الماء، إلى الكواكب السحيقة في أجواء الفضاء.. نظام تستنبط على أساسه قوانين علمية!. ان نظرية نيوتن تفسر دوران الكرات الفلكية، وبناء على هذه النظرية استطاع العالمان: آدمز ولافرييز أن يتنبأ بوجود كوكب، لم يكن معروفا وجوده في وقتها، وبناء على قولهما وجه مرصد برلين في ليلة من ليالي سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوبا إلى الجهة التي أشارا إليها، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذي نسميه اليوم (السيار نبتون)، في أسرة الشمس!!.

خصائص حكيمية

ان أبعد الأمور عن القياس، وأعظمها استحالة، هو أن نؤمن بأن الكون وقطعيته. الرياضية، قد جاء نتيجة صدفة!. فمن الخصائص الحكيمية في هذا الكون كونه صالحا لتصرفات الانسان عند الضرورة، ولتأخذ

النتروجين على سبيل المثال.. فان ٧٨ % من النتروجين توجد في كل هبة من الرياح، وكذلك

توجد في أجزاء كيماوية أخرى، ونسميها حينئذ النتروجين المركب، وهذه كلها يستغلها

النبات لكي يهيء لنا الجزء النتروجيني في غذائنا، فلولا هذه العملية، لهلك الحيوان والانسان، وكل ما يعتمد على النبات في أكله جوعا وفاقا، فان أي نبات غذائي لا ينمو

بدون هذا التحليل الكيماوي.

ان هناك طريقتين لا الثالثة لهما، لتحليل النتروجين في الأرض، والطريقة الأولى: هي العملية الجرثومية، وتقوم بأدائها الجراثيم التي تعيش في جذور الشجرة تحت الأرض، وهذه الجراثيم تأخذ النتروجين من الهواء، وتصنع من النتروجين المركب، ويبقى هذا النتروجين تحت الأرض، بعد الحصاد، مع الجذور. وأما العملية الثانية التي تصنع النتروجين المركب فهي (الرعد).. فكلما احتك الرعد في الفضاء، مزج شيئا من الأوكسجين

في النتروجين، ويصل هذا النتروجين المركب إلى الحقول عن طريق الأمطار التي تلي العملية، والكمية التي تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة، كل سنة، هي ما يقرب من

خمسة أرتال لكل ايكر (١) من الأرض، وهي تساوي ثلاثمائة رطل من نترات الصوديوم (٢).

(١) مقياس إنجليزي لسطح الأرض، وهو أقل من (فدان) المراجع.
(٢) ,The Nature and properties of Soils. Lyon, Buckman and Brady

ولكن هذه الكمية من النتروجين المركب لا تكفي، لأن الحقول التي تزرع لمدة طويلة،

ينفذ ما فيها منه. ولذلك نرى الزراعة يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر، بعد وقت

معلوم. وأعجب ما حدث في هذا القرن؟ عندما ضاقت الأرض بما رحبت على سكانها، وقل

النتروجين لكثرة الزراعة، وخافت الانسانية من القحط والفاقة؟ اكتشفنا في هذه المرحلة الخطيرة طريقا ثالثة لاستمداد النتروجين من الهواء، وكانت الجهود الأولى، التي بذلت في هذا الصدد، أنهم جربوا عملية خلق رعد صناعي في الفضاء باستعمال آلات

قوتها ٣,٠٠٠,٠٠٠ حصان، غير أنهم لم ينجحوا الا في صناعة كمية ضئيلة من النتروجين

المركب. وتقدم الانسان بهذه التجارب، حتى كشف الطريق الثالثة وهي استخدام الهواء

في صناعة النتروجين المركب، في صورة (السماد)... وهكذا استطاع أن يهيئ لغذائه جزءه

الضروري، الذي لولاه لهلك جوعا. وهذا حدث عجيب في تاريخ الأرض، فان الانسان كشف

للمرة الأولى في تاريخه حلا لأزمة الغذاء، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها!!

ان هناك أمورا كثيرة تؤكد وجود الحكمة والروح في الكون، وكل ما لدينا من علم يؤكد

لنا أن ما قد كشف أقل بكثير مما لم نستطع حتى الآن الكشف عنه! وبرغم ذلك فان ما كشفه

الانسان كثير جدا، حتى اننا لو أردنا فهرسة عناوين هذه العلوم، فسنحتاج إلى سفر ضخم

جدا، بالنسبة إلى هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضا الكثير

منها دون فهرسة..

ان كل ما يمكن للسان الانساني أن يلفظه عن آلاء الله وآياته سوف يكون غاية في النقص، فمهما فصلناها وأسهبنا في تفسيرها، فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نحط بها، وانما تناولنا منها بعض الشيء.

والحق انه لو قدر أن تنكشف للانسان جميع العلوم الكونية، ثم يجلس سكان المعمورة، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل، في أكمل صورها، فان هؤلاء جميعا لن يستطيعوا تدوينها ابدا... أليس هذا هو مصداق قوله تعالى: (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله): وقوله تعالى: (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) (١)!!.

(١) لقمان / ٢٧.

(٢) والكهف ١٠٩.

ان كل ما أتاحت له الفرصة كي يطالع صفحة من هذا الكون، سيعترف مصدقا أنه لا
مبالغة

في هذه الكلمات الإلهية، وانما هي تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلا.

صدفة أم عمليات حكيمة؟

ان معارضي الدين يسلمون بكل ما طرحناه في الصفحات الماضية من الأنظمة العجيبة،
والحكمة غير العادية، والروح التي تسري في الكون، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى،
انهم عاجزون عن أن يجدوا فيها رمزا أو إشارة لمنظم ومدبر.. فإذا بهم يرون أن كل
هذا

جاء نتيجة صدفة محضة.

واستمع إلى قول هكسلي:

لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين
السنين، فلا

نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبها قصيدة من قصائد شكسبير!
فكذلك

كان الكون، الموجود الآن، نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في المادة، لبلايين
السنين (١).

ان أي كلام من هذا القبيل لغو مثير، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، فان جميع
علومنا تجهل؟ إلى يوم الناس هذا؟ آية صدفة أنتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة، في
روعة الكون، فنحن نعرف بعض الصدف، وما ينشأ عنها من آثار، فعندما تهب الرياح
تصل

حبوب اللقاح من وردة حمراء إلى وردة بيضاء، فتأتي بوردة صفراء.. هذه صدفة لا
تفسر

قضيتنا الا تفسيرا جزئيا استثنائيا. فان وجود الوردة في الأرض بهذا التسلسل، ثم
ارتباطها المدهش مع نظام الكون، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة. انها تأتي بوردة
صفراء ولكنها لا تأتي بالوردة نفسها! ان الحقيقة الجزئية الاستثنائية التي توجد في
مصطلح قانون الصدفة باطلة كل البطلان، إذا ما أردنا تفسير الكون بها.

يقول البروفسور ايدوين كونكلين:

ان القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع اعداد معجم
ضخم، نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة (٢).

وقد قيل: إن تفسير الكون بوساطة (قانون الصدفة) ليس بكلام فارغ. بل هو

.ξ - ς .The Mysterious Universe, pp (1)
.17ξ .The Evidence of God, p (2)

(72)

كما يعتقد السير جيمس جينز ينطبق على قوانين الصدفة الرياضية المحضنة
(١) Purely Mathematical Laws of Chance

ويقول أحد العلماء الأميركيين:

ان نظرية الصدفة ليست افتراضا، وانما هي نظرية رياضية عليا، وهي تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهي تضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق في امكان وقوع حادث من نوع معين، وللوصول إلى نتيجة، هي معرفة مدى

امكان ووقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة (٢).

ولو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون، وافترضنا أيضا أن تجمعها وتفاعلها كان

من تلقاء نفسها (ولست أجد أساسا لأقيم عليه هذه الافتراضات) ففي تلك الحال أيضا لن

نظفر بتفسير الكون، فان صدفة أخرى تحول دون طريقنا.. فلسوء حظنا: أن الرياضيات التي تعطينا نكتة الصدفة الثمينة، هي نفسها التي تنفي أي امكان رياضي في وجود الكون الحالي، بفعل قانون الصدفة.

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما

العلم الحديث غير كافيين في أي حال من الأحوال، لتسويغ ايجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضي.

ويمكننا أن نفهم شيئا عن قانون الصدفة من المثال التالي:

لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد، من ١ إلى ١٠، ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيدا، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي، بحيث تلقي

كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى... فامكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه
(٣)

في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة، وامكان أن تتناول الدرهمين (١، ٢) بالترتيب،

واحد في المائة، وامكان أن تخرج الدراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة

آلاف.. حتى أن الامكان في أن تنجح في تناول الدرهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة

بلايين من المحاولات!!

لقد ضرب هذا المثال العالم الأميركي الشهير كريسي موريسن، ثم استطرد قائلاً:

-
- (١) .٣ .Mysrerious Universe, p
(٢) .٢٣ .The Evidence of God, p
(٣) .١٧ .Man Doesnot Stand Alone p

ان الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعدد الوقائع بنسبة كبيرة جدا في مقابل الصدفة (١).

ولنتأمل الآن في أمر هذا الكون، فلو كان كل هذا بالصدفة والاتفاق، فكم من الزمان استغرق تكوينه بناء على قانون الصدفة الرياضي؟.
ان الأجسام الحية تتركب من خلايا حية، وهذه (الخلية) مركب صغير جدا، ومعقد غاية التعقيد، وهي تدرس تحت علم خاص يسمى علم الخلايا Cytology. ومن الأجزاء التي تحتوي عليها هذه الخلايا: البروتين، وهو مركب كيميائي من خمسة عناصر، هي: الكربون،

والهيدروجين، والنتروجين، والأوكسجين، والكبريت.. ويشمل الجزء البروتيني الواحد أربعين ألفا من ذرات هذه العناصر!!.

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيميائي، كلها منتشرة في أرجائه، فأية نسبة في تركيب

هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون الصدفة؟ أيمن أن تتركب خمسة عناصر؟ من

هذا العدد الكبير؟ لايجاد الجزئ البروتيني بصدفة واتفاق محض؟! اننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضي ذلك القدر الهائل من (المادة) الذي سنحتاجه، لنحدث

فيه الحركة اللازمة على الدوام، كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المادة السحيقة التي سوف تستغرقها هذه العملية.

لقد حاول رياضي سويسري شهير، هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواي) أن يستخرج هذه المدة

عن طريق الرياضة.. فأنتهى في أبحاثه إلى أن (الامكان المحض) في وقوع الحادث الاتفاقي؟ الذي من شأنه أن يؤدي إلى خلق كون، إذا ما توفرت المادة؟ هو واحد على ١٠ / ٦٠ (أي: ١٠ × ١٠ مائة وستين مرة). وبعبارة أخرى: نضيف مائة وستين صفرا إلى جانب

عشرة!! وهو عدد هائل لا يمكن وصفه في اللغة.

ان امكان حدوث الجزئ البروتيني عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن

المادة الموجودة الآن في سائر الكون، حتى يمكن تحريكها وضخها، وأما المدة التي يمكن

فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية، فهي أكثر من ١٠ / ٢٤٣ سنة (١)!.
ان جزء البروتين يتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية Amino - Acids
وأخطر
ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض، فإنها لو
اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سما قاتلا، بدل أن تصبح موجدة للحياة.

(١) Man Does not Stand Alone, p ١٧.
(٢) أي: مائتان وثلاثة وأربعون صفرا أمام عشر سنين؟ المترجم.

لقد توصل البروفسور ج. ب. ليتز G. B. Leathes إلى أنه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من ١٠ / ٤٨ صورة وطريقة. وهو يقول: انه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل ؟ بمحض الصدفة؟ في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها، حتى يوجد الجزئ البروتيني الذي يحتوي أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها. ولا بد أن يكون واضحا للقارئ أن القول بالامكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعني أنه لا بد من وقوع الحادث الذي ننتظره، بعد تمام العمليات السابق ذكرها، في تلك المدة السحيقة، وانما معناه أن حدوثه في أثناء تلك المدة محتمل، لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد!.

هذا الجزئ البروتيني ذو وجود كيماوي، لا يتمتع بالحياة الا عندما يصبح جزءا من الخلية، فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال في بحثنا: من أين تأتي الحرارة، عندما يندمج الجزئ بالخلية؟..... ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين الملحدين.

ان من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي، لا ينطبق على الخلية نفسها، وانما على جزء صغير منها، هو الجزئ البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش، وفي جسد كل فرد منا،

ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا!!.

لقد أعد العالم الفرنسي الكونت دي نواي Cotme de Nouy بحثا وافيا حول هذا الموضوع،

وخلاصة البحث: أن مقادير (الوقت، وكمية المادة، والفضاء اللا نهائي) التي يتطلبها حدوث مثل هذا الامكان هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن، وأكثر من

الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض، وهو يرى: أن حجم هذه المقادير التي

سنحتاج اليه في عملتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الانسان المعاصر، فلأجل وقوع حادث؟ على وجه الصدفة؟ من النوع الذي ندعيه،

سوف

نحتاج كونا يسير الضوء في دائرته ١٠ / ٨٢ سنة ضوئية (أي: ٨٢ صفرا إلى جانب

عشرة سنين
ضوئية!!) وهذا الحجم أكبر بكثير جدا من حجم الضوء الموجود فعلا في كوننا
الحالي،
فان ضوء أبعد مجموعة للنجوم في الكون يصل إلينا في بضعة (ملايين) من السنين
الضوئية
فقط.. وبناءا على هذا، فان فكرة أينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكفي أبدا لهذه
العملية المفترضة.
أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها، فإننا سوف نحرك المادة المفترضة في
الكون المفترض، بسرعة خمسمائة (تريليون) حركة، في الثانية الواحدة، لمدة ١٠ /
٢٤٣
بليون سنة

(٢٤٣ صفرا أمام عشرة بلايين)، حتى يتسنى لنا حدوث امكان في ايجاد جزيء بروتيني يمنح الحياة.

ويقول دي نواي في هذا الصدد: لابد ألا ننسى أن الأرض لم توجد الا منذ بليونين من السنين، وأن الحياة؟ في أي صورة من الصور؟ لم توجد الا قبل بليون سنة، عندما بردت الأرض (١).

هذا، وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه، وأثبتت الدراسة في هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ ٥ سنة.. وهي مدة قصيرة جدا، ولا تكفي على أي حال من

الأحوال لخلق امكان، يوجد فيه الجزئ البروتيني، بناء على قانون الصدفة الرياضي. وأما ما يتعلق بأرضنا التي ظهرت عليها الحياة، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء، جزء من الشمس، انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس

وسيار عملاق آخر، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور في الفضاء، شعلة من نار رهيبة، ولم يكون من الممكن ظهور الحياة على ظهوره حينئذ لشدة الحرارة، وبعد مرور

زمن طويل أخذت الأرض تبرد، ثم تجمدت وتماسكت، حتى ظهر امكان بدء الحياة على سطحها.

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة، هي التي

توصلنا إليها بعد كشف العناصر المشعة Radio - Active Elements، فان الذرات

الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة، وهذا التحلل Disintegration يقلل الذرات الكهربية في هذه العناصر، لتصبح تلقائيا عناصر غير مشعة

عبر الزمان، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة، وهو يتحول إلى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربية، وهذه النسبة في الانتشار لا تتغير تحت أي ظرف، من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن

سرعة تحول اليورانيوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير.

ان قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال، ومما لاشك فيه أن هذا اليورانيوم هو جزء من ذلك الجبل، منذ أن تجمد في شكله الأخير، عند تجميد

الأرض..
وعلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعاً من الرصاص، ولا نستطيع أن ندعي أن كل هذا
الرصاص
نتج عن تحلل اليورانيوم. والسبب في هذا أن الرصاص الذي يتكون من تحلل اليورانيوم
يكون أقل وزناً من الرصاص العادي، وبناءً على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما
إذا

(١) Human Destiny, pp ٣٠ - ٣٦.

كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم، أو أنها قطعة رصاص عادي، ونحن هنا نستطيع أن نحسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة، فهو يوجد في الجبل من أول يوم تجمد فيه، ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه!. لقد أثبت التجارب، هـ قد مر الف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال، التي تعتبر؟ علميا؟ اقدم جبال الأرض، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفا أو ضعفين عن عمر هذه الجبال، ولكن التجارب العلمية تنفي بشدة هذه الظنون الشادة، ويذهب البروفسور (سوليفان) إلى أن المعدل المعقول لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة (١)!.

ولنتأمل الآن، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح، تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى مجرد امكان لحدوث (جزء بروتيني) فيها بالصدفة! فكيف آذن جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات، وأكثر من ٢٠٠،٠٠٠

ألف نوع من النبات؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض، في كل مكان؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه الانسان؟ ولا أدري كيف نجرؤ على مثل هذه الاعتقادات، في حين أننا نعرف جيدا أن نظرية النشوء والارتقاء تقوم على أساس تغييرات صدفية محضة؟! وأما هذه التغيرات، فقد حسبها الرياضي باتو Patau، وانتهى إلى أن اكتمال تغير جديد في جنس ما، قد يستغرق مليوناً من الأجيال (٢): فلنفكر في أمر (الكلب) الذي يزعمون أنه جد (الحصان) الأعلى، كم من المدة، على قول

الرياضي باتو سوف يستغرقها الكلب، حتى يصبح حصانا؟! وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأميركي مارلين ب. كريدنر: ان الامكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق؟ عن طريق الصدفة؟ في نسبتها الصحيحة، هو ما يقرب من لا شيء (٣).

لقد أطلت في هذا البحث حتى نتبين مدى سخافة فكرة الخلق بالصدفة، وبطلانها، ولست؟ في الحق؟ أشك في أنه يستحيل وجود الجزئ البروتيني والذرة عن الصدفة، كما لا

يمكن
ان يكون عقلك هذا؟ الذي يتأمل في أسرار الكون وخفاياه؟ من ثمار الخلق

(١) JWN Sullivan Limitations of Science, p ٧٨.

(٢) The Evidence of God, p ١١٧.

(٣) Ibid, p ٦٧.

الصدفي، مهما بالغنا في افتراضاتنا عن المدة الطويلة التي استغرقتها عملية المادة في الكون. ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة في ضوء قانون الصدفة الرياضي فحسب، وانما

هي لا تتمتع بأي وزن منطقي في نفس الوقت. وأي كلام من هذا القبيل سخيف وملء بالصلافة.. ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب مملوء

بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم على الأرض!! لا مانع من أن أسأل هذا الرجل:

من أين جاء بهذا الفرش الأرضي، والجاذبية، والماء، والكوب، حتى يقع هذا الاتفاق الغريب؟! * * *

ولقد ولغ عالم البيولوجيا هيكل Haeckel في زعمه حين قال: ائتوني بالهواء، وبالماء وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الانسان. ولكن هيكل نسي أو تجاهل في هذه القالة: أنه بتقريره احتياجه إلى المادة والأحوال المادية، ينفي زعمه من تلقاء نفسه!.

يقول الأستاذ كريسي موريسن (١) في هذا الصدد:

ان هيكل يتجاهل في دعواه: الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فان أول شيء سيحتاج اليه عند خلق الانسان، هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق (الجينات)، أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة.. ولكن امكان الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا، لا يعدو واحدا على عدة بلايين، ولو افترضنا أن هيكل نجح في محاولته، فإنه لن يسميها صدفة، بل سوف يقررها، ويعدها نتيجة لعبقريته (٢). * * *

ولنختم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأميركي جورج ايرل ديفيس: (لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه، فان معنى ذلك أن يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه

الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الاله.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الاله)، ولكن الهنا هذا سوف يكون عجيبا: إلها غيبيا وماديا في آن واحد!! انني أفضل أن أو من

بذلك الاله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره

ومديره، بدلا من أن أتبنى مثل هذا الخزعبلات (٢).

-
- (١) رئيس أكاديمية العلوم الأميركية بنيويورك (سابقاً)؟ المترجم.
- (٢) Man Does not Stand Alone, p ٨٧.
- (٣) The Evidence of God, p ٧١.

الباب الخامس: دليل الآخرة

من أهم الحقائق التي يدعوننا الدين إلى الايمان بها: فكرة الآخرة. والمراد بها: أن هناك عالما آخر غير عالمنا الحاضر، وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين، وأن عالمنا هذا

هو مكان للاختبار والابتلاء، وجد فيه الانسان لأجل معلوم، وأن الله سوف ينهي هذا العالم حين يحين أجله، لبناء العالم الآخر، على طراز جديد وأن الناس سوف يبعثون مرة

أخرى، وسوف تعرض أعمالهم؟ خيرا أو شرا؟ على محكمة الله، الذي يجزي كل انسان بما

عمل في الحياة الدنيا.

أهذه النظرية صحيحة؟ أم باطلة؟ وهل هناك امكان لهذه الآخرة؟ سوف نعرض هنا بعض جوانب

القضية.

أولا: امكان الآخرة

ليكن الجانب الأول من هذا العرض، هو البحث عن امكان وقوع الآخرة. فهل هنالك وقائع

وإشارات تصدق هذه الدعوى؟.

ان فكرة (الآخرة) تقتضي؟ أول ما تقتضي؟ ألا يكون الانسان والكون، في شكلهما الحالي أبديين، وقد علمنا في الصفحات الماضية؟ بما لا يدع مجالاً للشك؟ أن أبدية الكون والانسان مستحيلة، وأيقنا، يقينا لا يتزعزع، بأن الانسان يموت، وأن الكون سينتهي طبقا لقانون الطاقة المتاحة. ولست أدري إذا ما كان هنا طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة.

أ؟ مسألة الموت:

ان الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني؟ الآخرة؟ يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبديا لأفراحهم، ولذلك بحثوا كثيرا عن أسباب الموت، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب، من أجل تخليد الحياة، ولكنهم أخفقوا أخفاقا

ذريعا، وكلما بحثوا في هذا الموضوع، رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت، وأنه لا مناص منه.

لماذا الموت؟.. هناك ما يقرب من مائتي إجابة عن هذا السؤال الخطير، الذي كثيرا ما يطرح في المجالس العلمية، منها:

(فقدان الجسم لفاعليته)، (انتهاء عملية الأجزاء التركيبية)، (تجمد الأنسجة العصبية)، (حلول المواد الزلائية القليلة الحركة، محل الكثيرة الحركة منها)، (ضعف الأنسجة الرابطة)، (انتشار سموم بكتريا الأمعاء في الجسم).. وما إلى ذلك من الإجابات التي تتردد كثيرا حول ظاهرة الموت.

ان القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل.. فان الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود، فأجسامنا أيضا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التي نلبسها في موسم الشتاء. ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا، لأن المشاهدة العلمية للجسم الانساني تؤكد: أنه ليس كالجلود الحيوانية، والآلات الحديدية، وليس كالجبال.. وأن أقرب شئ يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذي لا يزال يجري منذ آلاف

السنين على ظهر الأرض فمن ذا الذي يستطيع القول بأن النهر الجاري يبلى ويهن ويعجز؟!!

بناء على هذا الأساس يعتقد الدكتور لنس بالنج (١) أن الانسان أبدي، إلى حد كبير، نظريا، فان خلايا جسمه آلات تقوم باصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائيا! وبرغم

ذلك فان الانسان يعجز ويموت، ولا تزال علل هذه الظاهرة أسرارها تحير العلماء. ان جسمنا هذا في تجدد دائم، وان المواد الأزلية، التي توجد في خلايا دمائنا، تتلف كذلك ثم تتجدد، ومثلها جميع خلايا الجسم، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة، اللهم الا

الخلايا العصبية. وتفيد البحوث العلمية أن دم الانسان يتجدد تجددا كليا خلال ما يقرب من أربع سنين، كما تتغير جميع ذرات الجسم الانساني في بضع سنين. ونخرج من هذا

بأن الجسم الانساني ليس كهيكل، وإنما هو كالنهر الجاري، أي أنه عمل مستمر. ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده لقوته، فان الأشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ

زمن طويل، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت، فسبب الموت موجود في مكان آخر، وليس في

الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب.

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم.

ويدعي بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت، لأنها تبقى في الجسم إلى آخر

الحياة ولا تتجدد. ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الانساني، فمن الممكن أن نزع من أي جسم خال من (النظام العصبي) لابد أن يحيا

عمرا أطول من الأجسام ذات النظام العصبي، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا، فان هذا

النظام لا يوجد مثلا في الأشجار، وبعضها يعيش لأطول مدة، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لا تعيش أكثر من سنة، وليس في كائن الأميبا جهاز عصبي، وهي مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة، ومقتضى هذا التفسير أيضا

أن تلك الحيوانات التي تعد من (نسل أعلى)، والتي تتمتع بنظام عصبي أكمل وأجود، لابد

أن تعيش مدة أطول من تلك التي هي أحقر نسلا وأضعف نظاما. ولكن الحقائق لا تؤيدنا في

هذا أيضا، فان السلحفاة والتمساح وسمكة باتيك أطول عمرا من أي حيوان آخر، وكلها

من النوع الثاني؟ حقير النسل، وضعيف النظام. ***

لقد أخفقت تماما تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمرا غير يقيني، يمكن

ألا يقع، فبقي الاحتمال، الذي أكدته الأزمان، وهو أن يموت الانسان في أي عمر، وفي

أي زمن، ولم نستطع العثور على أي امكان يمنع الموت، رغم جميع الجهود. لقد بحث الدكتور الكسيس كيرل هذه المشكلة في مقال طويل بعنوان الزمن الداخلي، فذكر الجهود المخففة التي بذلت في هذا الصدد، ثم قال: إن

الانسان لن يسأم أبدا من البحث (عن الخلود) والسعي وراءه، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد، فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة، انه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجي) لأعضاء الجسد، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة، ولكنه لن يتغلب على الموت

أبدا (١).

(ب) ظواهر وأمثلة طبيعية:

في ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة، فنحن على علم بالقيامات

الصغرى التي تقع على سطح الأرض، وهي التي ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع،
حتى تشمل
الأرض المأهولة كلها.
ان الظاهرة الأولى التي نذرنا بإمكان القيامة هي الزلازل.... فبطن الأرض يحتوي على
مادة شديدة الحرارة، نشاهدها عندما ينفجر البركان، وهذه المادة تؤثر على الأرض،
بشتى الطرق، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة، وما نحس به من الهزات
الأرضية،
التي

(١) Man the Unknown, p. ١٧٥.

نسميها الزلازل انها لا تزال كلمة رهيبة في حياة الانسان المعاصر، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا، كما كانت رهيبة في حياة الانسان القديم. هذه الزلازل هي حملة الطبيعة

ضد الانسان، الذي لا يملك إزاءها شيئا، فالخيار كله في يد الفريق الأول. ان الانسان لا يملك شيئا يقاوم به الزلازل، فهي نذير يذكره دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو

مترا، وهذه القشرة ليست، بالنسبة إلى الكرة الأرضية، الا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح.

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف): ان هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء،

ومدنا الحضارية المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى: نحن واقفون على ظهر لغم ديناميت

عظيم، ومن الممكن ان ينفجر في أي وقت، ليدمر النظام الأرضي بأكمله (١). وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحي الأرض، ولا تخلو الجرائد أي صباح من أخبارها، ولكن

يكثُر وقوعها في الأماكن التي توجد بها البراكين لاعتبارات جغرافية. وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسي) الصيني، الذي وقع عام ١٥٥٦ م. ولقي أكثر من

٨ ،٠٠٠٠٠٠ نسمة مصرعهم في هذه الكارثة. وقد وقع زلزال في لشبونة عاصمة البرتغال

عام ١٧٥٥ م، فدمر المدينة كلها، وأباد ثلاثين ألفا من الناس في ست دقائق. وقد قيل: إن

هذا الزلزال هز ربع أوروبا. ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع في ولاية (آسام) الهندية عام ١٨٩٧ م، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى في التاريخ، فقد أحدث دمارا

وخرابا عظيمين في منطقة كبيرة من شمالي الهند، كما غير اتجاه النهر العملاق (برهام بوترا)، وطفرت هضبة (ايفرست) بجبال الهمالايا، فارتفعت مائة قدم!.

ان هذه الزلازل (قيامه) على نطاق واسع... فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف، ودويها

الرهيب، وعندما تتساقط الجدران، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة، حتى كأنها أوراق الكوتشينة، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها، وأسفلها أعلاها، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى في ثوان معدودة، وعندما تسير طوابير النعوش،

وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر؟ فتلكم هي
قيامه
الزلزال.

وفي تلك اللحظة يشعر الانسان بعجزه أمام قوى الطبيعة، فان الزلازل لا تفرع أبواب
المدن الا بغته، دون سابق آذن أو إنذار، والبلىة كل البلىة في أن الانسان لا يستطيع
أن يتنبأ بمكان الزلازل، ولا بموعد وقوعها، وهي في نفسها تنبئ عن قيامه كبرى،
سوف
تفجؤونا غداة يوم على غرة منا، ان هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على
تدميرها، كما يشاء.

(١) Biography of the Earth, p ٦٢.

وهذه هي حال الفضاء الخارجي، فالكون لا حدود له، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها، هي (السيارات والنجوم)، ومثالها كملايين الخذاريق (١) التي تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها.. وهذا الدوران يمكن أن يتحول في أي يوم إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره. وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية، وهي تواصل رحلتها في الجو، ثم تصطدم كلها مرة واحدة!! ان اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقا، بل الغريب حقا هو عدم وقوع هذا الاصطدام، فدراسة علم الفلك تؤكد امكان اصطدام الأجرام السماوية، والحديث عن وجود النظام الشمسي يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديما، فإذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيدا ذلك (الامكان) الذي نحن بصدده.. فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه.. القيامة.

ان فكرة (الآخرة) التي تقرر أن نظام الكون الموجود حاليا سوف يدمر يوما، لا تعني سوى أن واقع الكون، الذي نشاهده في صورة صغيرة أولية، سوف يتجلى يوما في صورة نهائية كبرى. فالقيامة حقيقة معلومة في أعماقنا، ونحن اليوم نعرفها في حد (الامكان)، ولسوف نلقاها غدا في صورة الواقع.

(ج) الحياة بعد الموت:

المسألة الثانية في هذا البحث هي مسألة الحياة بعد الموت. هل هناك حياة بعد الموت؟؟ هذا سؤال يتردد دائما في العقل الحديث، ثم يستطرد قائلا: لا.... لا حياة بعد الموت، لأن الحياة التي أعرفها لا توجد الا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية. وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت، اذن: فلا حياة بعد الموت.

ويعتقد ت ر. مايلز بأن: البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية، وليس بحقيقة لفظية. ثم يضيف قائلا:

انها قضية قوية عندي أن الانسان يبقى حيا بعد الموت، وهذه القضية من الممكن؟ لفظيا؟ أن تكون حقيقة، وهي قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة، ولكن المسألة الرئيسية في طريقنا هي أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الإجابة القطعية عن هذا السؤال الا بعد الموت، ولذلك يمكننا أن نقيس.

(١) جمع خذروف، وهي لعبة من الخشب، مخروطية الشكل، يسميها الأطفال (النحلة) (المراجع).

وعاداته،
وحافظته، وأمانيه، وأفكاره، تبقى كلها كما كانت. انه يشعر في جميع مراحل حياته
بأنه
هو الانسان

(١) Religion and Scientific Outlook, p ٢٠٦.
(٢) لم نشبه الخلية بالطوب الا لشبهه ظاهري، والحقيقة أن الخلية عملية معقدة
للغاية، وهي في ذاتها جسم كامل، ويبحث عنها في علم الخلايا Cytology.

السابق، الذي وجد منذ عشرات السنين، ولكنه لا يحس بأن شيئاً من أعضائه قد تغير، ابتداءً من أطراف رجليه حتى شعر رأسه.

ولو كان الانسان يفنى بفناء الجسم، لكان لازماً أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل، ولكننا نعرف جيداً أن هذا لا يحدث، وهذا الواقع يؤكد أن الانسان أو الحياة الانسانية شيء آخر غير الجسم، وهي باقية رغم تغير الجسم وفنائه، وهو كنه مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة! وهذا هو الأمر الذي دعا عالماً أن يصف الانسان: بشيء مستقل بذاته، وبق غير متغير، رغم التغيرات المتسلسلة. فهو يعتقد:

أن الشخصية هي عدم التغير في عالم التغيرات؟

Personality is Changelessness in Change

ولو كان الموت فناء للانسان، فمن الممكن ان نقول؟ بعد كل مرحلة من مراحل حدوث

هذا التغير الكيماوي الذي يجري في الجسم؟ ان الانسان قد مات، وانه يعيش حياة أخرى

جديدة بعد موته! ومعناه أن الرجل الذي أراه في الخمسين من عمره، وهو يمشي في الشارع

على رجليه، قد مات خمس مرات في هذه الحياة القصيرة، فإذا لم يمت هذا الانسان بعد

فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات في المرة السادسة

على وجه اليقين؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة؟.

ان بعض الناس لن يسلّموا بهذا الاستدلال، وسيقولون: ان العقل، أو الوجود الداخلي الذي نسميه انساناً، ليس بشيء آخر، ولم يوجد الا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجي، وان الأفكار والأمانى لا توجد خلال العمل المادي الا كالحرارة التي توجد نتيجة احتكاك قطعيتين من حديد!.

ان الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة، ويعتقد السير جيمز: ان الشعور لا يوجد كوحدة Entity، وانما هو وظيفة Function، وتفاعل وتنسيق Process وقد أصر الكثيرون من

فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) في ذاته ليس إلا التفاعل والرد العصبي لما يحدث من حركة ونشاط في العالم الخارجي. وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن امكان

الحياة بعد الموت، نظراً لتحلل النظام الجسماني، ولأن المركز العصبي في الجسم لم يعد

له وجود، وهو الذي كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجي، وهم يعتقدون بناءً على

هذا
أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلي أو واقعي.
سوف أقول: انه لو كانت هذه هي حقيقة الانسان، فلنجرّب أن نخلق انسانا حيا ذا شعور،
ونحن؟ اليوم؟ نعرف بكل وضوح جميع العناصر التي يتألف منها جسم الانسان، وهذه العناصر توجد في الأرض وفي الفضاء الخارجي، بحيث يمكننا الحصول عليها، وقد علمنا
دقائق بناء النظام الجسماني، وعرفنا هيكله وأنسجته، ولدينا فنانون

مهرة يستطيعون ان يصنعوا أجساما كجسم الانسان، بكل مواصفاتها، فلنجرب؟؟ لو كان

معارضو الروح يصرون على حقيقة مبدئهم؟ ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام، ولنضعها
في شتى الميادين، في بقعة الأرض الفسيحة، ثم لنتظر ذلك الوقت الذي تمشى فيه هذه
الأجسام وتتكلم وتأكل بناء على تأثيرات العالم الخارجي!؟.***

فهذا عن أماكن بقاء الحياة بعد الموت.

ثانيا: ضرورة الآخرة

لنفكر الآن في الأسباب التي أقام الدين عليها دعوته إلى الايمان بهذه النظرية: ان
الحياة، كما نتصور، ليست غدوا ورواحا، كما يراها الفيلسوف الألماني (نيتشه)،
والتي تمتلئ وتخلو كالساعة، ولا هدف لها أكثر من ذلك.. ان الحياة الآخرة ذات
هدف

عظيم، هو المجازاة على أعمال الدنيا، خيرا كانت أو شرا. وهذا الجزء من نظرية
الآخرة

يكاد يتضح جليا حين نعلم أن اعمال كل انسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة، وبغير
توقف.

وللإنسان ثلاثة أبعاد، يعرف من خلالها، هي: نيته، وقوله، وعمله. وهذه الأبعاد
الثلاثة تسجل بأكملها. فكل حرف يخرج عن لساننا، وكل عمل يصدر عن عضو من
أعضائنا؟

يسجل في الأثير (الفضاء)، ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله،
لنعرف؟

إذا شئنا؟ كل ما قاله، أو فعله أي انسان في هذه الحياة الدنيا، من خير أو شر.
ان الأفكار تخطر على بالنا، وسرعان ما ننساها، ويبدولنا أنها انتهت، فلم يعد لها
وجود، ولكننا، بعد فترة طويلة، نراها رؤى خلال النوم، أو نذهب نتكلم عنها في
حالات

الهستيريا أو الجنون، دون أن ندري شيئا مما نقول. وهذه الوقائع تثبت قطعيا أن العقل
أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب، وانما هناك أطراف أخرى من
هذه

الحافظة لا نشعر بها، وهي ذات وجود مستقل، وذات كيان قائم بنفسه.
ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل، ولسنا قادرين
على محوها أبدا، وأثبتت هذه التجارب أيضا أن الشخصية الانسانية لا تنحصر فيما
نسميه

الشعور، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الانسانية تبقى وراء الشعور، يسميها فرويد: ما تحت الشعور، أو اللاشعور. وهذه الاجزاء تشكل جانبا كبيرا من شخصيتنا بل هي الجانب الأكبر منها فمثلها لمثل جبل من الجليد في أعالي البحار أجزاءه الثمانية مستكنة تحت الماء، على حين لا يطفو منه الا الجزء التاسع. وتلك هي ما نسميه:
(تحت الشعور)، الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه، أو ننتويه.

يقول (فرويد) في محاضراته الحادية والثلاثين:
ان قوانين المنطق، بل أصول الأضداد أيضا، لا تحول دون عمل (الاشعور) ID وان
الأماني المتناقضة موجودة فيه جنبا إلى جنب، دون أن تقضى واحدة منها على
الأخرى،

ولا شئ في اللاشعور يشبه أن يكون رفضا لشيء من هذه المتناقضات. اننا نتحير لما
نشاهده من أن اللا شعور يبطل رأي فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية
الشعورية تتم في زمن محدد، ولكن لا شئ في اللاشعور يطابق الفكر الأزمني، ولا
يوجد فيه

أي رمز لمضي الوقت وسريانه، وهي حقيقة محيرة. ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا
حقيقة،

هي أن مضي الزمن لا يحدث أي تغيير في العمل الذهني، ان الدوافع الحبيسة
(Conative)

(impulses) التي لم تخرج قط عن اللاشعور، وحتى التأملات الخيالية التي دفنت في
اللاشعور؟ تكون أزلية في الحقيقة والواقع، وتبقى محفوظة لعشرات السنين، وكأنها لم
تحدث الا بالأمس (١).

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم، ومعناها أن كل ما يخطر على بال
الانسان من الخير والشر، ينقش في صفحة اللاشعور، فلا يزول إلى الأبد، ولا يؤثر فيه
تغير الزمان، وتقلب الحدثان، ويحدث هذا على رغم الإرادة الانسانية؟ طوعا أو كرها.
ولم يستطع (فرويد) ان يدرك ما يكمن خلف هذه العملية من أسباب وعلل، وأية خدمة
تؤديها

في مصنع الكون؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة إلى التفكير والتأمل. ولكننا لو قارنا هذا
الواقع مقرونا إلى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة، ان هذا الواقع
يؤكد بكل صراحة امكان وجود سجل كامل لأعمال الانسان في حيازته، عندما يبدأ
حياته

الأخرى، فان وجود نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التي عاشها:
ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (٢).

(١) مسألة القول:

ولنتناول هنا مسألة القول: ان نظرية الآخرة تقول بأن الانسان مسئول عن (أقواله)،
فجميع ما نلفظه من كلام، حسنا كان أو قبيحا، حمدا أو سخطا، وسواء استعملنا
اللسان

في ابلاغ رسالة الحق، أو استعملناه في ابلاغ رسالة الشيطان، كل ذلك يحفظ في
سجل

كامل: ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد (٣). وهذا السجل سوف يعرض أمام
محكمة
الآخرة ليتم حساب الانسان.

(١) New Introductory Lectures on Psycho - Analysis, London ١٩٤٩ , p .٩٩

(٢) ق: ١٦ .

(٣) ق: ١٨ .

وامكان وقوع هذا لا ينافي العلم الحديث، فنحن نعرف قطعاً أن أحداً عندما يحرك لسانه ليتكلم، يحرك بالتالي موجات في الهواء، كالتي توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه بقطعة من الحجر.. أنك لو وضعت جرساً كهربائياً في زجاج محكم الاغلاق من كل جانب، ثم تضغط عليه، فلن تسمع صوته، برغم أن الجرس على مرأى منك.. لأنه لا يرسل الموجات إلى الخارج، فهو مكتوم داخل الزجاج، وهذه الموجات في الظروف العادية تصطدم ببطلة الأذن، التي تقوم آلياً بإرسال هذه الموجات إلى العقل، فما نفهمه من المعنى، يسمى سماعاً!.. ولقد ثبت قطعياً أن هذه الموجات تبقى كما هي في الأثير، إلى الأبد، بعد حدوثها للمرة الأولى، ومن الممكن سماعها مرة أخرى. ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات، أو بعبارة أصح: عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى، مع أنها لا تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد. ولم يبدي العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال حتى الآن، بعد أن سلموا؟ نظرياً؟ بإمكان إيجاد آلة للتقاط أصوات الزمن الغابر كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال. على أن المسألة الكبرى التي نواجهها في هذا الصدد، ليست هي التقاط الأصوات القديمة، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة؟ الهائلة الكثيرة؟ حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة.. وهذه هي مسألة الإذاعة التي وصلنا فيها إلى حل، فإن آلاف المحطات الإذاعية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار، وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء، بسرعة ١٨٦،٠٠٠ ميلاً في الثانية.

وكان من المعقول جداً عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطاً هائلاً من الأصوات لانفهم منه شيئاً، ولكن هذا لا يحدث، لأن جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها، فمنها ما يرسل برامجها على موجات طويلة، ومنها ما يرسل على موجات قصيرة، ومتوسطة. وهكذا تمر هذه البرامج في الفضاء بموجات مختلفة طولاً، فتستطيع أن تسمع آية موجة من المذياع، بمجرد أن تدير عقربه إلى المكان المطلوب.

ان علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم، ولولا ذلك لكنا

قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته. وبناء على هذا يثبت امكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة، ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الانسان يسجل، وهو محاسب عليه يوم الحساب. وربما كان قياسا مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء إيران الأسبق مسجوناً أثناء محاكمته عام ١٩٥٣، فقد ركبت في غرفته

آلة للتسجيل تتحرك آليا، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته، وقد

عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة، شهادة عليه.. وهو نموذج لما يمكن أن يحدث في الآخرة.

ان مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفي وجود ملائكة الله؟ أو بلفظ آخر؟ وجود مسجلين غير مرئيين، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما نطق به من كلام، وهو ما يصدق قول الله

سبحانه: (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد).

(ب) مسألة العمل:

ولننظر الآن في مسألة (العمل): ومعلوماتنا في هذا الصدد تصدق بصورة مذهشة امكان حدوث الآخرة.

فالعلم الحديث يؤكد ايمانه بأن جميع أعمالنا؟ سواء أباشرناها في الضوء، أم في الظلام، فرادى، أم مع الناس؟ كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور، ومن

الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور، حتى نعرف كل ما جاء به انسان مامن أعمال الخير

والشر طيلة حياته، فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء؟ حدث في الظلام أو في النور، جامدا كان أو متحركا؟ تصدر عنه حرارة بصفة دائمة، في كل مكان، وفي كل حال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماما، كالأصوات التي تكون عكسا كاملا

للموجات التي يحركها اللسان. وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما

خرجت منه الموجات الحرارية (Heat Waves). ومثاله أنني أكتب الآن في مكتبتي، وسوف

أغادرها بعد ساعة، ولكن الموجات الحرارية التي خرجت من جسدي أثناء وجودي ههنا،

ستبقى دائما، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستي في المكتبة في أي وقت بوساطة تلك

الآلة، غير أن الآلات التي تم اختراعها إلى الآن، لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية الا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث. أما الموجات القديمة، فلا تستطيع هذه الآلة

تصويرها، لضعفها.
وتستعمل في هذه الآلة (أشعة انفراد) التي تصور في الظلام والضوء، على حد سواء.
ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة في
تحقيقاتهم، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك، فصوروا الموجات
الحرارية
لفضاء نيويورك بهذه الآلة، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها (١)... ولقد
أطلق
على هذه

(١) DigestReader, November ,s ١٩٦٠.

الآلة اسم: آلة تصوير الحرارة Evaporagraph ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية

تعليقا بمناسبة هذا الاختراع، تقول: اننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما في المستقبل، ومن الممكن أن تنتهي هذه العملية إلى كشف

عجيبة، تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها...

وانني أعتبر هذا الاختراع عجيبا كل العجب، فمعناه أن حياة كل منا تصور على مستوى

عالمي، كما تسجل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين. انك لو صفعت فقيرا، أو حملت عبئا عن أحد الغرباء، أو شغل بالك أمر من

الخير أو الشر.. فان جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون، حيث لا يسعك منعها أو الهرب

منها، سواء أكنت في الظلام أم في النور. فحياتك كالقصة التي تصور في الاستديو، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن، على بعد كبير من مكان التسجيل،

ولكنك تشعر كأنك موجود في مكان الأحداث، وهكذا شأن كل ما يقترفه الانسان، وشأن

الاحداث التي يعيشها، فان فيلما كاملا لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدي كل فرد يوم

القيامة، حتى يصرخ الناس قائلين:

يا ويلتنا!! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (١)؟!.

والتفاصيل العلمية التي أوردنا بعضها في الصفحات الماضية يتضح منها جليا أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الانسان، فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد،

وكل ما نطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة، فنحن نعيش أمام كاميرات تشتغل دائما،

ولا تفرق بين الليل والنهار... وجميع أعمالنا، القلبية منها واللسانية والعضوية، كلها تسجل بدقة تامة... ولا يسعنا؟ ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة؟ إلا أن نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة إلهية... وبأن هذه المحكمة هي التي قامت

باعداد هذا النظام العظيم لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها.

ولا يستطيع أي عالم أن يدلي بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه.. فلو لم
تستطع
هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعل البشر يحسون بمسئوليتهم إزاء المحكمة
الجبارة
التي ستقام يوم الحساب، فلا أدري ما الواقع الذي قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم؟!.*.*.*

(١) الكهف: ٤٩.

ثالثا: الحاجة إلى الآخرة
لقد بحثنا في الصفحات الماضية فيما إذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة، التي يدعيها الدين، ممكنا؟ ولقد ثبت ما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث.. والمسألة التي نقف أمامها الآن هي: البحث فيما إذا كن هذا العالم في حاجة؟ فعلا؟ إلى شيء من قبيل الآخرة؟ وهل يقتضي الكون؟ في هيكله الحالي؟ وقوعها؟؟.*.*.*

(١) الجانب النفسي:
لنتناول أولا (الجانب النفسي) من المسألة.
يقول البروفيسور (كنجهام) في كتابه: Plato ' s Apology: ان عقيدة الحياة بعد الموت
لا أدرية مفرحة Cheerful Agnosticism، ومن الممكن اعتبار هذا القول
خلاصة أفكار

فلاسفتنا الملحدين المعاصرين، فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الانسان الباحثة عن عالم حر، مستقل عن حدود هذا العالم، ومشكلاته، مليء بالأفراح. وانما يدفعه إلى الايمان بهذه العقيدة أمله في الحصول على حياته المفضلة، التي لا جهد فيها ولا كدح.. وأن هذه العقيدة تنتهي بالإنسان إلى عالم مثالي وخيالي، حيث يحلم بأنه سوف

يظفر به بعد الموت. ولكن الحقيقة؟ كما يراها الفلاسفة؟ أن لا وجود لشيء كهذا العالم الثاني في الأمر الواقع!.

وفي رأيي: أن هذا المطلب الانساني؟ في حد ذاته؟ دليل نفسي قوي على وجود عالم آخر، كالظمأ، فهو يدل على الماء، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الانسان. وهكذا فان تطلع الانسان؟ نفسيا؟ إلى عالم آخر دليل في ذاته على أن شيئا مثل ذلك موجود في الحقيقة، أو أنه؟ على الأقل؟ خليق أن يوجد. وهذا المطلب النفسي يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الغريزة الانسانية منذ أقدم العصور على مستوى انساني، وهو أمر لا أستطيع فهمه: كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل

على البشر في هذا الشكل الأبدي، وعلى مستوى انساني؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بإمكان وجود العالم الآخر. وانكار هذه الحاجة النفسية، بدون أدلة، يعتبر جهلا وتعصبا.

ان الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين أنها باطلة، هم من أعجز الناس حقا

عن تفهم أي واقع على سطح الأرض بعد هذا.. ولو كانوا يزعمون الفهم في الواقع فلا أدري بأي دليل؟... وعن أي برهان؟.

ولو كانت هذه الأفكار نتاج المجتمع، كما يزعمون، فكيف لا تزال تطابق التفكير
الانساني، بهذه الصورة المدهشة، من اقدم العصور؟ هل تجدون مثالا لأية أفكار انسانية

أخرى ظلت باقية إلى العصر الحاضر، وبهذا التسلسل الرائع منذ أوف السنين؟ هل يستطيع
أذكي أذكياهم أن يخترع فكرا واهيا، ثم يدخله إلى النفس الانسانية، وكأنه موجود
بها
منذ الأزل؟.

ان لكل انسان أماني كثيرة لا تكمل بالنجاح في حياته، انه يتمنى حياة أبدية، ولكن
الحياة التي أعطيت له تخضع لقانون الموت. والعجيب أن الانسان عندما يكون على
أبواب
حياة ناجحة عظيمة، بعدما كسب من العلم والمعرفة، والخبرة والتجارب الثمينة، حينئذ
تداهمه دعوة الموت.. ولقد أكدت احصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر
فيما

بين؟ ٤٥ ٦٥ سنة من أعمارهم، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة
آلاف جنيه

في السنة، وفي ذلك الوقت الثمين؟ فجأة؟ تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء، أو ذات
صباح، فيرحلون إلى عالم مجهول، تاركين تجارتهم الممتدة إلى ما وراء البحار..
يقول الأستاذ وينوود ريد (Winwood Reade):

انه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الاله؟ هل هناك
عالم غير عالمنا هذا؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم؟ ان هذا السؤال
ليس

بعقدة فلسفية عظيمة فحسب، وانما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضا. انه
سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة، فحياتنا الراهنة قصيرة جدا، أفراحها عادية موقوتة،
إذ اننا عندما نظفر بما نحلم به، يفاجئنا الموت، ولو استطعنا الاهتداء إلى طريق
خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين
منا (١).

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسي الكبير من أجل أمور لا وزن
لها

ولا قيمة، فهو يقول: ان هذه العقيدة كانت معقولة جدا حين كنا لا نبحث جوانبها
بعمق

وجد.. ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف، ويمكن اثبات سخافته
بسهولة،

فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسؤولية خطاياها، وسيدخل الجنة، ولكن
العباقرة

مثل (جوته)، و (روسو)، سوف يحترقون في نار الجحيم، فلأن يخلق الانسان محروم

العقل

خير له من أن يكون من أمثال جوته وروسو!! ان هذا الكلام تافه وسخيف (٢).
وما أشبه هذا الموقف بالذي اتخذه (اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمي الذي قام به
(ماكسويل)، فقد زعم اللورد أنه لا يستطيع أن يفهم نظرية ما إلا بعد وضع نموذجها
الميكانيكي، وبناء على هذا الفرض أنكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس، لأنها

(١) Martyrdom of Man, p ٤١٤.

(٢) Ibid, p ٤١٥.

لم تحل في أحد نماذج اللورد المادية! ان مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية
أصحت

غريبة في عالم الطبيعة الحديثة. ويتساءل العالم الكبير (سوليفان):
كيف يروق لاحد أن يدعي أن الطبيعة لا بد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع
عشر
في معمله (١)؟.

وسوف أوجه هذا الكلام إلى الأستاذ (وينوود):
كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى: أن يكون الكون الخارجي، في حقيقة
الأمر
مطابقا لما يزعمه هو؟.

ان كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمرا في غاية البساطة: هو أن الحقيقة لا تحتاج إلى
الواقع الخارجي، وانما الواقع الخارجي هو الذي يكون في حاجة إلى الحقيقة..
فالحقيقة أن لهذا الكون إلها، وسوف نمثل أمامه يوم الحساب. فلا بد لكل منا؟ سواء
أكان روسو أم كان مواطنا عاديا؟ أن يكون وفيا ومطيعا لإلهه، فنجاتنا لن يحققها
جحودنا، بل هي تكمن في ايماننا وطاعتنا.. والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب
(جوته) و (روسو) أن يسلكا مسلك الحق، وانما طالب الحق بالتغير! ولما لم يطع
الحق راح
ينكره!! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العسكرية، الذي يكرم أحيانا جنديا
بسيطا، ويعدم عالما ممتازا، مثل روز نبيرج وعقيلته الحسناء بالكهربائي!!.

انه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر في (الغد) غير الانسان. فهو يتميز عن سائر
الحيوانات بدوام تفكيره في المستقبل، وجهاده المتواصل، وسعيه الدائب في سبيل
تحسين
أحواله. ولا شك اننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها، كالنمل الذي يدخر
غذاءه

للشتاء القادم، والطيور التي تصنع أعشاشا يسكنها أولادها بعد فقسهم، ولكن هذا
العمل
لدى الحيوانات يعتبر غريزيا، فهو صادر عن غير شعور بالمسؤولية، انها لا تقوم بهذه
الأعمال لقلقها من مشكلات الغد، وانما تأتي بها طبيعيا، ومن ثم تنتفع بها في
المستقبل فالتفكير في المستقبل يتطلب فكرا مدركا واعيا، وهو من ميزات الانسان
فحسب،

ولا يتمتع به شئ من الحيوانات غيره.
هذا الفرق الكبير بين الانسان والحيوان يؤكد أنه لا بد أن تكون للانسان مواقع أكثر

بالنسبة إلى أي نوع آخر للانتفاع بها، فحياة الحيوانات هي ما تسمى حياة اليوم،
ففكرة الغد لا توجد عندها، ولكن مطالعة حياة الانسان تقتضي غدا، ولو أنكرنا هذه
الحاجة لخالفنا الطبيعة.

(١) JWN Sullivan The Limitations of Science, p ٩.

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الانسان في حياته الراهنة هي التي تجعله يفكر في حياة أفضل، وهم يرون أن هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للانسان مجتمع رفاهي

كامل. فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء.. ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الانسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر، إلى أن تقضي نهائيا على نظرية العالم الآخر.

ولكن تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة؟ التي ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا؟ يكذب هذا التوقع، فان أول ما هيا التقدم التكنولوجي للانسان أنه أتاح له وسائل عديدة، احتكرتها أيد محدودة، قامت بدورها باستغلالها، وقضت على صغار العمال والحرفيين،

وحولت تيار الثروات إلى كنوزها، وخزائنها، وجعلت من الشعب عمالا فقراء معوزين، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة التي جاءت نتيجة للتقدم التكنولوجي، في كتاب كارل

ماركس رأس المال، الذي يعتبر ضحيجا للطبقة العمالية التي عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف، ثم بدأت ردود فعل هذا الضحيج، وتبعه كفاح طويل، قامت به المنظمات العمالية، حتى تحسنت الأحوال إلى حد ما. ولكنني أرى أن التغيير الذي طرأ

على أحوال العمال ليس إلا ظاهريا، فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس،

أما السعادة الحقة، فإنه أكثر افتقادا لها من سلفه.. ذلك أن النظام التكنولوجي لم يعط الانسان أكثر من مظاهر مادية، فهو لا يملك القيم الروحية، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمأنينة القلبية، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blak) عن انسان الحضارة الحديثة:

A mark in every face I meet
Marks of weakness, marks of woe

لكل وجه ترى عليه سمات * * * فيه ضعف، وفيه ذل وحقد
لقد اعترف برتراند راسل قائلا: ان حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث (١). واليوم، كما يقول راسل، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة:

السعادة (٢)!!

انك عندما تزور نيويورك، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة امباير ستيت، التي تتكون من ١٠٢ طابقا، وهي عالية جدا، حتى أن درجة الحرارة في أدوارها العليا تكون

منخفضة
جدا بالنسبة إلى أدوارها السفلى، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع.

(١) Conquest of Happiness, p ١١.

(٢) Ibid, p ٩٣.

فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق الذي يرتفع ١٢٥٠ قدما فوق سطح الأرض، ولا يستغرق المصعد الكهربائي للصعود من أسفلها إلى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق!! وبعد مشاهدة هذه العمارات والمظاهر تذهب إلى النوادي وتشاهد الرجال والنساء يرقصون ملتصقين..

وتفكر ما أسعد هؤلاء الناس!، ثم تأوي إلى مقاعد تشاهد الرقص المثير، ولن تقضي وقتا طويلا حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك، انها

تبدو كئيبة، فتسألك دون مقدمات:

؟ أيها السائح، هل أنا قبيحة المنظر؟.

؟ انني لا أرى ذلك..

؟ ولكنني أفهم أنني فقدت روعة الجمال، أليس كذلك؟.

؟.. لا في رأيي أنك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال.

؟ شكرا أيها السائح الكريم! ولكن الشبان لا يباليون بي، ولا يواعدونني. لقد أصبحت

الحياة بالنسبة إلى مملة موحشة...

ان ما رأيته في نيويورك لم يكن الا منظرا مقتضبا من مسرحية الانسان في العصر الحديث.

لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شامخة، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها، انها أقامت مصانع تتحرك بآلات هائلة، ولكنها حرمت عمالها الراحة التي يطمحون إليها،

وهذه هي نتيجة التاريخ العلمي والتكنولوجي. فكيف بنا آذن نطمح ونتوقع عالما

يسوده

السلام والسعادة، من صنع التكنولوجيا؟!.

(ب) الضرورة الأخلاقية:

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الأخلاقية نرى أنه لا بد من الآخرة، فان التاريخ الانساني لن يكون له أي معنى بدونها.

ان فطرة الانسان تميز بين الخير والشر، والصالح والطالح، والظلم والعدل، وهذه الفطرة هي التي تميز الانسان عما سواه، ولكن ها هو ذا الانسان الذي كرمه ربه، يهدر فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها، انه يظلم بني جنسه، يقتلهم ويشردهم، ويوجه

إليهم

كل شر مستطاع..

ان الحيوانات لا تظلم فصائلها، فالأسد ليس في الأسود أسدا، والنمر ليس في العرين

نمرا.. ولكن الانسان أصبح يفترس إخوانه، حتى الأقربين منهم، مما لا يوجد له مثيل
في
قانون الغابة..

ولامرية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة في التاريخ الانساني، وأنا نقدرها حق قدرها، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان. ان المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماما مع الضمير الانساني. ولنقتبس هنا بعض الأقوال:

فولتير: ان التاريخ الانساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب (١).

هربرت سبنسر: ان التاريخ تهريج، وكلام فارغ لا جدوى منه.

نابليون: ان التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئا.

ادوارد جين: ان تاريخ الانسان لا يعدو أن يكون سجلا للجرائم، والحماسة، وخيبة الأمل.

هيكل: ان الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئا (٢).

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهي إلى كارثة أليمة؟ ان فطرتنا تقول: لا.. فدواعي العدالة والانصاف في الضمير الانساني تقتضي عدم حدوث هذا الامكان، لا بد من يوم يميز

بين الحق والباطل، ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما، وهذا مطلب لا يمكن اقصاؤه من مقومات التاريخ، كما لا يمكن ابعاده عن فطرة الانسان. ان هذا الفراغ الشاسع الذي يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضي ما يشغله، فان المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغي أن يحدث) تدل على أن مسرحا آخر قد أعد للحياة، وأنه

لا بد من ظهوره. فهذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل الحياة. واني لأتخير عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائي الإنجليزي هاردي القائلة: بأن العالم مكان للظلم والوحشية، ولكنني أصاب بحيرة أكبر عندما أرى أن هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم إلى الايمان بأن: ما ليس بموجود اليوم ويقتضيه العقل، لا بد من حدوثه غدا. إذا لم تكن هنالك قيامة فمن ذا الذي سوف يكسر رؤوس الطواغيت الطغاة؟؟ كلمة كثيرا

ما تخرج من شفتي مصحوبة بأنين مرير، عندما أطلع الجرائد، فجرائدنا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم على الأرض، والصورة التي تحملها الجرائد الينا رهيبة.. انها تتكلم عن الاغتيالات، والخطف، والنهب، والاتهامات الكاذبة، والتجارة السياسية، والدعايات

الباطلة التي تتلعب بالألفاظ. ان هذه الجرائد تخبرنا كيف نكل الحاكم الفلاني بمعارضيه الضعفاء، باسم مصالح الأمة، ودواعي الامن القومي؟! وكيف سيطر ذلك الشعب

.۲۲۰ .Story of Philosophy, Will Durant, p (۱)
.۸۷۱ .Western Civilisation, E. Menall Burns, p (۲)

علي أرض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح!! وليست هذه الجرائد الا حكايات
لمأساة

الضعيف والقوى، والسلطان والرعاى!!.

ان الأحداث التي وقعت في بلادى أخيرا، وبخاصة تلك الاغتيالات الجماعية،
وعمليات

النهب والحرق المخططة التي جرت في مناطق جبل بور، وجمشيد بور، وراؤركيلا،
وكلكتنا؟

يبدو بعدها أن المرء لا ينبغي أن يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض، سواء أمكنه
تصورها أم لا!! فان قوما يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنف)

يستطيعون؟ في نفس الوقت؟ أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية، وأشنع ألوان
الدكتاتورية، وأسوأ صور العنف، كما لم يشاهده التاريخ. وكل هذه الجرائم البشعة؟

التي تأسى لحدوثها السباع المفترسة، والذئاب الكاسرة، والخنازير الوحشية؟ قد جرت
في عهد زعيم أطلق عليه لقب: معالم الانسانية ورسول الاسلام (١)!! وليت المأساة

توقفت عند هذا الحد، فلقد ارتكبت في هذا العصر الذي ازدهر فيه النشر والإذاعة،
جرائم شنيعة، وأحداث مروعة، من نهب، وقتل، واحراق أقوام بأسرهم، ودامت

المأساة

أشهرها طويلا، بل سنين عديدة، في بلاد شاسعة جدا من الهند، والصحافة العالمية لا
تنشر

عنها شيئا ما، وقد أمحيت تماما هذه الجرائم من صفحات التاريخ، كأن لم تكن مأساة
الأمس القريب!!.

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحا للمآسى، والشيطنة، والهمجية والقرصنة، ثم لا يلقى
الظالم والمظلوم جزاءهما؟! ان عالما؟ من هذا القبيل؟ اعلان في حد ذاته عن أنه

ناقص، وهذا النقص في ذاته يقتضي ما يكمله.
(ج) مشكلة السلوك:

ولندرس هذا من ناحية أخرى. لقد شغلت مسألة هامة الذهن الانساني من أقدم
العصور، وهي

كيفية اجبار الناس على سلوك طريق الحق، فإذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد
منحوا

سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفا من
العذاب.

ولكن ما الذي يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل
والانصاف؟

ولو أننا استنجدنا القانون، واستصرخنا المحكمة، فكيف آذن يمكن أن نبليغ بهما تلك

الأماكن والجوانب التي لا تخضع للشرطة والقانون؟ ولو أننا خضنا معارك الدعاية،
وناشدنا أهل الشر أن يكفوا عن الجرائم، فمن ذا الذي ينصت إلينا؟ ويتخلى عن فائدة
يجنيها دون كلفة؟ ان رهبة عقاب الدنيا لن تنجح في قمع انحرافات الانسان، فنحن
جميعا

(١) الإشارة إلى جوهر لال نهرو، وقد جرت الأحداث البشعة التي أشار إليها المؤلف
خلال الأعوام ١٩٦١، ٦٢، ٦٤، ولم ينشر عنها شيء بفعل التآمر العالمي (المراجع).

نعرف أن الكذب، والرشوة، والمحسوبية، واستغلال النفوذ، وما إلى ذلك من الوسائل المعروفة، سوف تحول دون أي امكان للعقاب.

انه لن يفلح شئ في قمع الجرائم غير الدافع المنبعث من داخل قلب الانسان؟ الضمير، الضمير الذي لو دخل إرادة الانسان فلن يسقطه عامل خارجي أيا كان، وهذه الميزة غير

متاحة الا في عقيدة الآخرة.. فان دافعا قويا يكمن في هذه العقيدة، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل انسان. انها مصلحة يهتم بها الجميع، فالكمل رئيسا كان أم مرؤوسا، في الظلام كان أو في الضوء؟ ينطلق يفكر في أنه لا بد من يوم للقاء الله، والكمل يشعر بأن الله يراه، وسوف يحاسبه حسابا عسيرا. وهذه الأهمية الكبرى في عقيدة

الآخرة هي التي جعلت القاضي ماتيوهالوس (Matherwhalos)، وهو من كبار قضاة القرن

السابع عشر يقول:

ان القول بان الدين خدعة، هو بمثابة ابطال لجميع المسؤوليات التي تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعي (١).

الا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة!!

وانا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيرا من علمائنا الملحدين، الذين لا يعتقدون أن الآخرة أمر واقع، وقد اضطروا؟ بناء على تجارب التاريخ؟ إلى القول بأنه لا يوجد شئ غير الآخرة لمراقبة الانسان، واخضاعه لسلك طريق الحق والعدل في جميع الظروف.

لقد أنكر الفيلسوف الألماني كانت فكرة (الاله)، قائلا: (انه لا يجد أدلة شافية على وجوده). فهو ينكر الصواب النظري في الدين، ولكنه، في نفس الوقت، يضطر إلى أن يسلم

بالصواب العملي في الدين، من الناحية الأخلاقية (٢).

وفولتير أيضا لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة، ولكنه يرى:

أن أهمية الاله والحياة الآخرة عظيمة جدا، حيث انهما أساسان لإقامة المبادئ الأخلاقية.. وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بايجاد اطار أخلاقي أفضل للمجتمع. ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعا للعمل الطيب، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي (٣).

(١) Religion without Revelation, p ١١٥.

(٢) Story of Philosophy, N. Y , ١٩٥٤, p ٢٧٩.

(٣) Windelband, History of Philosophy, p ٤٩٦.



(۹۸)

ان الذين يرون أن الآخرة فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا: كيف أصبحت فكرة خيالية ذات

أهمية قصوى بالنسبة إلى واقع حياتنا؟.

لماذا لا نستطيع بدونها إقامة نظام اجتماعي سليم؟.

هل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية الكبرى في الحياة؟.

هل وجدتم مثالا ما في الكون لفكرة خيالية غير كائنة، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقية في الحياة، رغم انها لا علاقة لها بواقعنا؟!.

ان حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة، واقامتها على أسس عادلة حقيقية، هي؟ في حد ذاتها؟ تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون، ولست أبالغ إذا قلت: إن هذا

الجانب المنطقي من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية، على مستوى التحقيق المعلمي العملي..

(د) الضرورة الكونية:

ولننظر إلى هذه القضية من جهة ثالثة، تلك التي أسميها: الضرورة الكونية. لقد تكلمت في الصفحات الماضية عن وجود الاله في الكون، وقد ثبت جليا أن الدراسة العلمية

والفكرية هي التي تدعونا إلى القول بوجود اله لهذا الكون. وبقي أن نسأل: لو كانت هناك علاقة بين الاله والانسان لما كان بد من ظهورها، فمتى ستظهر هذه العلاقة جليا؟.

أما بالنسبة إلى عالم اليوم، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد، فالرجل الذي لا يؤمن بالله، يصيح قائلا: انني لا أخاف من الله، ثم هو لا يصاب بأذى، بل قد يحصل على الزعامة، ويتسلم مقاليد الحكم!!.

أما الذين يبلغون رسالات الله، فان السلطات توقف نشاطهم بحجة أنه غير شرعي. وهنالك أيضا مكاتب ومؤسسات تشغلها؟ ليل نهار؟ الدعاية لأولئك الذين يقولون: لقد ذهب صاروخنا إلى القمر ولم يتشرف بلقاء إلهكم!، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم

هذه المؤسسات، فإذا ما نهض أصحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين: انكم

رجعيون تتخبطون في الظلمات!.

يولد الأطفال، ثم يشبون، ويموتون.

تصل الشعوب إلى أوج مجدها، ثم تنقرض.

تقع الثورات، ثم تزول.



(۹۹)

تشرق الشمس وتغرب، ولكن لا تظهر آيات وجود الله. وفي هذه الحالة تطالبنا عقولنا بالايمان بوجود الله، أو انكار هذا الوجود. فلو آثرنا الايمان بالله، فلا مناص لنا من الايمان بالآخرة. فليست هناك طريق أخرى لتبيين علاقة الانسان بالإله.

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون خالقا ولكن تفسير الحياة الذي قدمه لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق ومخلوقه، كما أنه لا يحس بالحاجة إلى نهاية لهذا الكون، حاجة تدفعه إلى تقرير هذا الربط، ولست أدري كيف سيملاً (داروين) هذا الفراغ الكبير في نظريته البيولوجية؟ ان عقلي يستنكر إلها لا علاقة له بأمور الكون، ولا يشهده عباده في مظهر الخالق أبداً. وما أعجب خالق داروين؟ هذا الذي يأتي بكون عملاق هكذا، ثم ينهيه، دون إبداء الأسباب التي دفعته إلى هذا الخلق، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة!!.

اننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئاً من تفكيرنا، فسوف نجد قلوبنا تصرخ: (ان الساعة آتية لا ريب فيها..) (١).

بل اننا لو تأملنا فسرها مسرعة الينا، سوف نراها ثقيلة، وشيكة الانفجار، كأنها الوليد في بطن الحامل. وما أقرب ما تفتك بنا؟ فجأة؟ إن عشية أو ضحاها: (يسألونك عن الساعة أيا نمرسها. قل انما علمها عند ربي. لا يجليها لوقتها الا هو. ثقلت في السماوات والأرض. لا تأتيكم الا بغتة (٢)). رابعاً؟ الشهادة التجريبية

نواصل الآن بحثنا في الجانب الآخر من هذا الموضوع: (الآخرة)، وهو: هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت؟ ان أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى في حد ذاتها، فان الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون، بداهة، الحياة الأولى. والحياة، تلك التي ظهرت مرة واحدة، كيف تعجز عن إعادة نفس العملية مرة أخرى؟ هذه التجربة التي نعيشها نحن اليوم، كيف يستحيل حدوثها ثانية؟؟ انه لا شيء أكثر عداء للمنطق والعقل الانساني من أن نسلم بوقوع حادث في الحال، وننكره في المستقبل!!.

يا له من تناقض عجيب.. ان الانسان يدعي أن الآلهة التي اخترعها هو بمقدراته

(١) غافر / ٥٩.

(٢) الأعراف / ١٨٧.

الخارقة لتفسير الكون تستطيع إعادة وقائع الكون مرة أخرى، ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين، ويعبر السير جيمس جينز عن نظرية هؤلاء القوم قائلاً:

لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث. وإذا بقي كوننا على حاله

الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة)، فلا نستبعد حدوث أي شيء يمكننا قياسه

على الأرض (١).

وترى نظرية النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد، وأنها

ارتقت إلى ما هي عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة. وبناء على هذا التفسير الذي قام بوضعه داروين؟ صاحب هذه الفكرة؟ فان الزراف، الموجود حالياً، كان في بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف، ولكن هذا الحيوان، من خلال العمليات

الطويلة التي أعقبت التوالد والتناسل، والتغيرات والفوارق الصغيرة التي طرأت على الجنس الحيواني، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادي، الذي نشهده

اليوم..

يقول داروين موضحاً نظريته في الباب التاسع من كتابه:

ومن الأمور الحتمية عندي أنه؟ إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيواناً مثل الزراف (٢).

وهكذا اضطر جميع العلماء، الذين حاولوا شرح الكون والحياة، بطريق طبيعية، إلى أن يسلموا بأنه لو هيئت نفس الأحوال؟ التي ساعدت في خلق الحياة الأولى؟ فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى. ان امكان حدوث الحياة الأخرى أقوى؟ نظرية؟

من

امكان الحياة الأولى، الذي قد وقع فعلاً، وأي شيء نسلم به أنه خلق الحياة؟ مهما كان هذا الخالق؟ فلا بد لنا من الاقرار بصفة بدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد

إعادة نفس الحوادث التي أنشأها للمرة الأولى، ولا بد لنا من هذا الاعتراف، اللهم الا إذا أنكرنا الحياة الأولى (الموجودة الآن).. فنحن نفقد جميع الأسس التي قد نبني

عليها دعائم انكارنا للحياة الأخرى، عندما نسلم بوجود الحياة الأولى!.

.۳ .Modern Scientific Thought, p (۱)
.۱۶۹ .Origin of Species, p (۲)

(۱۰۱)

خامسا؟ البحث النفسي
لقد أثبت البحث النفسي، الذي ذكرناه آنفا، أن جميع أفكار الانسان؟ أو بعبارة أخرى:
جميع خلايا مخه؟ تبقى بصفة دائمة. وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الانسان ليس
بجزء من جسمه، فان جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيرا كاملا في بضعة أعوام،
ولكن

سجل اللاشعور لا يقبل أي تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين. ولو
كان
هذا السجل الحافظ كائنا في الجسم فلا أدري أين مكانه منه؟ وفي أي جزء يكمن على
وجه

الخصوص؟ ولو كان في أحد أجزاء هذا الجسم، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه
الأجزاء بعد
سنوات عديدة؟ ما أعجب هذا السجل الذي تتحطم جميع لوحاته تلقائيا، ولكنه لا
يفنى
ولا يزول!؟.

ان هذه البحوث الجديدة في علم النفس تؤكد، بصفة قاطعة، أن الوجود الانساني لا
تنحصر
حقيقته في ذلك الجسم المادي الذي يخضع دوما لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء،
بل

هو شيء آخر، غير هذا كله، وهو لا يفنى، بل يبقى مستقلا، ولا يزول.
ويعلم من هذا أيضا أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها الا في عالمنا هذا، ولو
كان هناك عالم آخر، يبدأ عند فناء جسمنا المادي، فهو يخلو تماما من هذه الحواجز
والقوانين. ان كل ما نباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج في نطاق هذه
القوانين

والحواجز. ولو كانت هناك حياة عقلية أخرى؟ كما يعتقد فرويد؟ فمعناه أن هذه
الحياة الجارية لن تفنى أبدا، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت، وسوف نكون على قيد
الحياة، فان هذا الموت لم يكن الا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية.
أما وجودنا الحقيقي؟ وهو اللاشعور، كما يقول فرويد؟ فهو حر مستقل عن هذه
الحواجز

والقوانين، ولا يطرأ عليه الموت، بل يأتي (الموت) على الجسد العنصري المادي،
ويبقى

اللاشعور؟ وهو الانسان الحقيقي؟ كما هو.. ومثاله أن حادثا وقع قبل ربع قرن، أو
فكرا خطر ببالي قبل عشرين سنة، وقد نسيت كليهما قاطبة، ومع ذلك فاني أراهما في
أحلامي اليوم. وتفسير ذلك عند علماء النفس هو أنهما كانا محفوظين في اللاشعور

بأكمل صورهما وجزئياتهما، كأنهما حدثا بالأمس!!
وقد نتساءل هنا: وأين هذا اللاشعور؟ فلو كان منقوشا على الخلايا؟ كالصوت مسجلا
على الأسطوانات؟ فان تلك الخلايا، التي سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن، أو هذه
الفكرة
قبل عشرين سنة، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة، ولا علاقة لها، في أي صورة،
بجسدي
الموجود الآن. فأين هذا الفكر من جسدي؟ تلك شهادة تثبت؟ قطعيا؟

أن هناك عالما آخر خارج أجسامنا المادية، مستقلا بذاته، ولا يفنى بفناء الجسم، أو جزء من أجزائه.

سادسا؟ البحوث الروحية

أثبتت البحوث الروحية Psychological Researches الحياة بعد الموت، على المستوى

التجريبي والعملي. ان الأمر الذي يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت بقاء محضاً لروح ما، بل انها تثبت أيضا بقاء الشخصيات التي كنا نعرفها بذاتها، قبل أن تموت!!.

ان هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الانسان من قديم الأزمان، ولكننا لم نلق الضوء عليها الا حديثا. ومن هذه الخصائص: الرؤيا، التي تعد من أقدم مميزات الجنس البشري. والحقائق المثيرة التي تعد من أقدم مميزات الجنس البشري. والحقائق التي كشفها علماء

النفس عن هذه الميزة لم يكن قد ماؤنا على علم بها.

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيرا، وأجرينا بحوثا واحصاءات في مختلف انحاء العالم

حولها، وجاءت البحوث بنتائج غاية في الأهمية.

ومن هذه البحوث ما نسميه بالبحوث الروحية.. وهي فرع من علم النفس الحديث، وهدفها

محاولة الكشف عن الميزات الانسانية غير العادية، وقد أقيم أول معهد لاجراء هذا النمط

من البحوث عام ١٨٨٢ م في إنجلترا. وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩ م، بعد أن قاموا

بمسح واسع النطاق على ١٧ ألفا من المواطنين، ولا يزال هذا المعهد موجودا باسم جمعية

البحوث الروحية. وقد انشئت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم. وأثبتت هذه المعاهد، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق، أن الشخصية الانسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي، في صورة غريبة..

كان وكيل متنقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه. جالسا في حجرته في فندق سانت

جوزيف، بولاية ميسوري، فإذا به يشعر أن أحدا يجلس عن يمينه. ويقول الرجل:

فحولت وجهي بسرعة فوجدت أنها أختي!.

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين. وبعد برهة اختفى وجه أخته. وكان الوكيل

قد
أفزعه هذا الحادث، لدرجة انه بدلا من أن يستأنف جولته، قرر مغادرة (ميسوري) إلى
بيته في بلدة (سانت لويس) وفي البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما
رآه،
وعندما وصل أثناء كلامه إلى هذه الجملة: وشاهدت على خدها الأيمن جرحا واضحا
أحمر
اللون.. فإذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة، وهي تقول: انني أنا السبب في ذلك

الجرح الذي رأيته، وقد حدث ذلك عن غير قصد مني، وقد ندمت لذلك الحادث
وآلمني
المنظر، فأزلت كل آثار الجرح، ووضعت في مكانه شيئا من البودرة! وأضافت الأم
قائلة:

ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر إلى أحد أبدا (٢).
ان هذه الوقائع وأمثالها لا تختص بأمريكا وأوروبا، وانما تحدث بكثرة في كل منطقة
من

العالم. ولكن حيث إن أكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت في تلك المنطقة من
العالم، فلا بد لنا أن نأتي بالشهادات التجريبية من تلك المناطق أيضا. ولو كان عند
بعض علمائنا شيء من الطموح والثقة بالنفس، وبدأوا هذا العمل في مناطقهم، فمن
الممكن

أن نجمع شهادات لا حصر لها في بلادنا الآسيوية والإفريقية. وأنا شخصيا على علم
بكثير

من وقائع مماثلة تدعم هذه النظرية بصفة مذهشة، ولكننا بكل أسف تعوزنا الهمم للقيام
بمثل هذه البحوث العلمية، وما يلزمها من قدرة على الانفاق، وبذل الوقت المطلوب.

ان هناك وقائع لا تحصى من هذا القبيل، وهي تؤكد وجود شخصيات معروفة بعد
موتها. ولا

سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق: أوهاما وخيالات، كما اعتاد بعض الناس
القول ببساطة في مثل هذه المسائل، فان سر الجرح على خد الفتاة الأيمن؟ وقد ماتت
منذ حقبة من الزمن؟ لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها..

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت، وهي وقائع تتعلق بأولئك الذين
نسميهم: بالمتحركين آليا Automatists (٢). ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر
عنهم

أفعال رغم إراداتهم الذاتية، وهذه الوقائع تدل على أن أرواحا؟ لأشخاص قد ماتوا؟
تسكن في أجسام هؤلاء الأحياء. ويكشف هؤلاء الناس أثناء أعمالهم عن جزئيات لا
يعرفها

الا الموتى، أصحاب الأرواح.. ثم يظهر بعد شهور وسنين أن تلك الجزئيات كانت
حقائق
واقعية..

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون في آن واحد، ولا يكون للمكتوب أية علاقة
بالقول،

كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب، الا بعد الاطلاع على ما كتبه، وهذا الواقع

يثبت أن روحاً؟ غير روحه الشخصية؟ تسكن في جسده، وهي التي تجعله يكتب (٣)

Human Personality and its Survival of Bodily Death, FWH Myers, (١)
N. Y, ١٩٠٣,
Vol, II, PP ٢٧ - ٣٠.

(٢) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارحة بأنهم: (ركبهم الجن)، فهم
مسلوبو الإرادة، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريات (المراجع).
(٣) A philosophical Scrutiny Religion, pp ٤٠٧ - ١٠.

ان كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون في قبول هذا الاستدلال، كما يقول براد. ان أي فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد امكان الحياة بعد الموت، اللهم الا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية (١).

بيد أن الاستدلال يشبه عندي أن أقول: ان التفكير استثناء مشتبه في أمره، لأن أحدا من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدق هذه الظاهرة غير الانسان!!.

ان بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس، لكونه مسألة نفسية بحتة. فلا تصلح دراسته الا في علم النفس، أما أن نبحت عنه في أقسام أخرى من العلوم. فهو بمثابة أن نطالب علمي (النبات) و (الفلزات) باثبات ظاهرة التفكير. ولا نستطيع؟ أيضا؟ أن نجعل دراستنا داخل الجسم الانساني حكما في هذه المسألة الخطيرة، وسببه أن الجزء الذي ندعي بقاءه واستمراره في الحياة؟ وهو الروح؟ لا يوجد في هذا الجزء المادي، بل في جسم آخر سواه.

وهذا هو الأمر الذي دفع الكثيرين من علمائنا إلى الاعتراف بأن الحياة بعد الموت واقع حقيقي، بعد أن قاموا بأبحاث علمية طويلة غير منحازة. وقد ألقى (البروفسور دو كاس، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون، ضوئا على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت، في الباب السابع عشر من كتابه. والدكتور دو كاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية، وانما وجد؟ أثناء بحوثه؟ شواهد كثيرة، اضطر؟ على أثرها؟ أن يؤمن بالحياة الآخرة، مجردة عن قضايا الدين. وهو يكتب في آخر الباب

السابع عشرة من كتابه قائلا:

لقد قام رهط من أذكي علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة

بقاء الروح نظرية معقولة، وممكنة الحدوث.. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد

الا على هذا النحو. ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر: الأساتذة ألفريد راسل واليس، والسير وليام كروكس، وف. و. ه مايرز، وسيزار لومبرازو، وكيل فلانماريون، والسير أوليفر لوج، والدكتور ريتشارد هوجسن، والمستر هنري سيدويك، والبروفسور هيسلوب.

ويستطرد الدكتور دو كاس قائلا:

ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت؟ التي يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة

.۲۳۵ .p ,۱۹۵۳ ,Religion Philosophy & Physical Researches, London (۱)

(۱۰۵)

دينية؟ ليس من الممكن أن تكون واقعا فحسب، وانما لعلها هي الوحيدة، من عقائد الدين الكثيرة، التي يمكن اثباتها بالدليل التجريبي. ولو صح هذا فمن الممكن أيضا أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع، بغض النظر عن الأفكار التي افترها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت، ولن نحتاج حينئذ إلى الايمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية (١).

ويكاد الدكتور دو كاس؟ بعد الوصول إلى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت، ثم الجحود بوجهتها الدينية؟ أن يكون مثله مثل الفلاح الذي يصر على أنه لا سبيل إلى الحديث بينه وبين أحد أقربائه، الذي يسكن في بلدة نائية.. فإذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا في البلدة النائية، وأعطيته السماعه.. إذا به يقول لك، بعد فراغه من الكلام: ليس من الضروري أنه كان صوت قريبي، فمن الممكن أنه كان يخرج من احدى الماكينات!.

(١) A Philosophical Scrutiny of Religion, P ٤١٢.

الباب السادس: اثبات الرسالة
من العقائد الهامة في الدين، بعد الايمان بالله، عقيدة الايمان بالرسالة، أو الوحي
والالهام ومعناها: أن الله تعالى ينزل كلامه على انسان يختاره من بين الناس، ليخبر
الناس بما يرضى الله تعالى..
وحين عجزنا عن رؤية أي خط اتصال ساخن، بين الله سبحانه وبين الرسول، أنكرناه.
لكنا

اليوم نستطيع ان نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة.
ان هناك وقائع كثيرة جدا تجري من حولنا في كل لحظة، ونحن نعجز عن ادراكها أو
سماعها، أو الإحساس بها بوساطة أجهزةتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن
يبسر

لنا ادراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها. وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على
صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك!.
ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد انها تسجل صدام الأشعة الكونية في
الفضاء!!.

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع ادراك كثير جدا من الأحداث التي لا
يمكننا

سماعها بالطرق السمعية التقليدية.

وهذه الطاقة غير العادية للسمع لا تخص الآلات العلمية الحديثة، وانما وهبها الله
لبعض الحيوانات أيضا. ومما لاشك فيه أن جهاز سماع الانسان محدود جدا، ولكن
أجهزة

بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف، فالكلب، مثلا، يستطيع أن يشم ريح الحيوان
الذي مر

من الطريق، ومن ثم استغلت الكلاب في البحث عن الجرائم والمجرمين.. فالقفل الذي
كسره

اللص يشمه الكلب المدرب، ثم ينطلق مقتفيا أثر الرائحة المعنية التي وجدها عند القفل
المكسور، وفجأة تراه يمسك باللص من بين الألوف.

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا، ولقد أثبتت البحوث في هذا

الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة الاشراق Teleathy فلو أنك وضعت حشرة

مما يطلق عليه (Moth)، أو (العثة)، وهي حشرة مجنحة؟ على نافذة مفتوحة؟ فستحدث صوتا

يسمع زوجها على مسافة بعيدة جدا، ولسوف يجيها هذا الزوج أيضا بطريقته.

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى الجندب، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريق غير

عادية، ويسمع على مبعده نصف ميل، وهو يحرك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء،

ليدعو زوجته، وهذه الزوج ترسل أيضا وهي ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه، وانما يعرفه

الجندب الذكر، ثم يلحق بها أينما كانت.

وقد أثبتت البحوث أيضا أن أبو النطيط العادي Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع، حتى أنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف قطر من ذرة الهيدروجين!.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة، تؤكد امكان وجود رسائل غير مرئية لدى ذوي الحواس الخاصة.

وإذا كان الأمر كذلك، فما وجه الغرابة في ادعاء انسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه، لا يدركه عامة الناس (؟) ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الانسان، ولكن تسجلها الآلات؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون

أخرى؟ ما هو جانب التعجب والاستبعاد؟.

ان الله تعالى؟ لحكمة يعلمها؟ يرسل رسائل بوسائل خافتة خفية إلى الانسان المختار للرسالة، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها. فليس هناك من تصادم في الحقيقة، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة، فالوحي امكان، وجدناه في شكل الواقع بعد التجربة. ***

وقد تبين أن تجارب الاشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات، وانما توجد

في الانسان بالقوة، يقول الدكتور اليكسيس كيريل (١): ان حدود الفرد في اطار الزمان والمكان هي مجرد افتراض (٢). فيستطيع عامل الاشراق أن يجعلك تنام،

وتضحك، أو تبكي، كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر، لست على علم بها انها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الاشراف وصاحبه.

(١) Man the Unknown, p ٢٤٤.
(٢) أي لا نهاية لهذه الحدود من حيث الامكان. (المعرب).

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربّه؟ اننا بعد الايمان بالله،
والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما في ذلك الاشراق، لا نجد أساسا لانكار
الوحي
والالهام.

وقد حدث سنة ١٩٥٠ أن المسؤولين في (بافاريا) رفعوا قضية ضد أحد النمساويين،
واسمه

(فرنتر ستروبييل)، بتهمة التدخل في برامج الإذاعة عن طريق الاشراق.
وكان فرنتر ستروبييل يستعرض أعماله في فندق ريجنا، بميونخ، عندما ناول أوراق لعب
الكوتشينه إلى أحد المتفرجين، وطلب اليه اختيار ورقة ما. وادعى أنه سوف ينقل اسم
تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبهما، كما هما في ذهن المتفرج، إلى المذيع الذي
كان

يقرأ الأخبار من إذاعة ميونيخ المحلية، ذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئا من
هذا!!.

بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش، هو يقول: فندق ريجنا؟ بنت البستوني وكان
الترتيب واسم الورقة صحيحين، كما أراد المتفرج.
وكان الارتعاش والرهبة واضحين في صوت المذيع، ولكنه واصل قراءة الأخبار.
استغرب

الكثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ، واتصل مئات منهم تليفونيا بالإذاعة
يستفسرون

عن السر الغامض.. فكان من الصعب عليهم ادراك علاقة الأخبار بفندق ريجنا؟ بنت
البستوني: وحضر طبيب الإذاعة للكشف على المذيع، فوجده في حالة اضطراب
خطيرة، وأدلى

المذيع بيانه قائلا: انني شعرت بصداع شديد في رأسي، ولا أعرف ماذا حدث بعد
ذلك!

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الاشراق، ومنها أن
أمواجها

تصدر من المخ وتنتشر في العالم أجمع بسرعة فائقة، ولذلك سموها بنظرية الموجة
المخية

Brain Wave Theory (١).

ونحن نقول: انه لما كان الانسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها إلى انسان آخر، على
بعد غير عادي، وبدون استعمال أي واسطة مادية ظاهرية، فلماذا تستحيل نفس العملية

بين
الاله وعباده؟ ان هذا المظهر من كفاءة قوى الانسان؟ وأمثله كثيرة لا تحصى؟ ليس إلا
قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعاني التي تربط العبد بالإله
عندما يرسل رسالاته.

- ٤٧ .Religion, Philosophy and Physical Research, C. D. Broad, pp (١)
Man the ;٤٨
.٤٩ - ٢٤٤ .Undnown, pp

ان الاشراق أمر معروف لدى الناس، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الاشراقي العظيم
بين
الاله والعباد، والذي يكون في أكمل صورته حين يبلغ درجة الوحي، وهذا الوحي لا
يعدو
أن يكون اشراقا كونيا، من نوع الاشراقات التي عهدناها في حياتنا على مستويات
محدودة.

أولاً؟ ضرورة الرسالة
وينبغي؟ بعد وضوح امكان الوحي والالهام؟ أن نبحت عما إذا كان ضرورياً أن
يخاطب
الله انسانا، ليبلغ كلامه إلى الناس؟.
ان أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذي يخبر عنه الرسول من أهم الأمور
التي
تتعلق بحياة الانسان ومصيره، والانسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق بجهوده
الشخصية، انه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كي يفهم أسرار بدء الحياة
ونهايتها، وحقائق الشر والخير، وكيفية صوغ الانسان من أجل الانسانية، وتنظيم
أجهزة
الحياة حتى تستطيع الانسانية أن تسير قدما في طريق الخير والرفاهية.. ولم تكمل هذه
الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا. فقد كشفنا عن اسرار الحديد والبترو، وتعرفنا
على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير، ولكننا عاجزون عن كشف علم الانسان، رغم أن
جهود
أعظم عقولنا العبقريّة تواصل البحث عن هذا العلم، ولم تستطع، حتى الآن، تحديد
مبادئه
وأسسه. ان هذا هو أكبر دليل على أن الانسان يحتاج إلى هدى الله من أجل أن يعرف
نفسه!.

ومن المسلم عند الانسان الجديد انه لم يفلح بعد في كشف لغز الحياة، ولكنه على
كل
حال يأمل في أن يساعده القدر يوما لرفع القناع عن هذا السر المعقد، ولا ريب أن
عجز
مجتمع العلم والصنعة عن اشباع الحاجات النفسية للانسان يؤكد الفكرة التي تقول:
اننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية، على حين تركنا العلوم الانسانية في
مراحلها البدائية، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف إلى العمل في هذا المجال،

مجال
(العلوم الانسانية) فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شىء ما، بل لجوا في ضلالهم
يعمهمون،

يقول الدكتور الكسيس كيريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم):
ان مبادئ الثورة الفرنسية، وأفكار ماركس، ولينين، لا تنطبق الا على الانسان العقلي
المثالي. ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الانسانية لم تكشف
بعد.

أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما، فهي علوم افتراضية محضة، بدون أدلة يمكن اثباتها بها (١).

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الانسان، ولكنها في نفس الوقت جعلت

المسألة أكثر تعقيدا، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة.

ويقول الأستاذ ج. و. ن. سوليفان:

ان الكون الذي كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضا وابهاما من التاريخ الفكري بأكمله،

ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى، ولكن هذه المعلومات كلها

غير مقنعة، فنحن نواجه اليوم الابهام والمتناقضات في كل ناحية (٢).

هذه الكارثة المؤسفة التي نقف أمامها، بعد بحث طويل في العلوم المادية عن سر الحياة، تدلنا على أن ادراك سر الحياة لن يتاح للانسان (٣).

ان أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة، إذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكمل صورها دون معرفة، ولذلك كان خير ما نتمنى بقبولنا أن ندركه، ولا يرضى أسمى جزء من

شخصيتنا، وهو العقل، أن يطمئن بدونه. فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة.

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى، هذا من ناحية: ولكننا، من ناحية أخرى، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها..

هذه الحالة وحدها تكفي لتبين حاجتنا الشديدة إلى الوحي، فأهمية سر الحياة. ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الانسان، يدل على أنه لا بد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضا، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الانسان، ولكنهما هينا من الخارج (٤).

ان مهمتنا، بعد التسليم بإمكان الوحي وضرورته، هي أن نبحث عن الانسان الذي يدعي أنه

نبي.. هل هو صاحب الوحي في الحقيقة؟.. لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير

من الأنبياء، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوة رسول الاسلام: سيدنا محمد بن

عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، فان نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائيا لو ثبتت

-
- (١) .Man the Undnawn, pp ٣٧.
- (٢) .Limitations of Science, p ١.
- (٣) أنظر للتفصيل كتاب الدكتور كيريل، ص ١٦ ١٩.
- (٤) سوف نبحت عن هذه المسألة بتوضيح أكثر في الفصول القادمة.

نبوته، لكونه آخر الأنبياء، ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم، ولأن نجات البشرية، أو هلاكها في معركة الحياة رهن بايمانها بهذا النبي، أو تكذيبها إياه.

لقد ولد الطفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م، وعندما بلغ الأربعين من عمره،

أعلن أن الله تعالى أرسله خاتما للنبيين، وكلفه بابلاغ رسالته إلى جميع فئات الجنس البشري، وأن من اتبعه نجا في الحياة الآخرة، ومن كذبه فهو في خسران مبين.
ان أصدااء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها، وهو ليس بصوت عادي تتجاهله

الآذان.. فهو أكبر نداء في تاريخنا يدعونا إلى تفكير دقيق، وعلينا أن ندرسه بدقة، فاما قبلناه وهو صادق، واما رفضناه لو وجدناه كاذبا... وهيهات.

ثانيا؟ مقياس الرسالة

كل فكر يمر بثلاث مراحل، حتى يصبح حقيقة علمية:

المرحلة الأولى: الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية: الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة: التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هي أن نفترضها، ثم نشاهدها وندرسها، لتبين صدقها أو كذبها، فان وجدناها صحيحة في ضوء الدراسة، قبلناها، لتصبح حقيقة علمية، وقد ينقلب

هذا الوضع، فإننا في بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها إلى نظرية، ثم نبدأ البحث في ضوئها.

وبناء على هذا الأساس فان دعوى النبوة (فرض). وعلينا أن نفتش عما إذا كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض؟ فإذا أيدته المشاهدات أصبح (حقيقة) مصدقة، يلزمنا قبولها..

ولكن ما الملاحظات التي نحتاج إليها لاختبار هذا الفرض؟.

وما المظاهر الخارجية التي تؤيد كون محمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا حقا؟.

وما الخصائص والميزات التي اجتمعت في الرسول، ولا نجد لها تفسيرا الا إذا قلنا: انه كان نبيا!.

في رأيي أنه لا بد من مقياسين لاختبار الأنبياء:

أولا: أن يكون رجلا مثاليا بصورة غير عادية، فان الذي يصطفى ليكون كليم الله،

وليكشف للانسان برنامج الحياة وسرها، لابد أن يكون أسمى شخصية في النوع الانساني،

كما لابد أن يكون حاملا مثل الحياة العليا. فإذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهي أكبر دليل على ما يقول، إذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكنا أن تتجلى

هذه الحقيقة الكبرى في حياته الذاتية، حتى تسمو به فوق سائر الانسانية، خلقا وشمائل.

ثانيا: أن يكون كلامه ورسالته مملوئين بجوانب يستحيل حصولها للانسان العادي، ولا تؤمل الا ممن ظفر بمعرفة رب الكون، بحيث لا يمكن للعامه محاكاة ما جاء به النبي من وحي الله.

اننا سوف نبحت عن الرسول في ضوء هذي المقياسين.

لقد شهد التاريخ بكل قطعية أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بسيرة غير عادية،

ومن الممكن للمتعصبين انكار اية حقيقة، مهما كانت واضحة، كما أن من الممكن للمنكرين

ادعاء أي شئ في سبيل الاستغلال، إذا كانوا غير راضين بالنتيجة، مهما كانت صادقة وبدهية! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفا من حياتنا الحديثة! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثلا ساخرا لهذا المبدأ، عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية، وأخذت الصين إزاء احتجاج الهند تتهم الهند نفسها بالعدوان!!.

وفي الخطاب الذي أرسله رئيس وزراء الصين إلى الهند، والذي أذيع نصه بدلهي في يناير

عام ١٩٦٠، ادعت الصين أن لها حقا في أرض هندية تبلغ مساحتها ٠٠٠، ٢٢٠ كم مربعا!!

ويقول رئيس وزراء الصين: ان القوات الصينية لم تتقدم الا لتدفع بالقوات الهندية المحتلة إلى الورا!!.

أليس هذا منطق التعصب والاستغلال!!.

أما الذي لا يشكو من داء التعصب، ويهئ عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع، فإنه

سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت أرقى، وأحلى حياة شهدا البشر.

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة، وهو في الأربعين من عمره، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور أخلاقي ممتاز، حتى لقبه الناس بالصادق الأمين، وكانت قريش قد أجمعت على

أنه يستحيل أن يكذب، أو يخون الأمانة. ومن الأحداث التي جرت قبل اعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد، وكانت قريش هي صاحبة الأمر، فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود في

مكانه، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة، وأوشكت السيوف أن تبرز، وكاد القوم أن

يتناحروا، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل في هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد، واليوم التالي شاهدوا أن الانسان الأول الذي دخل البيت كان محمداً، فنادوه

قائلين: هذا الأمين، رضينا (١).

اننا لا نعرف شخصية في التاريخ الانساني تمتعت بهذا الاجلال والتكريم والتقدير، وبهذه السيرة غير العادية، ثم أصبحت موضع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها. * * *

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة، وهو في غار حراء، اعتبره حادثاً غريباً لم يعهده من قبل، فرجع إلى بيته يرجف فؤاده، وقص كل ما حدث على زوجته: خديجة التي كانت أكبر منه

سناً، فقالت: يا أبا القاسم والله لا يخزيك الله أبداً، انك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

وكان أبو طالب عم النبي، قد أبي أن يؤمن، ولكنه حين علم أن ابنه علياً أسلم، قال له: أي بني: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنت بالله، وبرسول الله، صليت معه واتبعته، فقال أبو طالب: أما انه لم يدعك الا إلى خير فألزمه (٢).

وعندما جمع الناس لأول مرة بعد النبوة في رحاب جبل الصفا، سألهم: يا بطون قريش! رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ فعلت الأصوات

من كل الحناجر، وهي تقول: نعم، ما جربنا عليك كذباً!

ان هذا السجل التاريخي الممتاز لحياة الرسول قبل اعلان النبوة، ليس له مثيل في العالم، ولم يسبق ان أحرزه مثله أي شاعر، أو فيلسوف، أو مفكر، أو كاتب!! * * *

وعندما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) النبوة، لم يكن صدقه موضع شك، أو بحث مطلقاً

لدى أهل مكة، فإنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة، ولذلك لم يرمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال، بل ذهبوا يدعون أنه فقد وعيه، أو أنه شاعر أو ساحر، أو أن الجن استولت على أعصابه، وما إلى ذلك من الدعاوى التي تحفل بذكرها الكتب التاريخية، ولكن

(١) صحيح البخاري، باب ما ذكر في الحجر الأسود.

(٢) Ideal Prophet, p ٥٨، وانظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٦٥.



(۱۱۴)

هذه الكتب لا تشير إلى أية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه. بل يسجل التاريخ انه: ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه الا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته (١).

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة، صمم بعض شبان قريش على قتله، وحاصروا بيته لاغتياله، وفي تلك الساعة الخطرة الحرجة قرر الهجرة إلى يثرب، ولكنه أوصى ابن عمه

(عليا) أن يرد جميع الأمانات إلى أصحابها في الصباح!. وهذا النضر بن الحارث، وقد كان من أكبر المعارضين للنبي، وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة؟ وقف يوما، فألقى خطبة في جمع من قريش، وقال: يا معشر قريش، انه، والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه

الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفتهم وعقدهم. وقلتم: كاهن، لا والله، ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله، ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون، لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو

بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه، والله، لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكان هذا النضر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة (٢).

وكان أبو لهب عم النبي من ألد أعدائه، وقال له ذات مرة: يا محمد، انني لا أقول: انك

كاذب..، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل (٣).

ان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، كانت عامة لسائر أهل الأرض، غير مقصورة على الجزيرة العربية، ولذلك أرسل كتابات إلى ملوك البلاد القريبة، وقد تلقى إمبراطور الروم هرقل كتابا من الرسول، يدعو إلى اعتناق الدين الجديد، فأمر رجاله باحضار رجل من قوم الرسول في ديوانه (٤). وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية في بلاد.

-
- (١) سيرة ابن هشام ج ٢، ص ٩٨.
(٢) المرجع السابق ١ / ٣١٩.
(٣) الترمذي.
(٤) كان قيصر الروم هرقل حينئذ في بيت المقدس يشكر الله لغلبيه على الفرس، وقد تلقى هذا الكتاب هناك.

الشام، فجيء بهم إلى ديوان القيصر، وسألهم هرقل عمن كان أقربهم نسبا بالرسول، فأجاب

أبو سفيان: أنا أقربهم نسبا. ثم جرى حديث تاريخي هام بين هرقل وأبي سفيان،
نقتبس

هنا منه شيئا:

هرقل: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.
أبو سفيان: لا.

هرقل: هل يغدر؟.

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.
فقال هرقل: قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله.
وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد، بل كان من
خصومه،

الذين ألبوا عليه العرب، وشنوا ضده الحروب، وقال، وهو يروي هذا الحديث: والله
لولا

الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه (١).

ان التاريخ على طوله لم يشهد رجلا أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته وحياته مثلما
أدلى به خصوم رسول الاسلام.

ان هذا الواقع هو الآخر دليل في حد ذاته على حقيقة دعوة النبي العربي. وسوف أنقل
هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول:

انني لأجرؤ بكل أدب أن أقول: ان الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها، لو
كان يوحى إلى عباده فدين محمد هو دين الوحي، ولو كانت آيات الايثار، والأمانة،
والاعتقاد الراسخ القوي، ووسائل التمييز بين الخير والشر، ودفع الباطل هي الشاهدة
على الالهام، فرسالة محمد هي هذا الالهام (٢).

لقد عانى محمد (صلى الله عليه وسلم)، من صنوف الأذى، وضروب العنت
والاضطهاد عندما

بدأ دعوته، وحاربه قومه أشد الحرب وأقسامه، فوضعوا في طريق مروره الأشواك،
وصبوا

على جسمه الطاهر أكواما من النجاسة.. بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدي
صلاته،

وإذا (عقبة بن أبي معيط) يلبه بردائه بشدة حتى وقع النبي على الأرض...

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر في مهمة النبي، فاتبعوا معه أسلوبا آخر، وذلك حين
قاطعوه هو وعشيرته من بني هاشم، وأجبروهم على أن يعتزلوا الناس، فلجأوا إلى شعب

بني

(١) صحيح البخاري: كيف كان بدء الوحي.
(٢) Life of Mohammad by Abul Fadl

هاشم، ومنعوا عنهم الطعام، وحرموا التعامل معهم، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخي ثلاث سنين، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة، لسد حاجة البطن

إلى الطعام، ويروي أحد الصحابة في هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد، فغسله بالماء ووضعها على النار، ثم بلله بالماء ثانية وأكله. وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الطائف، وكانت

تبعد أربعين ميلا عن مكة، وكان يقطنها الأعيان والأثرياء من ثقيف، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول. وذهب أحدهم يقول متحديا: وهو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة،

ان كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله، كما تقول، لأنك أعظم خطرا من أراد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالأحجار، إلى أن سقط على صخرة مشخنا بالجراح، وحين

جلس ليستريح من الجراح والعنت، رموه حتى نهض مبتعدا عنهم، وهم يتابعونه بالسب والايذاء والتصفيق.. ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء، وأوى الرسول إلى حائط لعتبة بن ربيعة، فجلس في ظل كرمة، وهو جريح ملطخ بالدماء. وهذا هو الواقع الذي كان

الرسول يذكره للسيدة عائشة في قوله:
لقد لقيت من قومكم ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة (١).

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد، فقد ظل الرسول يدعو إلى الحق. حتى اجتمعت قريش على

أنه لا سبيل إلى التخلص منه الا بالقتل. وبناء على مؤامرة دبروها، أحاط عدد من رؤسائهم وشبيبتهم ببيت الرسول، وفي أيديهم سيوفهم المسلوطة، استعدادا لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم. عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح، ولكنه باذن من الله، خرج من البيت دون ان يصاب بأذى، وهاجر إلى المدينة المنورة. ثم أعلنت قريش قتالا منظما ضد النبي وأعوانه، وجروه إلى الحرب، وورطوه في

(١) نص هذا الحديث: قالت عائشة: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذا عرضت نفسي على ابن

عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجيني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علي وجهي، فلم
استفق الا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي فإذا انا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها
جبريل، فناداني فقال: ان الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث
إليك ملك الجبال... الخ؟ المراجع.

هذه الحروب زهاء عشر سنين، وقد سقطت في معاركها أسنانه الكريمة، وكسرت ربايعته، كما استشهد عدد كبير من صحابته، وعانى مع أصحابه كل ما تعانيه الشعوب الضعيفة بعد اعلان الحرب عليها.

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح، وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة، ويومها وقف أمامه ألد خصومه، لا يجدون نصيرا ولا معينا.. فهم يعرفون

كيف يعامل المنتصر المغلوبين، ولكن الذي لقبه ربه بأنه رحمة للعالمين سألهم:

؟ يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟.

؟ فقالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم.

؟ فأعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم.

اذهبوا فأنتم الطلقاء!.

ذلك، ولا شك، أعظم مثل للرحمة والعفو، وهو معجزة من معجزات التاريخ الانساني. ولو

كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ، أو لم يكن مسلما به تاريخيا، لكذبه المكذبون الذين في قلوبهم زيغ، وقالوا: أنها أسطورة من أساطير التاريخ، فلم يخلق انسان بهذه الشيم!.

وما أصدق ما قاله البروفسور بورسورث سميث:

عندما ألقى نظرة اجمالية استعرض فيها صفاته وبطولاته ما كان منها في بدء نبوته، وما حدث منها فيما بعد، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا؟ أجده أقدس الناس، وأعلاهم مرتبة، حتى أن الانسانية لم تعرف له مثيلا (١).

ان المثل الأعلى الذي ضربه النبي في حياته الكاملة، من الأخلاق العالية، والزهد في الأموال والملذات، شئ لا مثيل له في التاريخ.

لقد كان تاجرا ناجحا في مكة، وكانت زوجته السيدة خديجة من أثرى نساء العرب، ولكن كل

تجارته، وثراء زوجته، ذهبوا في سبيل الدعوة، ثم ابتلى ببلاء شديد، حتى قال مرة: لقد أخفت في الله، وما يخاف أحد (أي مثل ما أخفت)، ولقد أوديت في الله، وما يؤذى

أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم، ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، الا شئ يواريه إبط بلال (٢).

(١) Mohammad & Mohammanism, p ٣٤٠.

(٢) الترمذي عن أنس رضي الله عنه.

وما عانى النبي كل هذا الا لأجل دعوته، لقد كان من الممكن أن يعيش حياة أخرى،
تختلف
كل الاختلاف عن الحياة البائسة التي عاشها في سبيل رسالته، ولقد عرضت عليه، حين
كان
بمكة، عروض مغرية تكفل له العيش الرخي، والمجد السني، فأوفد اليه رؤساء قريش
عتبة

بن ربيعة، الذي جاء ليقول له:
يا ابن أخي، انك منا، حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب،
وانك قد
أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، فاسمع مني، أعرض عليك أمورا، تنظر
فيها،

لعلك تقبل منها بعضها. فقال له: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي: ان كنت
انما تريد، بما جئت به من هذا الامر، مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا
مالا، وإن كنت تريد به شرفا، سودناك علينا، حتى لانقطع أمر دونك، وإن كنت تريد
به

ملكا، ملكناك علينا: وان كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك،
طلبنا

لك الطب، وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل
حتى يداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال:
أقد فرغت يا أبا الوليد؟، قال نعم، قال:

فاستمع مني، فقال: أفعل... فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة (فصلت)، فلما وصل
إلى

قوله تعالى: (مثل صاعقة عاد و ثمود) أمسك عتبة على فيه، وأنشده الرحم ان يكف
(١).

وفي المدينة المنورة، كان النبي صلى الله عليه وسلم رئيسا لدولة المسلمين، وكان
يتمتع بمساعدين مثاليين، يبذلون حياتهم لأجله، ولم يعرف لهم نظراء على مدى
التاريخ،

ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه؟ حتى في آخر أيام حياته، حين أظلت رايته الجزيرة
العربية كلها؟ بقي رجلا عاديا، غير ملتفت إلى شهوات الدنيا ومغرياتها، حتى لحق
بالرفيق الأعلى.

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم: فإذا هو
مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمل بجنبه، متكئا على

وسادة
حشوها ليف.. قلت: يا رسول الله أدع الله، فليوسع على أمتك، فان فارس والروم قد
وسع
عليهم، وهم لا يعبدون الله. فقال: أو في هذا أنت، يا ابن الخطاب؟ أولئك عجلت لهم
طيباتهم في الحياة الدنيا، وفي رواية، أما ترضى عن أن تكون لهم الدنيا، ولنا
الآخرة (٢).

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣١٣ ؟ / ٣١٤ .
(٢) متفق عليه.

ومما تحكى السيدة عائشة انه كان يمر الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما توقد في أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار، فسألها عروة بن الزبير: فما كانت معيشتكم، يا خالة؟ قالت: الأسودان: التمر والماء. وقالت: وكان لنا جيران

من الأنصار لهم ربائب يسقوننا من لبنها، جزاهم الله خيرا.. وقد جاء في حديث آخر: أنها ذكرت أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بر، حتى مضى النبي صلى الله

عليه وسلم، لسبيله (١).

لقد عاش النبي هذه الحياة القاسية، رغم كونه قادرا، كل القدرة، على أن يعيش حياة النعيم والترف. وعندما انتقل إلى رحمة الله لم يورث أهله شيئا، لا دراهم ولا دنانير، ولا غنما ولا إبلا، حتى أنه لم يكتب أية وصية. بل إن النبي العظيم، الذي كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الاسلامية سوف تمتد عابرة إفريقيا وآسيا، حتى تصل إلى قلب أوربا؟ قال: نحن معاشر الأنبياء، لا نورث، ما تركنا صدقة.

ان هذه الوقائع التي أوردناها، من الايثار، والاخلاص، وسمو الأخلاق، ليست حوادث استثنائية في حياة الرسول، وانما هي حياته بأكملها، بل هي بالأحرى، صورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التي كانت تحدث في حياته المثالية، لقد ارتفع بالإنسانية إلى اسمى قمة تحلم بها، حتى أنه لو لم يوجد، لاضطر المؤرخون إلى القول: بأنه لم يوجد انسان من هذا الطراز، ولن يوجد في التاريخ.

فليس غريبا، مطلقا، أن يقال: إنه كان نبي الله، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عنادا وغرورا.

ونحن عندما نسلم بدعواه يمكننا أن نفسر حياته المعجزة. أما إذا أنكرنا نبوته، فسنفقد أي أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة، التي لم نجد لها مثيلا في التاريخ.. وقد اعترف البروفسور بوسورث سميث بهذه الحقائق، حتى أنه ليدعو البشرية كلها إلى الايمان برسالة النبي:

لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته نفس ما ادعاه في بداية رسالته. واني لأجدني مدفوعا.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٤٠٠ وما بعدها.

إلى الاعتقاد بأن كلا من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطربان، يوما ما،
إلى التسليم بأنه كان نبيا.. نبيا صادقا من عند الله (١).

أما الناحية الأخرى في قضية اثبات الرسالة المحمدية، فهي ذلك الكتاب الذي جاء به
صاحب الرسالة، مدعيا أنه منزل من عند الله تعالى.
وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام غير انساني، وأنه من
عند

الله. ولما كان البحث في هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة؟ نظرا لأهميته؟ فقد قدرنا أن
ندرسه في باب مستقل..

(١) Mohammad & Mohammanism, p ٣٤٤

الباب السابع: القرآن صوت الله
عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من الأنبياء نبي الا أعطى من
الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فارجوا
اني أكثرهم تابعا يوم القيامة (١).
ان هذا الحديث النبوي يعين جوانب بحثنا الصحيحة، فهو يقول: ان أهم وسائلنا
لمعرفة
النبي هو الكتاب الذي جاء به، مدعيا أنه من عند الله، والقرآن هو، رسالة الرسول بين
ظهرانينا، كما أنه يبرهن على صدقه.
فما الخصائص التي تبرهن على أن القرآن من عند الله؟.
انها متعددة الجوانب كثيرة، نستطيع أن نلخصها في الفصول التالية:

أولاً؟ اعجاز القرآن
أول خاصة يتنبه إليها الباحث في العلوم القرآنية هي ذلك التحدي الصريح الذي وجهه
القرآن إلى الناس كافة، منذ أربعة عشر قرناً، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة
القرآن، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدي إلى الآن. لقد أعلن القرآن،
بصوت عال، لا ابهام فيه ولا غموض:
(وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من
دون

الله، ان كنتم صادقين (٢).
انه أغرب تحد في التاريخ، وأكثره إثارة للدهشة، فلم يجرؤ أحد من الكتاب في التاريخ
الانساني؟ وهو بكامل عقله ووعيه؟ أن يقدم تحدياً مماثلاً، فان مؤلفاً مالا يمكن أن
يضع

(١) صحيح البخاري: الاعتصام.

(٢) سورة البقرة: ٢٣.

كتابا، يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله، أو خيرا منه.. فمن الممكن اصدار مثيل من أي عمل انسان في أي مجال، ولكن حين يدعى أن هناك كلاما ليس في امكان البشر الاتيان بمثله، ثم تخفق البشرى على مدى التاريخ في مواجهة هذا التحدي، حينئذ يثبت تلقائيا أنه كلام غير انساني، وانها كلمات صدرت عن صميم المنبع الإلهي Divineorigin، وكل ما يخرج من المنبع الإلهي لا يمكن مواجهة تحدياته. ***

وفي صفحات التاريخ بعض الوقائع، غر أصحابها الغرور، فانطلقوا يواجهون هذا التحدي. وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربي لبيد بن ربيعة، الشهير ببلاغة منطقته، وفصاحة لسانه، ورسانة شعره. فعندما سمع أن محمد يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات ردا على ما سمع، وعلقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تدركه الا فئة قليلة من كبار شعراء العرب، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد، ومر لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي، ولم يكن قد أسلم بعد، فأذهلته الآيات القرآنية، حتى أنه صرخ من فوره قائلاً: (والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين) (١).

(١) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج. ساروار في كتابه Mohammad The Holy Prophet ص ٤٨٨ كراتشي، وهو على هذا النحو غير مسلم، لأن لبيدا لم يسلم الا في السنة التاسعة للهجرة، حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب (أنظر: الطبقات الكبرى ٦ / ٣٣، وأيضاً ١ / ٣٠٠، ط بيروت، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٢٧٥ تحقيق الشيخ أحمد شاكر). وانما كان الذي حدث قريبا من هذا الذي ذكره المؤلف مع استبعاد رواية اسلامه، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم في الحلية ١ / ١٠٣ أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه كان في أول الاسلام يعيش في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى ما يحدث لإخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يعذبوا دونه، فرد جوار الوليد، ثم مضى إلى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة في المجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد وهو ينشدهم: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)... فقال عثمان: صدقت. فقال:

(وكل نعيم لا محالة زائل)
فقال عثمان: كذبت، نعيم أهل الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليستكم، فمتى حدث فيكم هذا؟ إلى آخر الخبر، ومفهوم هذا أن لبيدا قد بقي على

جاهليته حتى أسلم سنة تسع، ويذكر ابن قتيبة أنه لم يقل في إسلامه غير بيت واحد هو:
الحمد لله إذ لم يأتيني أجل * * * حتى كساني من الإسلام سربالا
وقيل هو قوله:
ما عاتب المرء الكريم كنفسه * * * والمرء يصلحه المجلس الصالح (المراجع)

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي العملاق ببلاغة القرآن أنه هجر الشعر، وقد قال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً: يا أبا عقيل: أنشدني شيئاً من شعرك،

فقرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران (١).

وأما الحادث الثاني فهو أغرب من الأول، وهو عن ابن المقفع، أورده المستشرق (ولاستن)

في كتابه، وعلق عليه قائلاً:

.... ان اعتداد محمد بالاعجاز الأدبي للقرآن لم يكن على غير أساس، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الاسلام (٢).

والحادث كما جاء عن لسان المستشرق، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير

القرآن الكريم في عامة الناس، فقرروا مواجهة تحدي القرآن، واتصلوا لاتهم، خطتهم بعبد الله بن المقفع (٧٢٧ م)، وكان أدبياً كبيراً، وكاتباً ذكياً. يعتد بكفاءته فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة.. وأخبرهم ان هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة، واشترط

عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج اليه خلال هذه المدة..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام، عادوا اليه، وبهم تطلع إلى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدي رسول الاسلام، وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسي الأصل، وجدوه جالسا

والقلم في يده، وهو مستغرق في تفكير عميق، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض،

بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة، كتبها ثم مزقتها.

لقد حاول هذا الكاتب العبقرى أن يبذل كل مجهود، عساه أن يبلغ هدفه، وهو الرد على

تحدي القرآن المجيد... ولكنه أصيب باخفاق شديد في محاولته هذه، حتى اعترف أمام

أصحابه، والخجل والضيق يملكان عليه نفسه، أنه، على الرغم من مضي ستة أشهر، حاول

خلالها أن يجيب على التحدي، فإنه لم يفلح في أن يأتي بآية واحدة من طراز القرآن! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته، مغلوباً مستحزياً.. (٣).

-
- (١) أنظر في هذا الخبر: الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق.
- (٢) Mohammad: His life & Doctrine, p ١٤٣.
- (٣) وردت في التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدي، غير أنهم أخفقوا اخفاقا ذريعا، ومن هؤلاء: مسيلمة بن حبيب الكذاب، وطليحة بن خويلد الأسدي، والنضر بن الحارث، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي، وأبو الطيب المتنبى، وأبو العلاء المعري، صاحب كتاب الفصول والغايات في مجازة السور والآيات، أنظر للتفصيل كتاب الرافعي: اعجاز القرآن؟ المترجم.

وهكذا لا يزال تحدي القرآن الكريم قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال، وهي خاصة

عظيمة ورائعة في صالح القرآن، تثبت، دون مرية، انه كلام من هو فوق الطبيعة. وأن انسان يتمتع بكفاءة التفكير والامعان، في حقيقة الأمر، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب.

ومما لاشك فيه أن العرب؟ وهم الذين لم يعرف لهم مثل في التاريخ: في البلاغة والبيان، حتى أطلقوا على غيرهم اسم العجم لشدة اعتزازهم ببيانهم؟ قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن، معترفين بعجزهم عن الاتيان بمثله، فلزمتهم بذلك الحجة.. ومما جاء في كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضماما) قدم مكة. وكان من أزد شنوءة، وكان

يرقى (١) من هذه الريح (الجنون ومس الجن). فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: ان محمدا

مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقية، فقال: يا محمد! اني أرقى من هذه الريح، وان الله يشفى على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول

الله: ان الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. أما بعد. قال: فقال: أعد على كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات،

قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك

هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى) (٢).

ان هناك عددا لا يحصى من الاعترافات التي أدلى بها أرباب الشعر والأدب والفكر، في شأن القرآن الكريم، سطرت في صفحات التاريخ القديم، كما أنها توجد بكثرة في تاريخ العصر الحاضر.

(١) من الرقية، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة.

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٥٩٣ حديث رقم ٨٦٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي. وبقية الحديث كما في الصحيح: قال: فقال: هات يدك أبايعك على الاسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعلى قومك، قال: وعلى قومي. قال: فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئا؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها فان هؤلاء قوم ضمام. وتفسير (ناعوس البحر) بأنه: قعره الأقصى؟ منقول عن صحيح مسلم، من إضافة شارحه، وهي

كلمة غير معروفة من كلام العرب، قال ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث ٥ / ٨١) عن أبي موسى: هكذا وقع في صحيح مسلم، وفي سائر الروايات: (قاموس البحر) أي: وسطه ولجته. أقول: ولعلها لهجة ضماد. (المراجع)

ثانياً؟ نبوءات القرآن
الجانب الثاني من عظمة القرآن الكريم يتجلى في تنبؤاته المختلفة، التي ثبتت صحتها
فيما بعد بطرق عجيبة.

ان عددا كبيرا من أذكاء الناس. ومن العباقرة. قد جرأوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم
أو غيرهم. ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقا، بل جاء يكذبها بكل
قسوة، ولقد تحفز الفرص المواتية، والأحوال المساعدة. والكفاءات العالية، وكثرة
الأعوان والأنصار، والنجاح الخارق في البداية الكثيرين؟ وهم يرون أنهم يسرون تجاه
نتائج مرضية؟ أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوي
ويكذبها دائما.. والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جاء في القرآن من التنبؤات في

حين
أنها جميعا جاءت في أحوال غير مواتية، ان هذه التنبؤات؟ وقد وقعت فعلا على
ما يحدثنا التاريخ؟ تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها. وما دمنا ندرسها في ضوء
علومنا المادية. فلن نستطيع ادراك حقائقها، إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشري.
* * *

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش في عصره، وقد دلت لفتوحاته الأولى على
أنه
سوف يكون ندا لقيصر، والإسكندر المقدوني. وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه
إلى

رأس نابليون، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر. وازداد هذا الشعور لديه. حتى أنه ترك
مستشاريه، وادعى أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض. ولكننا
جميعا نعرف النهاية التي كتبت له في لوح القدر.
سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونيه، سنة ١٨١٥، مع جحفه العظيم، ليقضي على
أعدائه وهم في الطريق. ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق دوق ولنجتون شر هزيمة
بجيش

نابليون الجبار، في ووترلو بأراضي بلجيكا. وكان (الدوق) يقود جنود إنجلترا
وألمانيا وهولندا. ولما يئس نابليون، وأيقن من مصيره المحتوم، فر هاربا من القيادة
الفرنسية متوجها إلى أمريكا ولم يكد يصل إلى الشاطئ، حتى ألقت شرطة السواحل
القبض

عليه، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية، وانتهى به القدر إلى أن
أرسل إلى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطي، هي جزيرة سانت هيلينا، ومات القائد
العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة، في ٥ مايو

.١٨٢١

* * *

والبيان الشيوعي المعروف، الذي صدر سنة ١٨٤٨، تنبأ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا)، ولكن ألمانيا، على الرغم من مضي مائة وعشرين عاماً من هذه النبوءة، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة..

ولقد كتب كارل ماركس في مايو سنة ١٨٤٩ قائلا: ان الجمهورية الحمراء تبزغ في
سماء
باريس! ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن، فان شمس الجمهورية الحمراء
البازغة لم تشرق على أهالي باريس!.

وقد قال أدولف هتلر في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونخ في ١٤ من مارس سنة
١٩٣١:

انني سائر في طريقي، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبنا لي (١). والعالم
بأجمعه يعرف اليوم أن الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو الهزيمة
والانتحار..

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة في الهند.. فقد أعلن زعيم
الشيوعيين: س. ب. جوشي، في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الهندي، الذي انعقد
في
(مدوراي) بجنوب الهند، في سنة ١٩٥٤، بأن الحزب الشيوعي سوف يحكم، مستقلا
بنفسه، في

الانتخابات العامة القادمة، في ولايات: ترارنكو؟ كوتشين (كيرالا)، ومدراس،
وآندھرا، والبنغال الغربية، وآسام. وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات
تكميلية أخرى) في هذه المدة الطويلة، ولم يستطع الحزب الشيوعي تأليف وزارة
مستقلة
في أية ولاية من ولايات الهند (٢).

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات، لا نجد غير القرآن الذي تحققت نبوءاته
حرفا حرفا. وهذا الواقع يكفي في ذاته لاثبات أن هذا الكلام صادر من عقل وراء
الطبيعة يمسك بزمام الأحوال والحوادث، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل
إلى
الأبد،

وسوف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التي أدلى بها الاسلام، وتحققت بكاملها.
والشهادتان اللتان سنذكرهما، تتعلق إحداهما بغلبة الاسلام نفسه، على حين تعلق بغلبة
الروم مرة أخرى..

(أ) عندما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده، وكان
على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد:

(١) p (A Study of History (Abridgment) .٤٤٧

(٢) تمكن الحزب الشيوعي من تأليف وزارة ائتلافية في كيرالا في الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧، كما تمكنت الجبهة المتحدة في البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية في الانتخابات التكميلية التي أجريت في الولاية في ١٩٦٩، وكان الشيوعيون يتمتعون بالأغلبية في الجهة المتحدة. (المترجم)

أولاهها: القبائل المشركة، بعد أن أصبحوا أعداء حياته.
وثانيتهما: الرأسمالية اليهودية.

وثالثتها: أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم، من داخل معاقلهم.

وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات: قوة المشركين، والرأسمالية اليهودية، والطابور الخامس. وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار، وجماعة أسلمت من العبيد. ومما لاشك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبي. وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما، تكافح وتناضل، حتى أصبحت الأمور غاية في السوء،

واضطر النبي وأصحابه أن يهاجروا إلى جهات مختلفة، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة، وهم في أشد حالات العوز والفقر، بعدما تركوا ثرواتهم في مكة؟ موطنهم الأصلي. ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوي،

حيث لم تكن لديهم بيوت، وكانوا ينامون على صفة في فناء المسجد النبوي، فأطلق عليهم: أهل الصفة. ومما روي في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام، الذين عاشوا على الصفة، بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابي. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من

يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه، مخافة أن تبدو عورته..

وعنه (أبي هريرة) رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيتني أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها، فيقول الناس: انه مجنون، وما بي جنون، ما بي الا الجوع!.

وفي هذه الحالة البائسة، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم، مكشوفين في عراء المدينة المنورة، خائفين، يترقبون الأعداء من كل جانب، مخافة أن يتخطفوهم في أي وقت، في هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى:
(كتب الله لأغلبن أنا ورسلي (١)).

(١) المجادلة / ٢١.

(١٢٩)

وقال أيضا:

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون (١)). ولم تمض على هذه البشرية أيام طويلة، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت

أقدامهم، فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة، والعدة، والعتاد.

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات في ضوء المصطلحات المادية، إلا أن نسلم بأن صاحب

هذا الاخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه، وانما كان خليفة عن الله، فلو أنه كان انسانا عاديا لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ. وكما قال البروفسور (ستوبارت) انه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الانساني بأكمله يقارب شخصية محمد..

وهو يضيف قائلا:

الأ.. ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية، فلن نجد فيه اسما منيرا هذا النور، وواضحا هذا الوضوح، غير اسم النبي العربي (٢).

ان هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلا من لدن الحق تبارك وتعالى. وقد اعترف السير وليام ميور، ذلك العدو اللدود للإسلام، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة، حين قال:

لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه في التراث، وكان يثق بانتصاره ليل نهار، مع حفنة من الأنصار والأعوان، رغم أنه كان مكشوفاً عسكرياً من كل ناحية، وبعبارة أخرى: كان يعيش

في عرين الأسد، ولكنه أظهر عزيمة جبارة، لا نجد لها نظيراً غير ما ذكر في الإنجيل، من

أن نبيا قال لله تعالى: لم يبق من قومي الا أنا (٣)!.

(ب) أما النبوءة الثانية التي وردت في القرآن، فهي الاخبار بغلبة الروم على الفرس. وقد جاء في أول سورة الروم قوله تعالى:

(١) الصف / ٨ و ٩.

(٢) Islam & Its Founder, p ٢٢٨.

(٣) Life of Mohammad, p ٢٢٨ وربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن حكاية على

لسان موسى عليه السلام: (رب اني لا أملك الا نفسي وأخي؟ المائدة / ٢٥ (المراجع).

(١٣٠)

(بسم الله الرحمن الرحيم. ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون

في بضع سنين)

كانت الأمبراطورية الفارسية تقع شرقي الجزيرة العربية، على الساحل الآخر للخليج
العربي، على حين كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من غربي الجزيرة على ساحل
البحر

الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود. وقد سميت الأولى؟ أيضا؟ بالامبراطورية
الساسانية، والأخرى بالبيزنطية. وكانت حدود الامبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة،
في شمال الجزيرة العربية. فكانتا أقوى حكومتين شهدتهما ذلك العصر.

ويبدأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية؟ كما يرى المؤرخ جبن؟ في القرن الثاني بعد
الميلاد، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية في العالم.
وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى (١).
وليس

يغني كتاب من الكتب التي ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى، ولكن
يمكن اعتبار

كتاب المؤرخ ادوارد جبن: تاريخ سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية (٢) أكثرها
تفصيلا وثقة، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا
هنا.

اعتنق الملك قسطنطين الدين المسيحي عام ٣٢٥ م، وجعله ديانة البلاد الرسمية،
فأمنت

بها أكثرية رعايا الروم. وعلى الجانب الآخر، رفض الفرس؟ عباد الشمس؟ هذه الدعوة.
وكان الملك الذي تولى زمام الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي
هو موريس، وكان ملكا غافلا عن شؤون البلاد والسياسة، ولذلك قاد جيشه ثورة
ضده،

بقيادة فوكاس Phocas وأصبح فوكاس ملك الروم، بعد نجاح الثورة، والقضاء على
العائلة

الملكية بطريقة وحشية، وأرسل سفيرا له إلى إمبراطور إيران كسرى أبرويز الثاني،
وهو ابن أنو شيروان العادل.

وكان كسرى هذا مخلصا للملك موريس، إذ كان قد لجأ إليه عام؟ ٥٩٠ ٥٩١ م،
بسبب

مؤامرة داخلية في الإمبراطورية الفارسية، وقد عاونه موريس بجنوده لاستعادة العرش.
ومما يروى أيضا أن كسرى تزوج بنت موريس، أثناء اقامته ببلاد الروم، ولذلك كان

يدعوه بالأب.

(١) Western Civilization, p ٢١٠.
(٢) The History of The Decline and Fall of the Roman Empire, By Edward Gibbon

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم، غضب غضبا شديدا، وأمر بسجن السفير الرومي، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة.
وأغار كسرى أبرويز على بلاد الروم، وزحفت جحافلها عابرة نهر الفرات إلى الشام. ولم يتمكن فوكاس من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي أنطاكية والقدس، فاتسعت حدود الإمبراطورية الفارسية فجأة إلى وادي النيل. وكانت بعض الفرق المسيحية؟
كالنسطورية واليعقوبية؟ حاقدة على النظام الجديد في روما، فناصرت الفاتحين الجدد، وتبعها اليهود، مما سهل غلبة الفرس.

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الإفريقية، يناشدونه انقاذ الأمبراطورية، فأرسل الحاكم جيشا كبيرا بقيادة ابنه الشاب هرقل، فسار بجيشه في الطريق البحرية، بسرية تامة... حتى أن فوكاس لم يدر بمجيئهم الا عندما شاهد الأساطيل، وهي تقترب من السواحل الرومانية، واستطاع هرقل؟ دون مقاومة تذكر؟ أن يستولي على الإمبراطورية، وقتل فوكاس الخائن.
بيد أن هرقل لم يتمكن؟ رغم استيلائه على الإمبراطورية، وقتله فوكاس؟ من إيقاف طوفان الفرس.. فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبها، لم يعد العلم الصليبي يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى، بل علتها راية الفرس: درفش كاوياني!! وتقلصت الأمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم القحط، وفشت الأمراض الوبائية، ولم يبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق. وكان الشعب في العاصمة خائفا يترقب ضرب الفرس للعاصمة، ودخولهم فيها، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة، وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة.
وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية.. فبدءوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠،٠٠٠ من المسيحيين المسالمين، وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا

الناس على عبادة الشمس والنار، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه إلى المدائن.
ويقول المؤرخ جين في المجلد الخامس من كتابه:
ولو كانت نوايا كسرى طيبة في حقيقة الأمر، لكان اصطاح مع الروم، بعد قتلهم
فوكاس، ولاستقبل هرقل كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته موريس، بأحسن
طريقة، ولكن أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب. (١).

(١) كتاب جين / مجلد / ٥ ص ٧٤.

ويمكن قياس الهوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه كسرى إلى هرقل، من بيت المقدس، قائلاً:
من لدن الاله كسرى، الذي هو أكبر الآلهة، وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغافل:

هرقل: انك تقول: انك تثق في إلهك! فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يدي؟!
واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة، وقرر العودة إلى قصره الواقع في قرطاجنة على الساحل الإفريقي.. فلم يعد يهمله أن يدافع عن الإمبراطورية، بل كان شغله الشاغل انقاذ نفسه. وأرسلت السفن الملكية إلى البحر، وخرج هرقل في طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختياري.

وفي هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح، ونجح في اقناع

هرقل بالبقاء، وذهب هرقل مع الأسقف إلى قربان سانت صوفيا يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت الا مع الشعب الذي اختاره الله له.
وبإشارة من الجنرال الإيراني سين (Sain) أرسل هرقل سفيرا إلى كسرى طالبا منه الصلح، ولكن لم يكد القاصد الرومي يصل إلى القصر، حتى صاح كسرى في غضب شديد: لا

أريد هذا القاصد! وانما أريد هرقل مكبلا بالأغلال تحت عرشي، ولن أصالح الرومي حتى يهجر الهه، الصليبي، ويعبد الشمس آلهتنا! (١).

وبعد مضي ستة أعوام على الحرب، رضى الإمبراطور الإيراني أن يصالح هرقل، على شروط

معينة، هي أن يدفع ملك الروم:
ألف تالنت (٢) من الذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب (٣) من الحرير،
وألف جواد،
والف فتاة عذراء.

ويصف جبن هذه الشروط بأنها مخزية دون شك، وكان من الممكن أن يقبلها هرقل، لولا المدة القصيرة التي أتاحت له لدفعها من المملكة المنهوبة، والمحدودة الأرجاء، ولذلك أثر أن يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة، ضد أعدائه.

(١) (ص؟؟ ٧٦ ج ٥).

(٢) Talent، ميزان يوناني قديم، حوالي ستة وعشرين كيلو جراما، لدى الأثينيين، وقد

يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التي تزنه؟ المراجع.
(٣) الثوب: ثلاثون مترا من القماش تقريبا؟ المراجع.

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث، فقد سيطرت على شعب

العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية؟ وهي مكة المكرمة؟ مشكلة مماثلة: كان الفرس مجوسا من عباد الشمس والنار، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح، وبالوحي، وبالرسالة، وبالله تعالى. وكان المسلمون مع الروم؟ نفسيا؟ يرجون غلبهم على الكفار والمشركين، كما كان كفار مكة مع الفرس، لكونهم من عباد المظاهر المادية. وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزا خارجيا للصراع الذي كان يدور بين أهل الاسلام وأهل الشرك في مكة. وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي هي نفس مآل صراعهما الخارجي. فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م. واستولوا

على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين، قائلين: لقد غلب إخواننا على إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم، إذا لم

تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد!! وكان المسلمون بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم

المادية، وفي تلك الحالة البائسة، صدرت كلمات من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم:

(بسم الله الرحمن الرحيم. ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض. وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله،

ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم. وعد الله، لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون).؟ الروم: ١ ٦.

وتعليقا على هذه النبوءة يكتب جبن:

في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية (١).

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال،

ومن بيده قلوب الناس وأقذارهم، ولم يكد جبريل يبشر النبي بهذه البشرى، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية!!.

ويرويه جبن على النحو التالي:

انها من أبرز البطولات التاريخية، تلك التي نراها في هرقل. فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام في السنين الأولى

والأخيرة من حكومته، كان يبدو كما لو كان متفرجا أبله، استسلم لمصائب شعبه،
ولكن
الضباب

(١) ص؟ ٧٤، المجلد ٥.

الذي يسود السماء ساعتى الصباح والمساء، يغيب حيناً من الوقت لشدة شمس الظهيرة، وهذا

هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول أرقاديوس (١) القصور إلى قيصر ميدان الحرب (٢) فجأة، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس.

وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة، تبياناً لأسرار هذه اليقظة والنوم، وبعد هذه القرون التي مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية، فقد انقطع عن كافة الملذات، حتى أنه هجر ابنة أخته مارتينا؟ التي تزوجها لشدة هيامه بها، رغم أنها كانت محرمة عليه (٣).

هرقل؟ ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة؟ وضع خطة عظيمة لقهر الفرس، وبدأ في تجهيز العدة والعتاد، ولكن رغم ذلك كله، عندما خرج هرقل مع جنوده، بدا لكثيرين من سكان

القسطنطينية أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد بحريته للغارة على الفرس من

الخلف. وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى أرمينيا، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً في نفس الميدان الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس، لما زحف على أراضي مصر

والشام. ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة، فلابدوا بالفرار. وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً في آسيا الصغرى، ولكن هرقل فاجأهم بأساطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمة فادحة، وبعد احراز هذا النصر الكبير عاد هرقل إلى عاصمته القسطنطينية عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars)، واستطاع بنصرتهم

أن يسد سيل الفرس عن عاصمتهم.

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣،

٦٢٤، ٦٢٥ م. واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر

الأسود، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية، نتيجة هذه الحروب،

وأصبح هرقل في مركز يسمح له بالتوغل في قلب الإمبراطورية

-
- (١) أرقاديوس (؟ ٣٧٧ ٤٠٨ م)، أحد أباطرة الرومان، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول، تولى العرش سنة ٣٩٥ م. واشتهه بالجبن؟ المراجع.
- (٢) قيصر أو سيزار (؟ ١٤٤ ١٠١ ق.م). قائد وسياسي رومي عظيم.
- (٣) ص؟؟ ٧٦ ٧٧، المجلد الخامس.

الفارسية، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية؟ تلك الحرب التي خاضها الفريقان في نينوى على ضفاف دجلة في ديسمبر عام ٦٢٧ م. ***

ولما لم يستطع كسرى أبرويز مقاومة سيل الروم، حاول الفرار من قصره الحبيب دستكرد، ولكن ثورة داخلية نشبت في الإمبراطورية، واعتقله ابنه شيرويه، وزج به في سجن داخل القصر الملكي، حيث لقي حتفه، لسوء الأحوال في اليوم الخامس من اعتقاله،

وقد قتل ابنه شيرويه ثماني عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه. ولكن شيرويه هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، حيث قتله

أحد أشقائه، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام. ولم يكن من الممكن، أو المعقول في هذه الأحوال السيئة، أن يواصل

الفرس حربهم ضد الروم... فأرسل قباد الثاني ابن كسرى أبرويز الثاني يرجو الصلح، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، كما أعاد الصليب المقدس، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير، خارج العاصمة، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون (١)!! ***

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم في مدته المقررة، أي في أقل من عشر سنين، كما هو المراد في لغة العرب من كلمة: بضع!. وقد أبدى جبن حيرته وأعجابه بهذه النبوءة، ولكنه كي يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى. يقول جين:

وعندما أتم الإمبراطور الفارسي نصره على الروم وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر، من

مكة دعاه إلى الإيمان بمحمد، رسول الله، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة، وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب، قال: سوف يمزق الله دولته تمزيقا، وسوف يقضي على

قوته.

ومحمد، الذي جلس في الشرق على حاشية الامبراطوريتين العظيمتين، طار فرحا، مما سمع

عن تصارع الامبراطوريتين وقتالهما، وجرؤ في ابان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة

(۱) جین: ص؟ ۶۴، ج؟ ۵.

(۱۳۷)

أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية اليوم بعد بضع سنين. وفي ذلك الوقت، حين ساق الرجل هذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن الأعوام الاثني عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشي بنهاية الإمبراطورية الرومانية (١)..

بيد أن جميع مؤرخي الاسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التي وجهها النبي إلى كسرى أبرويز، لأن تلك الرسالة انما أرسلت في العام السابع من الهجرة، بعد صلح الحديبية، أي عام ٦٢٨ م، في حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت

بمكة عام ٦١٦، أي قبل الهجرة بوقت طويل، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثني عشر عاماً (٢).

ثالثاً: القرآن والكشوف الحديثة

والميزة الثالثة التي سوف أدرسها في هذا الباب للإبانة عن صدق القرآن وحقيقته، هي أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة، لم يتمكن أحد من اثبات

أية أخطاء علمية فيه، ولو أنه كان كلاماً بشرياً لكان هذا ضرباً من المستحيل. ***

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين، وقد ذهب اثنا عشر من

هؤلاء الطلبة إلى كاهن كنيسة بركلي طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحي في أيام الأحد، وقالوا له بكل صراحة: اننا غير راغبين في اعتناق المسيحية، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية، واختار القسيس عالماً في الرياضة والفلك، هو البروفسور بيتر و. ستونر، للتدريس لهؤلاء الشبان.

وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحي!!

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش، فلنسمعها من الأستاذ نفسه:

لقد كان السؤال الأول أمامي: ماذا أقول لهم عن الدين؟ انهم لا يؤمنون بالإنجيل اطلاقاً، وتدریس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتي بفائدة ما، وفي ذلك الوقت تذكرت أنني أثناء دراستي كنت ألاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين

في

الإنجيل، ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام امام هذه الجماعة من الشبان. وكنا؟ أنا والطلبة؟ نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء في هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء، وكنا نشعر

(١) المرجع السابق، ص ٧٣ ٧٤.
(٢) أنظر:؟ Encyclopaedia of Religion and Ethics ١٠ / ؟ ٥٤٠ ٥٤٥.

كذلك أن أفكار الناس في زمن موسى ستبدو لغوا باطلا، لو درسناها في ضوء
معلومات

العصر الحاضر.

وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول
ما جاء في هذا السفر، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة. وعند
انتهاء

الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا اليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية،
وقد أقرروا أنه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله (١)..

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر:

لقد غشى على الأغوار ظلام (٢)

وهذا هو أحسن تصوير للحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت، كما عرفناها
من العلوم

الحديثة، فكان سطح الأرض حارا جدا، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة، ولم يصل
النور

إلى سطح الأرض، لأن مياه بحارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة، في الفضاء،
وكان ظلم

حالك يسود الأرض.

اننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية، مثل القرآن الكريم، ولذلك توجد
فيهما قبسات من العلم الإلهي، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت، وطراً فارق كبير

بين

الإنجيل الحقيقي وإنجيل هذا العصر، بعد مضي ألفي عام حافلة بعمليات الترجمة من
لغة

إلى أخرى، ثم بأعمال التحريف البشري Human Interpolation الذي أصاب
النسخة الإلهية

أكثر ما أصاب، على حد تعبير العالم الأميركي كريسي موريسون (٣).

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها، نتيجة لما حدث، فقد أرسل الله تعالى
طبعة

جديدة من كتابه إلى البشر، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم وهو يحمل، من أجل

صحته

وكماله، كل الميزات والخصائص التي لا توجد منها سوى لمحات في الكتب القديمة.

-
- (١) The Evidence of God, PP ١٣٧ - ٣٨.
- (٢) تقول الترجمة العربية للتوراة (المنقولة عن اليونانية): وكانت الأرض خربة
وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة. الإصحاح:؟ ١ (المراجع).
- (٣) Man Does not Stand Alone, p ١٢٠، ومن الثابت أن الأناجيل لم تكتب في حياة
المسيح، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبي البابلي
(؟ ٥٨٦ ٥٣٨) ق. م. (المراجع)

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلا ثالثا من أدلتي على صدق القرآن الكريم، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة، ولكن أحدا من الناس لم يستطع ابطال شئ مما جاء به، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر، لعد ذلك ضربا من ضروب الإحالة. ***

نزل القرآن في عصر لم يكن الانسان يعرف فيه عن الطبيعة الا القليل النادر، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء، وأن الأرض مستوية، كالفراش، وأن السماء سقف الأرض، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء، أو أنها قناديل معلقة في الفضاء! وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني البقرة الأم، وهي حين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على البسيطة (١). وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك، وأن الأرض تدور حولها، إلى أن جاء (كوبرنيك) (١٤٧٣ / ١٥٤٣ م)، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس. ***

وهكذا تقدم العلم رويدا رويدا، إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الانسان، فكشف عن أسرار كثيرة. والآن لا نجد جزءا ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم، وشعب العلم المختلفة، الا وقد تغيرت نظرتنا اليه كلية، وثبت بطلان عقائد العصر القديم. ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام انساني تدوم صحته كليا... لأن الانسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره، انه سوف يسرد ما وجدته في زمنه، سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور. ولذلك لا نجد كتابا مضى عليه حين من الدهر الا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه، نظرا إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية! فهو حق وصادق في كل ما قال، كما كان في القرون الغابرة. ولم يطرأ على مقاله أي تغير رغم مضي قرون

وعصور
طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علما، وهو
يعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز
الزمان والمكان والأحوال. ولو كان هذا الكلام صادرا عن بشر محدودي النظر والعلم
لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة، كما يحدث لكل كلام انساني في مستقبله.

(١) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك في أوساط العوام وأشباه المتعلمين في شرقنا
العربي، وان كان تيار المعرفة العامة الآن يقضي على مثل هذه الخرافات؟ (المراجع).

ان المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أي من علومنا وفنوننا الحديثة. ولكن حيث إنه يخاطب الانسان في حقيقة الأمر، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان، وهي مسألة دقيقة، وموقف جد خطير.. لأن المرء حين يكون

جاهلا، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة؟ ولو اجمالا؟ فلا بد أن يكبو في حديثه، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق!.

وعلى سبيل المثال: قال أرسطو استدلالا على أسبقية الرجل على المرأة: ان فم المرأة يحوي أسنانا أقل عددا من أسنان الرجل!! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم

الأجسام، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم، فان عدد الأسنان سواء لدى الرجل

والمرأة. ولكن من المدهش حقا أن القرآن؟ حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى؟ لا يحتوي كلمة ما أثبت العلم فيما بعد، أنها من صنع رجل جاهل بذلك

الموضوع، وهذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة، وهو على معرفة تامة بكل شئ

على حين لم يكن أحد يعلم شيئا، وهو يعلم أيضا كل ما يجهله البشر في هذا العصر، مع تقدم العلوم..

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي

لم تعرف الا في عصرنا هذا، وان كانت احاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها.

ويجب ان أقول، تمهيدا لهذا البحث: ان مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة

مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث، فتوفرت

لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع. ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا

صدق القرآن، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن،
وانني لعلى يقين راسخ بان الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر ايضاحا لإشارات
القرآن،
وأكثر بيانا لمعانيه الكامنة.

تقسيم آيات القرآن
ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين:
الأول: ما عرف عنه الانسان؟ حتى ذلك العصر؟ أمورا جانبية وسطحية.
والثاني: ما لم يعرف عنه ذلك الانسان شيئا، مطلقا.

ان هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية، وكانت معرفتهم

هذه ناقصة جدا بالنسبة إلى المعرفة التي أتاحت للانسان اليوم، بفضل الاختراعات الحديثة. وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى، فهو لم يكن كتابا في العلوم والهندسة، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول

ما جاء في القرآن، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقي من نزول القرآن، وهو اصلاح

العقل الانساني وتزكيته. فمن اعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم، قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم، على حين أحاطت

بكشفوف العصر الحديث!.

النوع الأول

(١) ذكر القرآن الكريم قانونا خاصا بالماء في صورتين: هما الفرقان والرحمن. وجاء في
السورة الأولى:

(وهو الذي مرج البحرين. هذا عذاب فرات، وهذا ملح أجاج. وجعل بينهما برزخا
وحجرا
محجورا (١).

وأما الآية التي وردت في السورة الأخرى فهي تقول:
(مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان).

ان الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الانسان منذ أقدم العصور، وهي أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد فماء أحدهما لا يدخل (أي لا يذوب) في الآخر. وهناك، على سبيل المثال، نهران يسيران في تشاتغام بباكستان الشرقية إلى مدينة أركان، في بورما، ويمكن مشاهدة النهرين، مستقلا أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطا يمر بينهما، حدا فاصلا، والماء عذب في جانب، وملح في جانب

آخر. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث

المد البحري، ولكنهما لا يختلطان، ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج. وهكذا شاهدت

عند ملتقى نهري الكنج والجامونا، في مدينة الله آباد، فهما رغم التقائهما لم

تختلط مياههما، ويبدو أن خيطا فاصلا يميز أحدهما من الآخر (٣).
ان هذه الظاهرة، كما قلت، كانت معروفة لدى الانسان القديم.. ولكننا لم نكشف

(١) الفرقان / ٥٣.

(٢) الرحمن / ٢٠ ٢١.

(٣) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، قبل بناء السد العالي؟
(المراجع).

قانونها الا منذ بضع عشرات من السنين. فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانونا

ضابطا للأشياء السائلة، يسمى قانون المط السطحي Surface Tension، وهو يفصل بين

السائلين، لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله

في مجاله. وقد استفاد العلم الحديث كثيرا من هذا القانون، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: (بينهما برزخ لا يبغيان). وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين

القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة، ونستطيع، بكل ثقة، أن نقول: ان المراد

من البرزخ انما هو المط أو التمدد السطحي، الذي يوجد في الماءين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

ويمكن فهم هذا المط السطحي بمثال بسيط، وهو: أنك لو ملأت كوبا بالماء، فإنه لن يفيض

الا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدرا معينا.. والسبب في ذلك أن جزيئات السوائل عندما

لا تجد شيئا تتصل به فوق سطح الكوب، تتحول إلى ما هو تحتها، وعندئذ توجد غشاوة

مرنة Elastic Film على سطح الماء، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن

الكوب لمسافة معينة، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فإنها لن

تغوص! وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي، الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت،

والذي يفصل بين الماء العذب والملح.***

(ب) وجاءت في القرآن بيانات مماثلة، وعلى سبيل المثال:

(الله الذي رفع السماوات، بغير عمد ترونها)

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم، فإنه كان يشاهد عالما كبيرا قائما بذاته في الفضاء، مكونا من الشمس والقمر والنجوم، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته، التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي، بيد أن هنالك عمدا غير مرئية، تتمثل

في قانون الجاذبية Gravitation Pull، وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء

في أمكنتها المحددة.

(ج) وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم:

وكل في فلك يسبحون

وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك تبتعد عن أمكنتها بعد وقت

(١) الرعد / ٢.

(٢) يس / ٤٠.

معين. ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبا جديدا، فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من السباحة لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف!.

(د) وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار:

يغشى الليل النهار، يطلبه حثيثا

ان هذه الآية الكريمة تشرح للانسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار.. ولكنها تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محوريا، وهو الدوران الذي يعتبر سبب مجيء الليل والنهار، طبقا لمعلوماتنا الحديثة.

وسوف أذكر القراء؟ هنا؟ بأن من بين المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الروسي جاجارين، بعد دورانه في الفضاء حول الأرض: أنه شاهد تعاقبا سريعا Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس.

وهناك بيانات كثيرة جدا من هذا القبيل في القرآن الكريم..

النوع الثاني من الآيات

وأما النوع الثاني من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئا ما على الاطلاق.

وقد تناول القرآن تلك الموضوعات، كاشفا الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية، ثبت صدقها

بعد الدراسات الحديثة، وسوف أعرض في الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع

العلوم الحديثة.

أولا: علم الفلك:

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادي ونهايته، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الانسان الجديد قبل قرن من الزمان.. أما الانسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء على في القرآن الكريم.

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالي:
(أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما (١).
أما عن نهاية الكون، فهو يقول:
(يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) (٢).
فالكون، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضما و متماسكا (الرتق: منضم الأجزاء)، ثم بدأ يتمدد في الفضاء، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى في حيز صغير. وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون، فقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون، إلى أن المادة كانت جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن، كثيف، متماسك. وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل
..... سنة على الأقل، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها. ونتيجة لهذا
أصبح تحرك المادة أمرا حتميا، لا بد من استمراره، طبقا لقوانين الطبيعة، التي تقول:
ان قوة الجاذبية في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيا بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة).
ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ١٠٠٠، ١ مليون سنة ضوئية، في أول الأمر. وقد أصبحت هذه الدائرة الآن، كما يقول البروفسور ايدنجتون: عشرة أمثال بالنسبة إلى الدائرة الحقيقية. وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف. وكما يقول البروفسور ايدنجتون:
ان مثال النجوم والمجرات: كنفوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط، وهو ينتفخ باستمرار، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية، في عملية التوسع الكوني (٣).
وأما الأمر الآخر، فقد ثبت لنا صدقه، كما ورد في القرآن. فكان الانسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأي العين، ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض وهي في حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية.
ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد، بل عرفنا أيضا أن تلك الأجسام والأجرام التي كنا نشاهدها في قديم الزمن، وكنا نحسبها كاملة وسالمة، أكثرها يحتوي على فضاء خال.

(١) الأنبياء / ٣٠.

(٢) السابقة / ١٠٤.

(٣) The Limitations of Science, p ٢٠.

وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم وسيارات كثيرة. ومن أمثلته نظام الذرة. فنحن نشاهد الفضاء الخالي في النظام الشمسي، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء النظام النوري لصغر حجمه المتناهي.. حتى أنه

يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام (١). ومعنى ذلك أن كل شيء لو بدا متماسكا؟ يحوي حيزا

من الفضاء في داخله. ومثاله: أننا لو جردنا الفضاء أو المكان Space من الذرات المادية في الجسم الانساني، ذات الستة الأمتار، فلن نجد الا كمية قليلة جدا من المادة، تكاد تكون متناهية الوجود.

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro – Physicists) أننا لو طوينا كل شيء

في الكون بدون أن نترك للفضاء مكانا، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفا من حجم الشمس!!

ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الانسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين

من السنين الضوئية عن النظام الشمسي.***

؟ ٣ لقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم، إلى أنه لابد في المستقبل القريب؟ وطبقا لقانون دوران الأجرام السماوية؟ أن يقترب القمر من الأرض، حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء (٢). وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على

نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار. فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠،٠٠٠ ميلا، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يوميا، حيث

ترتفع فيها أحيانا أمواج يبلغ طولها ستين مترا، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات!!.

ان المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماما لصالح أهل الأرض. ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفا من الأميال؟ على سبيل المثال؟ فسوف يحدث طوفان شديد في

البحار، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة، وسوف يغرق كل شيء، حتى لتتحطم

الجبال من شدة تموج البحار، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من

وطأة
الجاذبية!!
ويرى علماء الفلك أيضا أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين،
حتى
وصلت إلى بعدها الحالي من القمر، بناء على قانون الفلك، وهذا القانون هو نفسه
سوف
يأتي بالقمر قريبا من الأرض مرة أخرى.. ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل

(١) أنظر التفصيلات من الذرة في الباب الرابع من هذا الكتاب.
(٢) Man Does not Stand Alone, p ٢٤.

بليون سنة (١). وعندئذ سوف ينشق القمر، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض في صورة حلقة.
أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة في القرآن الكريم،
حول انشقاق القمر، حين تقترب القيامة (٢)؟
اقرأوا قوله تعالى:
(اقتربت الساعة وانشق القمر، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٣)).

ثانياً؟ علم طبقات الأرض:
؟ ١ جاء في القرآن الكريم، غير مرة، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على
توازنها،
ومن ذلك قوله تعالى:
(وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم (٤)).
ولقد ظل العلم جاهلاً بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية، ولكن دارسي
الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم قانون التوازن Isostasy ولا يزال العلم
الحديث في مراحلها البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون، ويقول الأستاذ انجلن:

(١) هذا مجرد تعبير عن الامكان العلمي، وحدوده الزمنية. وليس بعيداً أن تقع هذه
الظاهرة في وقت أقل مما حدده الفلكيون، وكلامهم لا ينفي هذا.
(٢) رويت معجزة انشقاق القمر في الصحيحين وكتب الحديث الأخرى، بروايات صحيحة
الاسناد، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه)، وهو من الشهود العيان
لذلك الحادث الخارق، ويرغم ذلك لا تزال مسألة انشقاق القمر موضع خلاف شديد بين
المفسرين والعلماء. فيرى الجمهور أنه قد حدث فعلاً،... وقال بعض المفسرين: سينشق
كما يرى صاحب التفسير الكبير، ومن القائلين به الإمام الحسن البصري، وقد نقل عنه
أبو حيان الأندلسي القول التالي: ان المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة
الثانية. البحر المحيط، ج؟ ٨، ص؟ ١٧٣، وهما فئتان من العلماء تؤثر التوفيق
بين الرأيين، فهم يرون أن معجزة شق القمر، التي جاء ذكرها في الأحاديث وقعت أمام
جمع من المسلمين والمشركين بمنى في مكة، المكرمة. ويرى الامام الغزالي والشاه ولي
الله الدهلوي أنها وقعت بتصرف البصر. وان الممكن أن تكون قد حدثت فعلاً نتيجة
انشقاق فلكي. وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التي سوف يجرى وقوعها
قرب القيامة. وفيها يقول المفسر الهندي الكبير العلامة شبير احمد العثماني في تفسير
للقرآن:
لقد كانت معجزة شق القمر مثلاً على أن كل شيء سينشق هكذا عند اقتراب القيامة.
(٢) القمر / ١ و ٢.
(٣) لقمان / ١٠.

من المفهوم الآن أن المادة؟ الأقل وزنا؟ ارتفعت على سطح الأرض، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، هي التي نراها الآن في شكل البحار. وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض (١):.

ويرى عالم آخر من باحثي الجغرافيا:

وفي البحار، أيضا، توجد وديان مثل وديان البر. ولكن وديان البحر أكثر غورا وأبعد عمقا من تلك التي توجد في البر، كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان. ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار. (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح

البحر، وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعا. ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحيانا أنه لو وضعت فيها قمة ايفرست، من سلسلة جبال الهيمالايا، والتي يبلغ طولها ٢٩،٠٠٢، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل)!.
ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدل أن

توجد

في أعالي البحار. ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل، الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار. ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على

أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية.. وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزاءها المختلفة). ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من

الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل. وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في هذه الوديان، وقد سويت مناطق كبيرة

من هذه الوديان بعد أن ملأها هذه الرواسب. ولهذا من الممكن؟ بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية؟ أن تبرز جبال جديدة في أي وقت، أو تظهر سلسلة جديدة من

الجزر، ومما يؤكده ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية.

وعلى كل حال، لا توجد نظرية؟ في ضوء المعلومات الحالية للإنسان؟ لتقوم بتفسير الوديان البحرية، وهذه المغارات الدائمة البرودة، والتي توجد في ظلام حالك، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة، لا زال ذلك كله لغزا أمام الإنسان، كألغاز البحر

الأخرى (٢)!!.

؟ ٢ وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله،

قال
تعالی:

(١) C. R Von Anglen, Geomovpholgy, pp ٢٦ - ٢٧, .N. Y, (١٩٤٨)
(٢) .The World We Live In, N. Y, .١٩٥٥

(والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها (١)).
وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية، وهو: نظرية تباعد القارات أو انتشارها (Theory of Drifting Continents). مغزى هذه النظرية: أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات أجزاء متصلة، ثم انشقت وبدأت تنقذف، أو تنتشر من تلقاء نفسها، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة.
وقد طرحت هذه النظرية في العالم عام ١٩١٥، لأول مرة، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ الفريد واجنر أنه لو قربت القارات جميعا، فسوف تتماسك ببعضها، كما يحدث في ألعاب الألغاز التي تسمى Jigsaw Puzzle ويمكن مشاهدتها في الأشكال الثلاثة، التي تبين هذه النظرية انظر ص ١٥٠. * * *

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة، كأن نجد جبالا متماثلة عمرها الأرضي (واحد)، وكأن نجد فيها دواب وأسماك ونبات متماثلة أيضا! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفسور رونالد جود (Rand Good) في كتابه: جغرافيا نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants)؟ إلى أن نقول:
لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلف قارات العالم إلا إذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلا بعضها

ببعض في وقت من الأوقات.
وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماما بعد تصديق الجاذبية الحجرية لها (Fossil Magnetism)، فان العلماء اليوم؟ بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة؟ يستطيعون تحديد موقع أي بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة في الزمن القديم. وقد أكدت هذه الدراسة في الجاذبية الأرضية أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم بالأمكنة التي توجد بها اليوم، وانما كانت في ذلك المكان الذي تحدده نظرية تباعد القارات، وفي هذا الأمر يقول البروفسور بلاكيت (٢):
ان دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون

سنة، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب إفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة (٣).

-
- (١) النزاعات /؟ ٣٠ ٣١.
(٢) P. M. S. Blacket، أستاذ (الطبيعة) في الكلية الملكية بلندن؟ المعرب.
(٣) أنظر التفصيل: ريدز دايجست، عدد يونيه (حزيران) من عام ١٩٦١.

لقد ورد في الآية المذكورة آنفا لفظة الدحو، ومعناه تسوية الشيء ونثره، كما يقال دحا المطر الحصى عن وجه الأرض، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية: Drift التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة. لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد، وما اكتشف بالأمس القريب؟ إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي، والحال، والمستقبل، على السواء. * * *

ثالثا؟ علم الأغذية:

ان قائمة الأغذية التي يقررها لنا القرآن الكريم تحرم (الدم)، وكان الانسان غافلا عن أهمية هذا التحريم، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان

مبنيا على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة. فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوي كمية كبيرة

من حمض البوليك Uric Acid، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء. وهذا هو

السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات. والمراد من الذبح في المصطلح الاسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان، وهي

أن تقطع الوريد الرئيسي. الذي يوجد في العنق، فقط. وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان، لكيلا يكون سبب

الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية، كالدماع، أو القلب، أو الكبد، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق، وتسري إلى أجزاء

الجسم، لو مات الحيوان في الحال؟ على اثر صدمة عنيفة؟ وهكذا يتسمم اللحم كله، نتيجة سريان حمض البوليك في أنحاءه.

ولقد حرم القرآن لحم (الخنزير)، ولم يعرف الانسان في الماضي شيئا عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضا كثيرة، لأنه يحتوي أكبر كمية

من حمض البوليك بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض، أما الحيوانات الأخرى، غير الخنزير، فهي تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول. وجسم الانسان يفرز ٩٠ % من

هذه المادة بمساعدة (الكليتين). ولكن الخنزير لا يتمكن من اخراج حمض البولييك الا بنسبة اثنتين في المائة (٢ ٪)، والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل، والذين يأكلون لحمه، هم الآخرون، يشكون من آلام المفاصل، والروماتيزم (١)،

(١) ليكن مفهوما هنا أنه عند وصف تأثير أي غذاء، لا يمكن الا بيان تأثيره الذاتي من المنافع والمضار، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحدا لدى كل انسان يأكله. والسبب في ذلك أن الانسان لا يأكل شيئا بمفرده، وانما يتلعه مع مأكولات من أنواع عديدة، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء، أو يزول في بعض الأحيان، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أي شئ الا بما عرف عنه بصفته الفردية.

وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة (١).

ان الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها من هذا القبيل الذي أشرنا إلى بعضه في الصفحات الماضية، وهي دليل قطعي على أن القرآن صادر عن عقل غير انساني. وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوءة، التي وردت في القرآن الكريم: (سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (٢)).

وسوف أختتم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي، وهو يقول: كان ذلك يوم أحد، من أيام سنة ١٩٠٩، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كامبردج، ذاهبا إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت له: أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيك تحت إبطك رغم شدة المطر! فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت

له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم؟ مثلك؟ أن يتوجه إلى الكنيسة؟ وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي. وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت ليدي جيمس في

تمام الساعة الرابعة، بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرنني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفسور منهمكا

في أفكاره. وعندما شعر بوجودي، سألني: ماذا كان سؤالك؟، ودون أن ينتظر ردي، بدأ

يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها

اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى انني شعرت
بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله. وأما (السير جيمس)

(١) لعل العلة الأخرى في تحريم الخنزير أساسا انه حيوان قذر، يأكل النجاسات، فإلى
جانب التحريم القطعي النصي له، يمكن أن نلاحظ فيه علة تحريم (الجلالة) التي تأكل
النجاسة، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب ألبانها. أنظر: بداية
المجتهد لابن رشد؟ ٢ / ٤١٨ (المراجع).
(٢) فصلت / ٥٣.

فوجدت شعر رأسه قائما، والدموع تنهمر من عينيه، ويدها ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة. ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: انك لعظيم! أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق

سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت، يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟. ويضيف العلامة عناية الله قائلا: لقد أحدثت هذه الحاضرة طوفانا في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي، لقرأتها عليكم، فهز رأسه قائلا: بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية:

(ومن الجبال جدد بيض وحممر، مختلف ألوانها وغرايب سود. ومن الناس والدواب والأنعام

مختلف ألوانه كذلك. انما يخشى الله من عباده العلماء). (١).
فصرخ السير جيمس قائلا:

ماذا قلت؟؟ انما يخشى الله من عباده العلماء؟! مدهش! وغريب، وعجيب جدا!! ان الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبا محمدا به؟ هل هذه الآية

موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلا:
لقد كان محمدا أميا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش! وغريب، وعجيب جدا (٢)!!.

(١) فاطر ٥٣.

(٢) مجلة نقوش الباكستانية، العدد الخاص بالشخصيات العالمية، شخصية (المرحوم؟ العلامة عناية الله المشرقي ص؟؟ ١٢٠٨ ٩).

؟ والعلامة المشرقي هذا من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات، ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة، وهو أول من عرض فكرة القبلة الذرية، غير أنه ترك الميدان العلمي، فخاض غمار السياسة نظرا لسوء حالة المسلمين في الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس حزب الخدام الإلهيين Khaaksar Party، وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجود إقامة الفرائض الدينية بالقوة، واتخذوا من المعول

شعارا لحركتهم. ومن أهم مؤلفات العلامة: التكملة (لرسالة الاسلام)!!، وقد طلبت منه لجنة جائزة نوبل أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية لاعطائه جائزة العلم، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلاً:
لست في حاجة إلى جائزة لا تعترف لجننتها باللغة الأردنية العظيمة!؟ المعرب.

الباب الثامن الدين ومشكلات الحضارة.. التشريع
السؤال الأساسي الذي يفرض نفسه عند البحث في المشكلات الحضارية يكون دائما
عن
التشريع أو الدستور. فهذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره، والتشريع هو الذي
يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والانصاف. ولكن من المذهل أن أقول: ان
الانسان
لم يفلح إلى الآن في الكشف عن دستور حياته! صحيح أن جميع الدول في العالم قائمة
على
أسس الدستور، ولكن هذه الدساتير مخفقة تماما في الوصول إلى أهدافها، بل لا يوجد
هناك

ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تنفذ بالقوة والاجبار.
ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة في هذا العصر تفقد
أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها. ويرى الأستاذ فولر L. L. Fuller أن القانون
لم
يكشف عن نفسه بعد!.. وفولر هذا هو الذي وضع كتابا أسماه: القانون يبحث عن
نفسه

.The Law in Quest of Itself

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات، وبذلت عقول جبارة من
علمائنا
أوقاتها في سبيل البحث عن مقومات القانون. وكما يرى محرر موسوعة تشامبرز لقد
أعطى القانون أهمية علم هام، حتى رفع من شأنه إلى أقصى الحدود. ولكن كل هذه
الجهود
لم توفق في الحصول على صورة متفق عليها من القانون. وقد تشعبت بهم السبل، حتى
قال
خبير في التشريع: لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون، فعليك أن تستعد
لسماع
أحد عشر جوابا!!..

وقد انقسم خبراء التشريع إلى مدارس فكرية كثيرة، ولكننا؟ رغم تعدد هذه المدارس؟
قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكانا! يقول البروفسور

باتون G. W. Paton عن جون آستين: انه لا يصلح لأي من الأقسام العريضة
Broad
Divisions (١):

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع، فهو عدم توصلهم إلى أساس
صحيح
يمكن إقامة صريح التشريع عليه. انهم يجدون أن القيم التي يحاولون جمعها في هيكل
الدستور يستحيل وضعها في ميزان واحد. ومثل رجل القانون في محاولته هذه كمثل
الرجل
الذي يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة، فكلما وضع مجموعة في
كفة وجد أن
ضفادع الكفة الثانية قد وثبت إلى الماء مرة أخرى!!.
ومن ثم باءت كل الجهود؟ التي استهدفت الحصول على الدستور المثالي؟ بالفشل
الذريع.
ويعبر الأستاذ و. فريدمان عن هذه المشكلة قائلا:
... وانها لحقيقة: أن الحضارة الغربية لم تجد حلا لهذه المشكلة غير أن تنزلق من
وقت لآخر، من نهاية إلى أخرى (١)!.

وقد لاحظ جون آستين أن الدستور؟ أي دستور؟ لا يصبح نافذ المفعول الا إذا كانت
تسنده قوة من ورائه، فعرف القانون في كتابه، الذي نشر لأول مرة عام ١٨٦١، على
النحو التالي:
القانون هو الحكم الذي أصدره رجل رفيع المنزلة سياسيا لمن هو أدنى منه في المرتبة
السياسية (٣).
وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف مرسوما لصاحب السيادة (٤)! ولذلك شن
المحدثون من العلماء حملة شديدة على هذه الفكرة، وقالوا: أنه لا يمكن منع
انحرافات
الحكام الا إذا كان رضا الشعب العام دعامة أساسية في التشريع.. وأنكروا أي قانون
أو دستور لا يحرز رضا الجماهير، وترتب على ذلك أن ضوابط كثيرة، يجمع على
صحتها
وإفادتها جميع أهل العلم ومعلمي الأخلاق؟ لا يمكن تنفيذها، لأن الشعب لا يوافق
عليها. وعلى سبيل المثال لم يتمكن الأمريكيون من ادخال مشروع قرار يحرم الخمر،
لأن
الشعب لم يرض عنه.. كما اضطر البريطانيون إلى ادخال تعديلات هامة في قانون
عقوبة

القتل،

-
- (١) A. Text Book of Jurisprudence ,١٩٠٥ ,p .٥ .
(٢) W. Friedman, Legal Theory, p .١٨ .
(٣) A. Text Book of Jurisprudence, p .٥٦ .
(٤) المرجع السابق ض؟ ٤ .

واضطروا إلى إباحة أنواع محرمة من العلاقات الجنسية، على الرغم من ضجيج المثقفين، واحتجاج علماء القانون!.

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون: هل القانون قابل للتغيير أو لا؟. لقد لقيت نظرة القانون الطبيعي رواجاً كبيراً في القرون الوسطى، وفي العصور التي تلتها، ومؤداها أن الطبيعة البشرية هي المصدر الحقيقي للتشريع: فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة لمطالبها الطبيعية ودعائها الرائدة. وقد أعطت الطبيعة هذه الدعائم للإنسان في صورة العقل، ولذلك لا بد من إقامة حكومة بقوة العقل (١):

وقد أعطت هذه النظرية أساساً كونياً للمشرعين، فقول: إنه لا بد من دستور موحد صالح لكل العصور. وهذه هي نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون. ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للدستور. ويقول (كوهلير) في هذا:

ليس هناك دستور أبدي، وأي تشريع يصلح لعصر ما ليس؟ بالضرورة؟ صالحاً لعصر آخر.

وليس لنا إلا أن نجهد أنفسنا في البحث عن دستور يلائم كل حضارة، على حدة. فقد يكون

دستور ما خيراً لطائفة من الناس، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى (٢). وقد قضت أفكار هذه المدرسة الأخيرة على تحكم القانون واستقراره، فهي تدعو الإنسان إلى فكرة التغيير العمياء، والنسبية Relativism، وهي لن تنتهي إلى حد ما، حيث أنها تفتقر إلى الأساس. وقد قلبت هذه الفكرة جميع القيم الإنسانية رأساً على عقب.

وهناك مدرسة أخرى تدعو إلى احراز أكبر قدر من مقومات العدل في التشريع. ويكتب اللورد رأيت Lord Wright معلقاً على فكرة دين راسكو باوند:

إن راسكو باوند يدعو إلى فكرة؟ اطمأنت إلى صدقها بعد جميع تجاربي ودراستي في القانون؟ وهي أن الهدف الأساسي والابتدائي للتشريع هو البحث عن العدل (٣).

.۱۶۴ .Boden Liener, Jurisprudence, p (۱)
.۵ .Philosophy of Law, p (۲)
.۷۹۴ .p ,۱۹۴۷ .Interpretation of Modern Legal Philosophies, N. Y (۳)

فإذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالاً هاماً هو: ما العدل؟، وكيف يمكن تعيينه؟، وهكذا مرة أخرى، نرجع إلى جون آستين!.
ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الانسان لن يستطيع الكشف عن أساس واقعي للتشريع، رغم
الجهود الجبارة التي بذلت في هذا الحقل منذ مئات السنين، ويزداد يوماً بعد يوم شعور
بالمراة وخيبة الأمل بين رجال التشريع، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت في بحثها عن
أهداف الدستور.

ويتساءل البروفسور جورج وهيتكروس باتون قائلاً:
ما (المصالح) التي لا بد للدستور المثالي أن يحافظ عليها؟ انه سؤال يتعلق بالقيم،
ويدخل في دائرة فلسفة التشريع. وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا، ولكن ما
أقل ما هي مستعدة لبذله في هذه السبيل. فقد فشلنا في الكشف عن ميزان للقيم يمكن
قبوله لدى جميع الأطراف.
والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم الا للدين، ولكن الحقائق الدينية
تصلح

كعقيدة ووجدان، ولا يمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقي (١).
وقد نقل البروفسور باتون رأياً لبعض علماء التشريع؟ يقول: ان جميع محاولات
الدراسة الفلسفية للبحث عن الأهداف في فلسفة التشريع قد انتهت إلى غير ما
نتيجة (٢). ويتساءل باتون: أهناك حقا قيم مثالية تحدد الأسس عند تطوير التشريعات؟
لم يتمكن المشرعون من التوصل إلى هذه القيم حتى الآن، غير أنها لا بد منها.
ويستطرد
قائلاً:

لقد استخراج أصحاب نظرية (القانون الطبيعي) القديمة أسسهم من الحقائق الإلهامية في
الدين. ولكن إذا ما أردنا نحن أن نأتي بتشريع علماني، فأين سنجد أساس القيم المتفق
عليها (٣)؟.

وهذه التجربة المريرة تدعو الانسان للعودة إلى الجهة التي انحرف عنها منذ قرون. فقد
كان الدين يسهم اسهاماً فعالاً في وضع دساتير في الزمن القديم.. ويرى خبير القانون
المعروف السير هنري مين: أنه لا يوجد مثال واحد في القوانين، التي تم تسجيلها
كتابة، من قانون الصين إلى بيرو، الا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ
بداية أمره (٤).

(١) A Text Book of Jurisprudence, p ١٠٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٦،

(٣) المصدر السابق؟ ١٠٩.

.ο .Sir Henry Maine, Early Law & Custom, P (ξ)

(1ολ)

لقد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة: بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون

هدى الله. وبدلا من المضي في الجهود التي لا تأتي بنتائج مثمرة، علينا أن نعترف بالواقع الذي يدعوننا إليه الدكتور فرويدمان، حين يقول:
يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لا بد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقي للعدل. والأساس الذي يحمله الدين لاعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به في

حقيقته وبساطته (١).

اننا نجد في الدين جميع الأسس اللازمة التي يبحث عنها المشرعون لصياغة دستور مثالي،

ولكي يتضح صدق ما نقوله، نأتي بالدراسة الوجيزة التالية في أهم مشكلات التشريع الانساني:

أولاً؟ مصدر التشريع

وأول الأسئلة وأهمها بالنسبة لأي تشريع هو البحث عن مصدر هذا التشريع: من الذي يضعه! ومن ذا يعتمده حتى يصبح نافذ المفعول؟.

لم يصل خبراء التشريع إلى إجابة عن هذا السؤال حتى الآن. ولو أننا حولنا هذا الامتياز للحاكم، لمجرد كونه حاكما، فليس هناك أساس نظري وعلمي يجيز تمتعه؟ هو أو

شركاؤه في الحكم؟ بذلك الامتياز، ثم إن هذا التحويل من ناحية أخرى لا يجدي نفعا،

فان اطلاق أيدي الحكام ليصدروا أي شئ لتنفيذه بوسيلة القوة؟ أمر لا تطبيقه ولا تحتمله الجماهير.

ولو أننا حولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع، فهم أكثر جهالة وحمقا، لأن المجتمع؟ أي مجتمع؟ إذا نظرنا إليه ككل، لا يتمتع بالعلم والعقل والتجربة، وهي أمور لا بد منها عند التشريع. فهذا العمل يتطلب مهارة فائقة وعلما وخبرة، وهو ما لا تستطيع العامة من الجماهير الحصول عليه، كما أنها، وان أرادت، لن تجد الوقت الكافي لدراسة

المشكلات القانونية وفهمها.

وللخروج من هذه المشكلة توصل رجال القانون إلى حل وسط، وهو أن يقوم (البالغون) من

أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم، وهؤلاء بدورهم يصدرن التشريعات باسم الشعب.

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط، حين نجد أن حزبا سياسيا لا يتمتع الا

بأغلبية ٥١ ٪ من مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقلية، الذي يمثل ٤٩ ٪ من
أفراد
المجتمع البالغين. والأمر لا يقف عند هذا الحد، لان هذا الحل يحتوي على فراغ كبير
جدا تنفذ

(١) Legal Theory, p. ٤٥٠.

منه أقلية لتحكم على أغلبية السكان. وعلى سبيل المثال، فإن الحكومة التي تحكم الهند الآن، قد وصلت إلى مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة، التي أجريت في البلاد عام ١٩٦٢. وقد فاز حزب المؤتمر القومي بنسبة ٧٠ ٪ من مقاعد

البرلمان، في حين أن نواب هذا الحزب لم يحصلوا الا على ٤٠ ٪ من أصوات الشعب، في الانتخابات. وهذا هو ما حدث في الانتخابات الخمسية الأولى والثانية، التي أجريت قبل سنة ١٩٦٢ (١)، وحصل حزب المؤتمر في كليهما على أقل من ٥٠ ٪ من مجموع الأصوات! ولكنه

رغم ذلك كان له الحق في تشكيل الحكومة، لأن أصوات الناخبين الأخرى كانت موزعة بين نواب الأحزاب (المعارضة). ولم تكن بطولة حزب المؤتمر الا في أنه أحرز أصواتا أكثر من أي حزب آخر على حدة!.

ولا أستثني من هذه الأقطرة الا الانتخابات الموزعة، التي تجري في الدول الشيوعية، فيفوز زعماءها بأرقام خيالية للأصوات!. وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس القانون ومصدره. والدين يستجيب لهذا التحدي الخطير، الذي قد يدمر سعادة البشرية كلها.. أنه يقول: ان

مصدر التشريع هو الله وحده، خالق الأرض والكون، فالذي أحكم قوانين

(١) أجريت الانتخابات العامة الأولى والثانية في عامي؟ ١٩٥١ ٥٢، وعام ١٩٥٧، كما أن الانتخابات العامة الرابعة أجريت في عام ١٩٦٧، أي بعد صدور هذا الكتاب، وفي هذه الانتخابات فقد المؤتمر، لأول مرة في تاريخه ثماني ولايات: غلبت فيها أحزاب أو مجموعة نيابية ائتلافية. وقد سبق في انتخابات سنة ١٩٦٢ (و ١٩٥٧) أن ألف الشيوعيون حكومة ائتلافية بالاستعانة ببعض الأحزاب السياسية في ولاية (كيرالا) أما في انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب المؤتمر هزيمة فادحة في ولايات: كيرالا، ومدراس، وأوريسه، وبيهار، كما لم يتمكن من احراز أكثرية مطلقة (تمكنه من تأليف الوزارة) في ولايات: البنغال الغربية، وأوتار براديش، وراجستان وبنجاب.. ومعناه: أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات (البالغ عددها ست عشرة ولاية)، ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية)، لأن نوابه الذين أحرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمان! ويمثلون الأغلبية بالنسبة إلى عشرات من الأحزاب الأخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح والمناقشات العقيمة! ولو اتفقت هذه الأحزاب فيما بينها فكونت جبهة نيابية ائتلافية (كما فعلت بعض الأحزاب في

الولايات الإقليمية) لاحتلت مقاعد الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر إلى الجلوس في مقاعد المعارضة!.
ويتضح من هذا جليا: كيف تنفذ أقلية في الفراغ الدستوري الموجود في تشريعاتنا فتحكم على الأغلبية؟! المعرب.

الطبيعة هو وحده الذي يليق أن يضع دستور حضارة الانسان ومعيشتة. وليس هناك من أحد

غيره سبحانه، يمكن تحويله هذا الحق.

ان هذا الجواب معقول وبسيط لدرجة أنه يصرخ قائلاً، لو استطعنا أن نسمع نداءه: هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوي هذه المشكلة المصيرية؟.

لقد وصلت بنا هذه الإجابة إلى مكانها الحقيقي من التشريعي والمشرع، بعد أن استحال

علينا المضي خطوة ما في ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقي.

انه لا يمكن قبول انسان حاكما ومشرعا للانسان، ولا يستمتع بهذا الحق الا خالق الانسان، وحاكمه الطبيعي: الله.

ثانياً؟ العناصر الأساسية للتشريع

ومن أهم الأسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع.. هل هي كلها إضافية، أو ان

هناك عنصراً أو عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها في أي دستور عند تعديله، أو تجديده، أو تغييره؟..

لم يستطع خبراء التشريع الوصول إلى اتفاق في هذا الصدد، رغم البحوث الطويلة التي أجريت في هذا الباب. وهم يسلمون، نظرياً، بأنه لا بد من عنصر في التشريع يتمتع بالدوام والأبدية، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة.

ويرون أيضاً أن افتقار الدستور إلى أحد العنصرين: الأبدى والإضافي سوف يكون مصدر

شقاء دائم للبشرية. وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الأميركية، وهو القاضي كاردوزو Cardozo على النحو التالي:

من أهم ما يحتاج إليه التشريع اليوم: أن نصوص له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر، وتغير عنصر آخر (١).

ويقول خبير آخر في شؤون القانون، وهو البروفسور راسكو باوند:

لا بد من عنصر التحكم في التشريع، ولكن هذا لا يعني أن يصبح التشريع جامداً. ولذلك

بذل الفلاسفة قصارى جهودهم للتوفيق بين مقومات التحكم والتغيير في هذا المجال (٢).

والحق أنه لا يمكن التوصل إلى أساس يميز بين عناصر القانون الذي وضعه الانسان، بعضها

وبعض، فكل عنصر يدعي أنه صالح للدوام يلزمه أن يقدم دليلاً على ذلك، وهو

The Growth of Law (1)
. Interpretations of Legal History, p (2)

(16)

عاجز تماما عن الاتيان بذلك الدليل، فقد نرى اليوم عنصرا من الدستور صالحا للدوام، ثم يأتي رجال الغد يعلنون الاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم، ما دام الدستور يصاغ
بناء على رغبات الشعب، فقد لا يعجبهم ذلك، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضي الزمن.

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو الشرع الإلهي الذي يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جذرية، ثم يترك الباقي مفتوحا للاجتهادات المختلفة، بحسب الزمان والمكان.
انه يحدد العناصر الأساسية وغير الأساسية بالنسبة إلى دستور ما. ثم هو إلى جانب ذلك

يتصف ويتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه، حيث إنه من عند الله سبحانه وتعالى ومن
ثم لا بد لنا أن نعتبره حقا، وأن نعتده الكلام الأخير في الموضوع، الذي لا كلام بعده.
وتلك ميزة هامة في التشريع الإلهي، لا يستطيع الانسان أن يأتي بديل عنها.

ثالثا؟؟؟ تحديد مفهوم الجريمة

ومما لا بد أن يتوفر لأي دستور أن يكون لديه دليل معقول يستند اليه، لاعتبار عمل ما جريمة. ويقول الدستور الذي وضعه الانسان: ان الجريمة هي: كل عمل يضر بالأمن العام، أو نظام الحكم القائم، والتشريع الانساني لا يجد أساسا غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة. وقد دفع هذا الأساس القانون الجديد إلى اقرار أن جريمة الزنا ليست بجريمة، الا إذا تمت جبرا أو اكراها لاحد الطرفين. فالقانون الجديد لا يعتبر الزنا جريمة، وانما الجريمة الحقيقية عنده هي الجبر والاكراه الذي سبق الزنا.
ان الاستيلاء على أموال أحد المواطنين حرام، وكذلك اهدار عصمتهم والنيل من عفتهم.

ولكن أموال انسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر، إذا تم ذلك برضاء (الطرف الأول)؟

صاحب المال! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثاني ما دام راضيا، فعند

رضا الجانبين يصبح القانون حاميا لهما، ومدافعا عنهما، ولو حاول طرف ثالث التدخل في الأمر، فهو الذي سوف يعد مجرما، وليس الطرفان الأولان!.

ان جريمة الزنا تفشي فسادا كبيرا في المجتمع، فهي تخلق مشكلات أطفال الحرام

(غير الشرعيين)، وتضعف روابط الزواج، وهي كذلك تصدر عن عقلية تفضل اللذات
السطحية في
الحياة، وتربي عقلا خائنا، وتخلق السرقة والصوص، وتروج الاغتياالات والانتحار
والخطف، ومن ثم تفسد المجتمع كله، ولكن القانون؟ رغم ذلك؟ لا يستطيع
تحريمها، فهو
لا يجد أساسا لتحريم الزنا الذي تم بالرضا المتبادل!!

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرم الخمر، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للانسان، وهو حر في اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه، وليس للقانون أن يتدخل في حقوق الطبيعة، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذي يتبعه جريمة في الواقع، الا إذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين في هذه الحالة من السكر، أو خرج إلى الشارع وهو سكران، فالجريمة ليست هي حالة السكر، بل الاعتداء على الآخرين في تلك الحالة!.

والخمر تضر بالصحة، وتبدد أموال الناس، وتؤدي بدمنيها إلى كوارث اقتصادية محققة، وتضعف الشعور الأخلاقي، حتى أن الانسان يتحول إلى حيوان رويدا رويدا. والخمر خير مساعد للمجرمين، فهي تشل الإحساسات اللطيفة، حتى يستطيع الانسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل، وهدر العصمة. ولكن القانون الانساني رغم هذه المعايير الشنيعة؟ لن يتمكن من تحريم الخمر، لأنه لا يجد جوابا يسوغ تدخله في حق من حقوق الانسان الطبيعية!!.

ولن نجد حلا لهذه المشكلة الا في قانون الله، ان قانونه يبين رضا حاكم الكون، فان كون أي قانون قانون الله يحمل معه أولوية تنفيذه، ولا يحتاج بعد ذلك دليلا آخر. وهكذا يسد القانون الإلهي فجوة عميقة، نتمكن بعدها من إحالة أي عمل إلى دائرة القانون. ***

رابعاً؟ القانون الاخلاق

لا يستطيع القانون أن يستقل بذاته في أي وقت من الأوقات، بل لابد له أن يقترن بالأخلاق. ولتوضيح هذه النقطة نقول:

؟ ١ لو طرحت قضية أمام القانون؟ على سبيل المثال؟ وتعتمد الفريقان وشهودهما الكذب

فلم يتبين الصدق أمام القاضي، فسوف يقضي على العدل، ولن يتمكن القاضي من الحصول

عليه مهما حاول. ولذلك كان لا بد من قانون آخر وراء القانون، يحرك الناس، ويحملهم

على الادلاء بالبيانات الصادقة للوصول إلى العدل. وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ، حتى أنها تلزم كل شاهد (أن يقسم بالله أن يقول الحق) قبل الادلاء

بشهاداته. وهو دليل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون. بيد أن المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية، حتى أصبحت أيمان المحاكم أضحوكة، وتقليدا لا يأتي بنفع، أي نفع!.

؟ ٢ ومما لا بد منه أن يكون أي عمل يعاقب عليه القانون (جريمة) في نظر المجتمع أيضا، وأي بند من قانون مكتوب لا يمكنه أن يخلق نفسية في المجتمع، ترى في عمل ما جريمة،

كما يراه، إذ لا بد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه مذنب ويعتبره المجتمع مذنباً. ويقبض عليه رجال الشرطة بكل اقتناع، ثم يصدر قاضي المحكمة؟ وهو في غاية الاطمئنان
؟ حكماً ضد ذلك الرجل. ولذلك كان لا بد أن تكون كل جريمة ذنباً أيضاً. وهذا هو ما

يراه أصحاب المدرسة التاريخية من رجال القانون:
ان أي تشريع لن يصيب هدفه الا إذا كان مطابقاً للاعتقادات السائدة عند المجتمع الذي
وضع له ذلك القانون، ولو لم يطابق التشريع اعتقادات المجتمع، فلا بد من فشله (١).
هذا الرأي الذي عبرت عنه المدرسة التاريخية لرجال القانون غير صائب في مغزاه
الحقيقي الذي يرمي إليه اطلاقاً، ولكنه ذو صدق خارجي. * * *

؟ ٣ ان خوف الشرطة والمحكمة لا يكفي لدرء الجرائم، وانما لا بد أن يكون هناك
وازع في
المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم، لأن الرشاوي، والمحسوبيات، وخدمات
المحامين
البارعين، وشهود الزور؟ كل هذه العوامل تكفي لحماية المجرم من أية شرطة أو
محكمة

انسانية، والمجرم لا يهرب عقاباً، أي عقاب، لو استطاع أن يفلت من أيدي القانون.
ان الشرع الإلهي يستوفي كل هذه الأمور، فعقيدة الآخرة، التي يحملها الشرع الإلهي،
هي خير وازع عن ارتكاب الجرائم، وهي تكفي لتبقى احساساً بالجريمة واللوم يعتمل
في

قرارة ضمير الانسان، لو أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضي.
لقد أقيم في فناء محكمة ويستون سركيت نصب من حجر، يذكر الناس، بشاهد أدلى
بشاهدة

زور في فناء الدار، ثم قال: وإن كنت كاذباً، فليمتني الله، هنا، في الحال! ولم تكذب
هذه العبارة تخرج من فم الشاهد حتى سقط على ساحة الأرض، ومات في الحال
(٢)!! وهناك

وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشدة احساس أصحابها باللوم والذنب. * * *

ان قرارات البرلمانات لن تخلق في الجماهير شعوراً بشناعة فعل ما، الا إذا كانت
معتمدة من القانون الإلهي، وراسخة في معتقدات المجتمع.
والوازع الذي يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين في حد ذاته، فإنه لا يقدم لنا

تشريعا فحسب، وانما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير
وشر...
فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة أجهزة هذا المشرع، ولسوف نقف
بعد
الممات أمامه، ولن نستطيع ان نفرض ستارا على أدنى أعمالنا.

(١) A Text Book of Jurisprudence, p ١٦.
(٢) Sir Alfred Denning, The Changing Law, p ١٠٣, (١٩٥٣).

ولو أننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا، فلن نتمكن بالتأكيد؟ من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوي.
ولو أننا حاولنا تفادي عقاب الدنيا. فسوف نذوق عذابا مضاعفا يوم القيامة، يفوق عقاب الأرض ملايين المرات، قسوة وعنفا.

خامسا؟ القانون والفرد
ورد في التاريخ الإنجليزي أن الملك جيمس الأول أصدر مرسوما يقول بأنه (الملك) يستطيع أن يحكم البلاد مطلق العنان، كما أن من حقه إصدار أحكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف في المحاكم.
وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضي الشهير اللورد كوك Coke وكان شديد التمسك بالدين حتى اعتاد أن يقضي ربع يومه في الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك ليس من حقه أن تحكم في أي شيء ولا بد لجميع القضايا أن تذهب إلى المحكمة للنظر فيها.. فقال له الملك: انني أرى؟ وهو ما سمعته؟ أن القوانين قد وضعت على أساس العقل، فهل أنا أقل من قضاتك عقلا؟
فأجابه رئيس القضاة: انه مما لاشك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة مثاليين، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة. وفوق ذلك هو الميزان الذهبي الذي يزن حقوق الرعية، وهو الذي يصون شخصيتكم..
فغضب الملك بشدة وقال: هل أنا أيضا أخضع للقانون؟ ان هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة!.

وكان جواب اللورد كوك أن ذكر الملك برأي براكتون Bracton، الذي قال: إن الملك لا يخضع لأحد من الناس، ولكنه خاضع لله وللقانون (١).
وهنا؟ لو جردنا القانون من الله، فلن نجد أساسا معقولا للقول بأن: الملك خاضع للقانون؟ لأن الذين صاغوا القانون، وأصدروه بإرادتهم، يستطيعون؟ في الوقت نفسه؟ تعديله وتغييره إذا ما أرادوا ذلك، فكيف؟ آذن؟ سيخضعون لذلك القانون (٢)؟.

(١) المرجع السابق: ص؟ ١١٧؟ ١٨.
(٢) ومن أمثله ما حدث في الهند عقب الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية ائتلافية في الحصول على مقاليد الحكم في كثير من الولايات

الإقليمية، فحينئذ أجرت الحكومة المركزية (التي يحكمها حزب المؤتمر) تعديلات هامة في كثير من المجالات، لتقييد حركة الحكومات (المعارضة)، ومنها؟ على سبيل الذكر؟ منع تقديم الهبات والمعونات المالية إلى الأحزاب السياسية وكانت هذه المعونات المقدمة إلى الأحزاب السياسية معفاة من الضرائب، فضلا عن أن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عند دفع الضرائب. وكان حزب المؤتمر، كحزب حاكم يحصل على هذه الهبات بأكثر من ثمانين في المائة، بينما كانت الأحزاب الأخرى لا تتمتع إلا بنسب ضئيلة جدا من هذه المعونات، ولكن بعد نجاح الأحزاب الأخرى في الوصول إلى مقاعد الحكم في كثير من الولايات تحولت مصالح الرأسماليين إلى الحكام الجدد فأغدقوا على أحزابهم المعونات، مما آل بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر، فمنعت الحكومة المركزية التسهيلات التي كانت تقدم إلى أصحاب الهبات، وبالتالي حرمت الأحزاب الأخرى من جني فوائد كبرى! لقد أصبح نفس الشيء الذي كان مباحا في الماضي؟ محضورا في الحال، لأن مصالح واضعي الدستور (الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم على الأقلية الكبيرة) لم يعد لها وجود، بسبب تصارييف الزمن!.

ومنها كذلك أن الجمعية التشريعية في ولاية (أوريסה) الهندية أصدرت قانونا يحرم على المواطنين تغيير الديانة، وهذا؟ كما هو واضح بكل جلاء؟ لمنع الهندوس، وخصوصا المنبوذين، من قبول الاسلام!! وهذا البند المستحدث يتعارض تعارضا كليا، بل يصادم الدستور الهندي الذي يعطي للمواطنين الحرية الكاملة في الشؤون المماثلة. ولكن هذا التشريع الجديد جاء ليرضي الرجعيين الهنادك. وهؤلاء يشجعون، علانية، مثل هذه الحركات الشنيعة، لمنع الأهالي من قبول الدعوة الاسلامية.، وهؤلاء الرجعيون هم المسؤولون عن الاضطرابات الطائفية التي يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المسالمين، ثم لا يقدم مثيرو الشغب والفساد إلى المحاكمة؟ اطلاقا؟ لتمتعهم بعطف ووصاية الرجعيين (المعرب).

ان الانسان إذا كان هو المشرع، فهل يحل محل القانون والإله معا، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون، بأي صورة من الصور. وقد أدى هذا العيب في القوانين الحديثة إلى أنه؟ على الرغم من أن كل الجمهوريات تقر مبدأ المساواة المدنية؟ فان هذه المساواة لا تنفذ فعلا في أية دولة، فلو أنك كنت تريد أن تحاكم رئيس جمهورية الهند، أو أحد حكام الولايات، فلن تستطيع ذلك، كما

تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين، إذ كان لا بد لك من الحصول على موافقة الدولة. قبل الذهاب إلى المحكمة، فقد أضفى الدستور الهندي (في المادة ٣٦١) على رئيس الجمهورية ونائبه وحكام الولايات هالة وامتيازاً، بحيث لا يمكن محاكمتهم الا بعد موافقة البرلمان المركزي. وكذلك لا بد من الحصول على موافقة الحكومة، لمحاكمة الوزراء!.

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد، بل تنص المادة ١٩٧، من (لوائح العقوبات الهندية) على: أن قاضياً، أو وكيلاً للنياحة العامة، أو أحد الموظفين الحكوميين (من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة الا بعد موافقة الحكومة المركزية) لو اتهم أحدهم بارتكاب

جريمة ما، فليس من شأن المحاكم النظر في قضية أحدهم، الا بعد الحصول على موافقة

الحكومة المركزية أو المحلية. التي تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته!!.

أن يبيبانبيبي؟؟
وبكلمة أخرى: لو أردت أن تحاكم سياسيا كبيرا، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا ؟ فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم: هل تبيحون لنا محاكمتكم؟! .
وليس هذا عيب الدستور الهندي بالمرّة، بل هو عيب القانون البشري بعامّة، وهو عيب موجود. حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية.
ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل الا في ظل القانون الإلهي، حيث يكون كل انسان مساويا للآخرين أمام الدستور. وحيث تمكن مقاضاة أية سلطة سياسية وتنفيذية، كما يحاكم ابن الشعب، لأن الحاكم في هذا القانون هو الله سبحانه وحده، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز (١)..
* * *

سادسا؟ القانون والعدل:
ان أهم وأكبر أساس في هيكل القانون هو العدل، الذي يبحث عنه خبراء القانون من قرون طويلة، وهو موجود في القانون الإلهي في أتم الصور وأكملها. والقول بأن: عدم اهتداء الانسان إلى أساس العدل يرجع إلى أن بحوثنا لا زالت ناقصة، وتتطلب المزيد من البحث؟ قول باطل. فهذا الكلام يثبت أنه ليس في مستطاع الانسان أن يحصل على هذا الأساس أبدا.
لقد قطعنا شوطا كبيرا في مضمار البحوث الطبيعية بنتائج باهرة في كل مجال، ولكننا، رغم جهودنا المضاعفة في البحث عن القوانين المدنية، لم نحرز نجاحا، ولو بنسبة واحد في المائة من الدرجة المطلوبة. وهذه الخيبة تؤكد أن اخفاقان لا يرجع إلى نقص الجهود، وانما سببه الحقيقي أن هذا الأمر خارج؟ على الاطلاق؟ عن نطاق بحث الانسان.
* * *

لقد صور الانسان أول صورة فوتوغرافية في عام ١٨٢٦ م. وقد بذل العالم الفرنسي، الذي اخترع الجهاز، ثماني ساعات متواصلة لتصوير شرفة المنزل.. والآن تستطيع آلات

(١) لذلك أمثلة رائعة في العصور الأولى لخلافتنا الاسلامية، حين كان العاديون من افراد الشعب يحتكمون إلى القضاة ضد الخلفاء وعمال الأقاليم وكبار رجال الدولة. بل وهاك أمثلة في العهود القرية جدا، ومنها، على سبيل المثال وليس الحصر، أن افراد

الشعب العاديين احتكموا إلى المحاكم؟ عدة مرات ضد الإمبراطور المسلم المغولي جهانكير؟ ابن الإمبراطور أكبر؟ الذي حكم الهند في القرن السابع عشر.؟
(المعرب).

أقول: أليس هذا أثرا من آثار المبادئ المحمدية السامية، وانعكاسا لمقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية في سمع الزمان: أتشفعون في حد من حدود الله؟ والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها.؟؟ (المراجع).

تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألفي صورة في الثانية الواحدة، ومعنى ذلك أننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر من ستين مليون صورة، في نفس الوقت الذي استغرقته عملية

التصوير الأولى، أي أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة، في ١٤٠ سنة فقط!!
وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد في شوارع الولايات المتحدة غير أربع سيارات، على حين تمرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة.
ويمضي الاعجاز العلمي بالانساني إلى أن يقسم الزمان إلى ١،٠٠٠،٠٠٠ / ١ جزء من أجزاء

الثانية! وتستطيع المراصد العلمية أن تكشف عن أدنى فارق في حركة دوران الأرض؟ حتى

ولو بلغ في مدته ١،٠٠٠،٠٠٠ / ١!.

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذي يطراً على كتابة (حرفين)

بالحبر، على ورقة من أوراق موسوعة من ثلاثين مجلدا!
هذه هي حال الانسان في حقل البحث العلمي، على حين لم يتمكن من احراز أي تقدم؟ ولو

بمقدار (بوصة)؟ في مجال القوانين المدنية.
وسوف أورد هنا بعض الأمثلة من مختلف مجالات الحياة، لتبين مدى صدق القول:
بأن

الدستور الإلهي هو وحده الأساس الحقيقي، الذي يصلح لأن يكون مصدراً لقوانين الحياة الانسانية.

المرأة والمجتمع
ان الاسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرة واحدة، فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما.
وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمي يسخرون من هذه القوانين، وأطلقوا عليها: مخلفات العصر الجاهلي.

وقالوا بشدة: ان الرجل والمرأة متساويان، ويرثان النسل الانساني بطريقة متساوية،
ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقبات في طريق علاقاتهما الحرة.
وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعاً جديداً في الغرب. بيد أن التجارب الطويلة المريرة التي مرت بها الانسانية بعد هذه الإباحة الجنسية هي أقصى ما عاناه البشر، فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطرياً، ولا طبعياً، وأي مجتمع يقوم على أساس

مساواتهما سوف يسبب خرابا ودمارا عظيمين للحضارة البشرية.

(١٦٨)

(١) ان أول حقيقة في هذا الأمر هي أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف في نوعية

كفاءتهما الطبيعية، واعتبارهما متساويين انما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة في حد ذاتها.

كتب الدكتور الكسيس كيريل، الحائز على جائزة نوبل للعلم؟ وهو يبين الفارق العضوي

بين الرجل والمرأة؟ يقول:

ان الأمور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد في الأشكال الخاصة بأعضائهما الجنسية والرحم والحمل، وهي لا تتحد أيضا في اختلاف طرق تعليمهما، بل إن هذه الفوارق

هي ذات طبيعة أساسية، من اختلاف نوع الأنسجة في جسم كليهما، كما أن (المرأة) تختلف

عن (المرء) كليا، في المادة الكيماوية التي تفرز من بيض الرحم داخل جسمهما. والذين

ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية، فيدعون أنه لا بد

أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسؤوليات والوظائف. ولكن المرأة في الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف، فكل خلية من جسمها تحمل طابعا أنثويا، وهكذا تكون

أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هي حال نظامها العصبي.

ان قوانين وظائف الأعضاء محدودة ومنضبطة كقوانين الفلك، حيث لا يملك احداث أدنى

تغيير فيهما بمجرد الأمنيات البشرية، وعلينا أن نسلم بها، كما هي، دون أن نسعى إلى ما هو غير طبيعي، وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن بناء على طبيعتهن الفطرية، وأن يتعدن عن تقليد الرجال (١).

ولقد صدقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية، فقد فشلت المرأة أن تحرز أية مساواة مع الرجل في أي ميدان.. حتى أن الرجل يتقدم المرأة في الميادين التي كانت تعتبر حكرا على المرأة في الماضي. ومن ذلك أن المرأة فشلت في المساواة مع الرجل في حقل السينما. وليس الرجل هو الذي يدير كل ما هو متعلق بالسينما، ومع ذلك

فهو يتقاضى أجرا أكثر من المرأة. فممثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبية (٢)، في السنة، على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبية!!.

(١) Man the Unknown, p ٩٣.

(٢) عملة هندية كانت تساوي عشرة منها جنيها مصريا (عند صدور هذا الكتاب)، وأما الآن فستة عشر (١٦) منها تساوي الجنيه المصري الواحد، بعد تخفيض قيمة العملة الهندية عام ١٩٦٦، وبالتالي قفزت دخول الممثلين الهنود إلى أرقام خيالية، فجاء في إحدى الاحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندي (دليب كومار، واسمه الحقيقي يوسف خان) يتقاضى ١٠،٠٠٠٠٠٠٦ روبية للاشتراك في فيلم واحد، بينما أكبر ممثلة لا تتقاضى الا أقل من نصف هذا الأجر!؟ المعرب.

وليس هذا هو كل ما في الأمر.. فإننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية، والضوابط الفلكية، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رؤوسنا بأيدينا. وهكذا جلب النظام الذي

صاغه الانسان؟ متجاهلا الحثيات الفارقة بين الجنسين؟ صنوفا من الأمراض والجرائم إلى داخل المجتمع. ان شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعا من الأمراض الجنسية والخلقية والنفسية، فضلا عن العصمة التي أهدرها المجتمع، نتيجة هذا الاختلاط المروع.

ومن الظواهر التي تتكرر مرارا أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب، وهي تشكو من الصداع وقلة النوم، وتمضي بعض الوقت تتحدث عن هذه الآلام.. ثم لا تلبث

أن تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة.. وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعثم في

كلامها، فيقول لها:

?Well, then he asked you to his flat, what did you say

حسنا! ثم دعاك إلى شقته، فماذا قلت له؟.

وتقول الفتاة في دهشة:

كيف عرفت ذلك، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا!.

ومن الممكن قياس كل ما ستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث. وهذا هو الذي دفع علماء

الغرب إلى الشعور بخيبة الأمل، فانتهوا إلى أن الحفاظ على العفة والعصمة كلام

فارغ في ظل مجتمع العلاقات الحرة. وقد قال طبيب غربي:

من الممكن أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة، يستحيل عندها التحكم في الأعصاب، والاحساس بالعواقب.

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر في صورة المقالات والكتب.. وبدأ بعض علماء

الغرب يشعرون بالكارثة التي تهدد حضارتهم. ولكنهم، رغم ذلك كله، غير قادرين على فهم

جذور الموقف.

ولقد نشرت الطبيبة المعروفة ماريرن هيليارد مقالا عنيفا ضد الاختلاط الحر، فقالت:

انني لا أستطيع أن أسلم، كطبيبة، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة، ينفردان برضاها وقتا طويلا.

ولكن الدكتورة هيليارد تستطرد قائلة:

ولست على هذه الدرجة من الغباء، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقييل.

ولكن أكثرية الأمهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف، وإنما تلهبها (١).

(١) مجلة ريدرز دايجست، عدد ديسمبر عام ١٩٥٧.

وتسلم الدكتور هيلارد، بهذا القول، بالقانون الإلهي الذي يحرم هذه الظواهر، حتى لا يصل الانسان إلى حافة الجرائم الجنسية القبيحة، ولكن الطبيعة لا تعرف: كيف تحرم هذه الظاهرة التي تنتهي إلى الأعمال الشيطانية لا محالة؟! * * *

(ب) لقد أباح مشرع الاسلام تعدد الزوجات، وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع، وأطلق عليه؟ هو الآخر؟ أنه تذكار العصر الجاهلي. ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعا مناسبا للطبيعة الانسانية، لأن سد باب تعدد الزوجات انما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة، غير الشرعية. وسوف أشير هنا إلى النشرة الاحصائية التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٩. لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والاحصائيات: أن العالم يواجه الآن مشكلة الحرام أكثر من الحلال *more out than in* في شأن الوليد! وجاء في هذه الاحصائية أن نسبة

الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ستين في المائة. وأما في بعض البلاد، وعلى سبيل

المثال بناما فقد تجاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين في المائة، أي أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد! وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكا اللاتينية.

وتثبتت هذه النشرة أيضا أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى العدم في البلدان الاسلامية. وتقول النشرة: ان نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحدة في المائة في جمهورية

مصر العربية، مع أنها أكثر البلاد الاسلامية تأثرا بالحضارة الغربية. فما الأسباب التي تحمي الدول الاسلامية من هذه البلية؟ يقول محررو هذه النشرة الاحصائية: ان البلدان الاسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام تعدد الزوجات (١). لقد استطاع هذا القانون الإلهي الحكيم أن يحمي بلادنا الاسلامية من كارثة محققة في هذا العصر.

فقد أكدت تجارب الانسانية أن القانون الإلهي القديم هو الذي كان مبني على الحق، والرحمة بالإنسانية (٢).

(١) جريدة Hindustan Times، عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠.
(٢) لم يستطع محررو النشرة الاحصائية أن يشيدوا بالدين السلامي وروحه (وذلك راجع

إلى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق، أو إلى الاثنين معا)، فمن مزايا الاسلام أنه يحرم الزنا، وتحريمه هذا هو الذي يحمي المسلمين، سواء أكانوا من متعددي الزوجات أم من غيرهم، وذلك لأن ظاهرة تعدد الزوجات آخذة في الاختفاء من المجتمع الاسلامي، بسبب الحملات السخيفة التي تعرضت لها من جانب علماء الغرب، والمتفرنجين من أبناء الشرق المبهورين بالحضارة الغربية (والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة الإنجليز السود المتحمسون للحضارة الغربية أكثر من أصحابها). وترتبت على هذا الوضع مشكلات خطيرة؟ من عائلية واجتماعية إلى حضارية، بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الأزواج بزوجة واحدة، وكثرة الفتيات والأرامل الطالبات للزواج، وقلة الشبان، وهذه مشكلات يعاني منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثر من إخوانهم العرب؟ المعرب

التمدن

شرع الاسلام القصاص ممن قتل عمدا، إلا أن يرضي ورثة القتيل بالدية. ولقد تعرض هذا

القانون لنقد شديد من جانب رجال القانون في العصر الحاضر، وأهم ما يستدلون به: أن

معنى هذا التشريع أن تضيع نفس أخرى، بعد أن ضاعت الأولى بالفعل، ودفعتهم هذا إلى

إلغاء نظام (الأعدام شنقا) في كثير من البلاد.

ان القانون الذي يقره الاسلام له فائدتان هامتان:

أولاهما: أن تستأصل جذور هذه الجريمة، لأن أحدا من الآخرين لن يندفع إلى ارتكابها مرة أخرى نظرا للعاقبة الوخيمة التي لقيها أحد أفراد المجتمع (١).

وأما الثانية: فهي الدية، وقد راعى المشرع النتائج مراعاة تامة، فلو قتل الابن

الوحيد لشيخ، فعلى القاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغا من المال يرضيه، فيعفوا عن الجريمة لقاء المبلغ الذي تقاضاه. وقد جعل التشريع الاسلامي حقا للدولة أن تأمر

برفع مبلغ الدية، اخمادا لنار الثأر.

ان هذا التشريع حكيم لدرجة عظيمة، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قضى عليها في أي

بلاد طبقته، كما أكدت التجارب أيضا أن أي بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم

القتل إلى نسب خيالية، حتى أن نسبة الاغتيالات قد ارتفعت في بعض هذه الدول إلى اثنتي عشرة في المائة.

وهناك أمثلة أخرى عديدة: بلاد ألغت عقوبة القصاص، ولكنها عادت فأقرته مرة أخرى،

نظرا للعواقب. فقد أصدر البرلمان السيلاني قانونا سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص في

حدود

سيلان..

فارتفعت نسبه جرائم القتل ارتفاعا مخيفا بعد صدور القانون، ولم يستيقظ السيلانيون

من سباتهم الا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩، عندما تسلل رجل مسلح داخل منزل رئيس

الوزراء

السيد بندرانيكه، وقتله بكل جرأة في غرفته، وكان أول ما فعله أعضاء البرلمان

السيلاني بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف له، أن عقدوا جلسة طارئة استغرقت

أربع

ساعات، وأعلنوا عند ختامها أن سيلان قررت إلغاء القانون، واصدار قانون جديد

بتشريع

القصاص.

(١) الدولة الوحيدة التي تطبق النظام الاسلامي في هذا المجال هي المملكة العربية السعودية، ومن المعروف لكل المهتمين بالشؤون السعودية أن نسبة القتل بها أقل نسبة في العالم كله، فالمعدل السنوي لحوادث القتل بالمملكة السعودية لا يزداد عن بضع حوادث، وذلك راجع إلى العقوبة التي يلقاها المجرمون، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة، للسبب نفسه؟ المعرب.

المعيشة

ان النظام الذي يقره الاسلام في المعيشة يسلم بالملكية الفردية لوسائل الانتاج الزراعي، وهيكل المعيشة في الاسلام يقوم على أساس الملكية الفردية. وقد راج هذا النظام عصورا طويلة في العالم (١). ثم تعرض بعد الثورة الصناعية لنقد قاس، حتى أن المثقفين رضوا بالغائه.

وقد راج في أوروبا، فيما بين النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، شعور بأن الملكية الفردية أحد القوانين المجرمة التي تفتت في عصر الجاهلية المظلم.. وأنهم قد استطاعوا الآن أن يكشفوا عن نظام الملكية الجماعية؟ التي هي أقوى أساس لتنظيم المعيشة.

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة؟ الملكية الجماعية، ونفذت على رقعة واسعة من الأرض، وبدأت دعاية كبيرة في شأنها، وعقدت عليها آمال كبار، ولكن التجربة الطويلة

أثبتت أن هذا النظام، رغم الجهود الضخمة التي بذلت في سبيله، لم يأت الا بانتاج أقل من الانتاج الذي يأتي به نظام الملكية الفردية.

هذا، فضلا عن نقائصه الكثيرة التي تلخص في كونها غير طبيعية، إلى استخدام العنف لتنفيذها، وأنها تمنع التقدم الانساني، وأنها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزا، واستغلالا، ودكتاتورية.

وسوف أضرب هنا مثلا لروسيا، لقد نفذت الحكومة الروسية نظام (الملكية الجماعية) في

جميع أنحاء البلاد، والدولة تملك جميع الأراضي الزراعية، فهي تقوم بزراعة أراضيها في صورة المزارع الجماعية. وقد منح القانون الزراعي الذي أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاح حقا بملكية الثلث أو نصف الفدان، أو فدانين في بعض الأحوال الاستثنائية، وسمح له أن يربي بعض الأنواع من الحيوانات، مثل الأبقار والأغنام والدجاج.

(١) نظام الملكية الفردية الذي راج في العالم هو أثر من آثار الدين. ولذلك خالف ماركس وأتباعه الأديان بشدة، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الأفراد.

وتثبت الاحصائية الرسمية التي نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضي الزراعية في روسيا في ذلك

الوقت كانت ٢٠٤ مليون هكتار، منها أراض قدرها ستة ملايين هكتار في حوزة الملكية

الفردية، أي ثلاثة في المائة من مجموع مساحة الأراضي الزراعية، ولكن نسبة المحصول

الزراعي للبطاطس عام ١٩٦١ كانت كما يلي:

نسبة الأراضي المزروعة (بالفدان) نسبة المحصول (بالطن)

المزارع الجماعية ٤ . ٣٥٢ . ٣٠ . ٨٠٠ . ٠٠٠

الأراضي الفردية ٤ . ٥٢٦ . ٥٣ . ٥٠٠ . ٠٠٠

وتؤكد هذه الاحصائية أن المحصول الزراعي كان أحد عشر طنا من البطاطس في الأراضي

الفردية، مقابل سبعة أطنان في الأراضي الحكومية. وهذه النسبة توجد كذلك في المحاصيل

الأخرى، على حين أن الأراضي الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية، والسماذ، والكفاءات التي تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية.

وأما الماشية فهي أسوأ حالا في المؤسسات الحيوانية الحكومية، فهي تموت بكثرة بسبب

نقص الكلاء، والاستهتار في الرعاية، وقد مات ٠،٠٠٠، ١٧٠ من الرؤوس في إقليم واحد، في مدة

أحد عشر شهرا عام ١٩٦٢.

وأما حيوانات الملكية الفردية فهي آخذة في الازدياد والنمو يوما بعد يوم، رغم العقبات العديدة، وهي كذلك أكثر انتاجا من غيرها. فالمؤسسات الحكومية التي تملك

سبعين في المائة من الحيوانات والدجاج لم تقدم للسوق من اللحوم الا ما يزيد على عشرة في المائة بالنسبة إلى أصحاب الملكية الفردية، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين

في المائة من الحيوانات والدجاج، ويقدمون انتاجهم للحكومة، وهو ما يبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتي. وقد تخلفت المؤسسات الزراعية الحكومية كثيرا في انتاج البيض.

ويمكن استنتاج هذه الفوارق من احصائية رسمية لعام ١٩٦١:

المحصول النسبة الحكومية (بالطن) النسبة الفردية (بالطن)

اللحم ٤ . ٨٠٠ . ٣ . ٩٠٠ . ٠٠٠

اللبن ٣ . ٤٠٠ . ٢٨ . ٥٠٠ . ٠٠٠

الصوف ٣٨٧ . ٧٩ . ٠٠٠ . ٠٠٠

البيض ٦ . ٣٠٠ (مليون بيضة) ٧٩ . ٠٠٠ (مليون بيضة)

انه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسد حاجات حكومة تملك، بل تحتكر كل وسائل الانتاج!

ان الاحصائية تدلنا على أن احدى الجمهوريات السوفيتية حصلت من الافراد على ستة وعشرين في المائة من البطاطس، وأربعة وثلاثين في المائة من البيض، لسد احتياجاتهم المحلية، وهكذا اضطرت إلى شراء أشياء أخرى من الأفراد، لاستهلاكها محليا (١). ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا؟ التي كانت من بين الدول الكبرى المصدرة لانتاجها الزراعي في عهد القيصرية اضطرت إلى شراء خمسة عشر مليوناً

من أطنان القمح، من كل من: استراليا، وكندا، والولايات المتحدة الأمريكية. وهذه الحال مستمرة في التدهور، فقد اشترت روسيا ٠،٠٠٠، ٢٥٠، ١ طناً من القمح من الولايات

المتحدة، فيما بين؟ ١٩٤١ ٥٦.. وهذا هو الذي يجري في الصين الشيوعية (٢).

وتؤكد هذه التجارب القاسية التي خاضتها البشرية أن العقل الإلهي؟ الذي هو منبع القانون الحقيقي؟ هو أعرف بالطبيعة الانسانية، وأكثر فهما لمسائلها ومشكلاتها. ان في الدين جوابا محددا لكل الأسئلة التي تؤرقنا في كفاحنا الحضاري. انه يوجهنا إلى المشرع الحقيقي الطبيعي، وهو يضع لنا الأساس النظري للقانون. فهو يمنحنا أساسا

صائبا لكل مسألة في الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول إلى أعلى درجات الازدهار والرقي، وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية. وهو يهيء الأساس النفسي، الذي يصبح القانون بدونه مشلولاً بلا حراك، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب

الذي لا بد منه لتطور أي مجتمع تطورا حيويا وفعالا. وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج اليه لبناء الحضارة، في حين لا يتيح لنا الالحاد والكفر شيئا ما، سوى الضياع والفاقة، فهو عقيم لا يجدي نفعا.

(١) Buletin (Germany), Nov ١٩٦٣.

(٢) Ibid, Oct ١٩٦٣.

الباب التاسع: الحياة التي ننشدها

كتب فريدرك أنجلز:

لا بد للانسان أن يجد لباسا يستر به جسده، وخبزا يشبع به بطنه، حتى يستطيع الخوض في الفلسفة والسياسة.

والواقع أن الأسئلة الأولى التي يسعى الانسان إلى معرفة جواب عنها في حياته هي: من أنا؟.

وما هذا الكون؟.

وكيف بدأت حياتي؟.

والى أين ستنتهي؟.

انها أسئلة الفطرة الأساسية. فالانسان يفتح عينيه في عالم يحوي كل شئ، غير جواب هذه الأسئلة، فالشمس توصل اليه الحرارة اللازمة، ولكن الانسان غافل عن حقيقتها،

وعن

أسباب قيامها بهذه العملية لخدمته، والهواء يعطي الحياة للانسان، ولكن الانسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال: من أنت؟ ولماذا تقوم بهذا العمل؟.

انه يمعن في وجوده، ولكنه لا يفهم من هو؟ ولماذا جاء إلى هذه الدنيا؟.

والذهن الانساني غير قادر على وضع إجابات هذه الأسئلة الأساسية في حياة البشر، ولكنه لن يتخلى عن بحث، ولن يمل هذا البحث عن جواب.

هذه الأسئلة، وان وردت ألفاظا على ألسنة الجماهير، فإنها تؤلم روحها، وهي ترد أحيانا بطريقة يصاحبها الانفعال، حتى يصبح الانسان مجنوناً.

لقد عرفنا أنجلز مفكراً ملحداً، ولكن الحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبلّة وعدم الاستقرار. لقد كان شغوفاً بالدين، وكان يقضي وقتاً طويلاً في الكنيسة، ولكنه بعد

ما كبر وتوسع نظره في الدراسة أعرض عن الدين التقليدي. وهو يكتب أحوال هذه الفترة

في خطاب له إلى أحد أصدقائه، قال:

انني أدعو كل يوم، وأقضي اليوم كله داعيا أن تنكشف لي الحقيقة. لقد أصبح الدعاء هوايتي، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي، انني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم. ان قلبي

يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور، قلبي يبكي، عيني تبكي، ولكنني أشعر أنني

لست بطريد من رحمة الله، بل آمل أن أصل إلى هذا الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي.

وأقسم بحياتي أن عشقي وبحثي هذا لمحة من روح القدس. ولن أقلع عن تفكيري هذا، ولو

كذبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة!!.

لقد أقلقت غريزة البحث عن الحق روح أنجلز الشاب، ولكن الدين المسيحي التقليدي لم

يمنحه السكينة التي كان ينشدها، فانقلب متمردا عليه، وانغمس في الفلسفات السياسية،

والمادية الإلحادية.

وجذور هذه الغريزة الانسانية هي احساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق، ففكرة: الله

خالقي وأنا عبده منقوشة في اللاشعور الانساني، وهي ميثاق سري مأخوذ على الانسان منذ يومه الأول، وهو يسري في كل خلية من خلايا جسمه، وعندما يفتقد انسان ما هذا

الشعور يحس بفراغ عظيم، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن الهه الذي لم يره قط،

والذي لو وجده لخر راكعا على ركبتيه، ثم ينسى كل شيء.

وليس الاهتداء إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقي لهذه الفطرة الانسانية، والذين لا يهتدون إلى المعرفة يقبلون على أشياء أخرى. فان كل قلب يبحث عمن يهدي اليه خير أمانيه.

وعندما رفر العلم الوطني لأول مرة على الأبنية الحكومية في الهند بدلا من العلم البريطاني: اليونيان جاك، في صباح يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ اغرورقت عيون

كثيرة
بالدموع، وهي ترى الصورة التي طالما حلمت بها. وكانت هذه الدموع مظهرا لعلاقة
أصحابها بالمعبودة: الحرية، التي ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم.
وهكذا عندما يذهب زعيم وطني إلى ضريح أبي الوطن ويضع عليه إكليل الزهور، ثم
يقف
أمامه لحظة مطأطئا رأسه، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذي يقوم به المؤمن أمام
معبوده، حين يركع ويسجد.
وحين يمر شيوعي أمام تمثال لينين ويرفع قبعته عن رأسه، وييطيء في سيره، يكون

هو الآخر، مثل رجل الدين، يقدم أحسن تمنياته إلى الهه. فكل انسان مجبور على أن يتخذ

شيئا ما إلها له، ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة.

ولكن الانسان إذا قدم هذه القرابين لغير الله، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة... و (ان الشرك لظلم عظيم) (١)، والظلم أن تضع الشيء في غير موضعه، فلو كنت تريد أن تتخذ

من غطاء الوعاء قبة فهو ظلم، والانسان عندما يميل إلى غير الله لملء فراغه النفسي ويتخذ من غير الله ملجأ له، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال.

وكما كانت هذه الغريزة فطرية، فإنها تظهر دائما في صورتها الطبيعية متجهة إلى الله، ولكن المجتمع، وأحوال البيئة، يعطيان هذه الغريزة اتجاها مغايرا، فتبدأ الشكوك تساور الانسان في أول الأمر، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك، عمدا أو عفوا،

لأنه يتمتع بحرية أكثر في الحياة الجديدة، فيرضى بها ولو ظاهريا. * * *

فقد كان برتراند رسل شديد العلاقة بالدين في أول حياته، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام، وفي يوم من الأيام سأله جده: ما تكون دعواتك المفضلة يا برني؟.

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول: لقد سئمت الحياة، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبي؟ يا

إلهي! وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه، بفعل البيئة التي أحاطت به، إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح

من بعد برتراند رسل الفيلسوف الملحد، الذي لا يؤمن بالحقائق السماوية. وقد أجرت الإذاعة البريطانية حديثا معه عام ١٩٥٩، وعندما سأله فريمان؟ المعلق السياسي بالإذاعة؟: هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الانسان؟، أجاب رسل قائلا: نعم، لقد وصلت في سن الأربعين إلى الطمأنينة التي قال عنها أفلاطون: انه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات. انها عالم أبدي، حر، لا يقاس بزمان. ولقد حظيت في هذا العالم بسكينة تشبه تلك التي

يحصلون عليها في الدين.

لقد أنكر هذا المفكر البريطاني حقيقة المعبود السماوي، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى، بسبب الغريزة الفطرية التي ولد بها الانسان، فجاء بالرياضيات

والفلسفة، وأجلسهما في المقعد المخصص لله وحده. بل اضطر أيضا أن يخلع على
الرياضيات
والفلسفة

(١) لقمان: ١٣.

نفس الصفات التي ينفرد بها الله سبحانه، وهي: الأبدية، والتحرر من أبعاد الزمن، والسر في ذلك أن لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التي يبحث عنها الانسان. ***

جواهر لال نهرو في حالة الركوع! لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر في يوم من الأيام لما صدقها الناس! ولكن الصورة التي تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة هندوستان تيمس، الصادرة في دلهي يوم ٣ أكتوبر من عام ١٩٦٣، تصدق هذا الخبر. وقد

ظهر في تلك الصورة رئيس وزراء الهند الأسبق في حالة ركوع، واقفا أمام ضريح المهاتما

غاندي في ذكرى ميلاده، وهو يقدم تمنياته إلى أبي القومية الهندية!. ان مثل هذه الأحداث تقع كل يوم في كل مكان من العالم، وآلاف من الناس الذين ينكرون

وجود الله يركعون أما معبوداتهم، تسكينا لغريزتهم التعبدية، وذلك لأن الاله ضرورة فطرية للانسان. وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية، لأن الانسان يضطر إلى الركوع أمام آخرين كثيرين، إذا ما امتنع عن السجود أمام الله الواحد، أي أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذي يخلو عنه انكار وجود الله، والالحاد. ***

وليست الحقيقة أن يتخذ الانسان آلهة آخرين عند الكفر بالله، فيسكن غريزته، بل سوف

أقول: ان الذين يتخذون من غير الله إلها محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين، كالطفل اليتيم الذي يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك أما له. وكل ملحد، مهما بدا له، أو للآخرين، أنه ناجح، يتعرض في حياته لمواجهة لمحات، يضطر

إزاءها أن يفكر فيما إذ كانت الحقيقة التي قبلها؟ مصطنعة وزائفة؟. ***

وعندما ختم جواهر لال نهرو سيرته الذاتية سنة ١٩٣٥، أي قبل اثني عشر عاما من استقلال الهند، كتب في خاتمتها قائلا:

انني لأشعر أن فصلا من حياتي قد انتهى، وأن فصلا آخر على وشك البدء، ترى ماذا سيحوي هذا الفصل؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ به، فان أوراق الحياة القادمة مختومة. وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو، وجد نفسه رئيسا لوزراء ثالث كبريات دول

العالم، يحكم سدس المعمورة بدون شريك. ولكن نهرو لم يقتنع بهذا، بل ما زال

يشعر،
وهو في أوج بروزه السياسي، أن هناك فصولا أخرى من كتاب حياته لما تفتح

لقد كان يعتمل في قرارة ذهنه نفس السؤال الذي يولد معه الانسان، وقد قال نهرو، وهو

يخاطب مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في دلهي في يناير من عام ١٩٦٤ والذي اشترك فيه

ألف ومائتان من الممثلين من جميع أرجاء العالم، قال: انني سياسي، ولا أجد وقتا كثيرا للامعان والتفكير. ولكنني أضطر في بعض الأحيان أن أفكر: ما حقيقة هذه الدنيا؟ ومن نحن؟ وماذا نقوم به؟ انني على يقين كامل أن هناك قوى

تصوغ أقدارنا (١).

وهذا هو الشعور بعدم الطمأنينة الذي يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله معبودا لهم، ويخيل إليهم في غمرة الملذات المؤقتة والأعمال الدنيوية الشاغلة؟ أنهم قد ظفروا بالاستقرار.. ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار.

وهذه الحالة التي تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة المؤقتة وسنيها. وانما هي أهم من ذلك بكثير. انها مسألة أزلية وأبدية، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمدة الحالكة، التي يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب.

انها المبادرة الأولى لحياة الخنق الأبدية، التي سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك. انها أجراس التنبيه الأولى في حياتهم، تنذرهم بالأحوال الرهيبة، والظروف المروعة التي سوف تمر بها أرواحهم.

وهي دخان من الجحيم الذي لا بد لهم أن يخلدوا فيه. ولو أن النيران شبت في منزل أحدهم، فقد ينبهه الدخان الذي سيدخل في أنفه إلى الخطر

الوشيك، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ في الوقت المناسب، ولكن حين تمسك السنة

النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات. ولات حين مناص، بل هو الهلاك الذي يحيط به من

كل جانب، فقد قدر له أن يحترق في النيران، لبلادة حسه، وجهالته من أمره. ترى، هل يستيقظ الناس في ابان النجاة؟ فان اليقظة النافعة هي التي تكون قبل فوات الأوان، واليقظة عند الهلاك والدمار لا تمنح صاحبها غير القرار في قاع البوار. * * *

كتب البروفسور مايكل بريشر ترجمة لحياة جواهر لال نهرو؟ وقد سأل المؤلف نهرو

في لقاء له معه بنيودلهي في ١٣ يونيه من عام ١٩٥٦:

(١) جريدة National Herald عدد ٤ يناير عام ١٩٦٤.

ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة؟ طبقا لفلسفتكم الأساسية في الحياة؟
وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلا:

انني أو من ببعض المعايير، قل: انها (المعايير الأخلاقية)، ولا بد لكل فرد وبيئة من التمسك بها، وعند القضاء على هذه المعايير لا يمكنك الوصول إلى نتائج مفيدة، رغم احراز التقدم المادي الهائل، وأما (سبل) إقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها في المجتمع، فإنني لا أعرفها، وهناك نظرة دينية لإقامة هذه المعايير، ولكنها تبدو إلي ضيقة جدا مع كل طقوسها وطرقها، فأنا أهتم اهتماما كبيرا بالقيم الأخلاقية الروحية، بعيدا عن الدين، ولكنني لا أعرف كيف يمكن الحفاظ على هذه القيم في الحياة الجديدة.

انها لمشكلة (١).

وهذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغ الذي يواجهه الانسان بشدة في حياته، فان إقامة القيم والمعايير الأخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع، حتى يتاح له جو الاستقرار

لمواصلة مسيرة الحضارة. ولكن الانسان، بعد أن خذل الاله، أخذ يخبط خبط عشواء بحثا

عن هذه المعايير، وسبل اقامتها في حياة أفراد المجتمع. ولا يزال الانسان، رغم مئات السنين التي مضت، في أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين... انهم يحتفلون، مثلا، بأسبوع الكرم Courtes week لإذابة الحواجز بين الشعب والحكام،

ولكن العقلية البيروقراطية لا تدوب عند المسؤولين، رغم كل الجهود التي تبذل في هذه

المناسبات باسم الاخلاق.

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتات كبيرة تقول: ان السفر بدون تذكرة

جريمة اجتماعية؟ ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل، بل تزداد يوما بعد يوم. وذلك يثبت أن عبارة جريمة اجتماعية غير كافية لتحريك ضمير الفرد، والحفاظ على النظام (٢).

انهم يبذلون جهودا ضخمة للتفنير من الجرائم، عن طريق الصحافة، قائلين مثلا: الجريمة لا تفيد Crime does not pay ولكن النسبة المرتفعة للجرائم، يوما بعد آخر،

دليل على أن عواقب الجريمة في الدنيا ليست رادعة، حتى تمنع المجرمين من القيام بجرائمهم.

(١) Nehru - A Political Biography, pp ٨ .٦٠٧ .
(٢) كل ما يقدمه المؤلف من أمثلة للتدليل على افلاس الفلسفات المادية الالحائية،
غربية وشرقية، موجود بوفرة في بلاد شرقنا العربي، وتوحي شواهد الواقع أن الأمور
تزداد كل يوم سوءاً، نتيجة سيطرة المنحليين والملاحدة على أجهزة التوجيه من جانب،
وقعود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر، ولا حل للمشكلة الا بعودة الأمة إلى
الله مرة أخرى؟ (المراجع).

وكثيرا ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول: ان تقديم الرشوة، وقبولها ذنب، ولكن المرء، عندما يشاهد أن جرائم الرشوة تمضي في طريقها على قدم وساق، بمشهد من

هذه العبارات، نفسها، يضطر إلى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة.

انهم يكتبون في كل عربة من عربات القطار: ان القطارات ملك للشعب، والحق أي ضرر

بها جريمة ضد الشعب.، ولكن المسافرين في نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة، ويحطمون زجاجها، وربما يثورون فيشعلون فيها النيران. وهو دليل

على: أن فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد!!..

ان كبار الزعماء والسياسيين يعلنون في خطبهم: أن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانة في حق الشعب والدولة. ولكن المشروعات الكبرى تفشل في تحقيق

أهدافها، لأن النسبة الكبرى من الميزانية المقررة تأخذ طريقها إلى جيوب المسؤولين القائمين بأمر هذه المشروعات، بدلا من انفاقها في مكانها الصحيح. وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية، رغم كل الجهود التي بذلت من جانبي المصلحين والزعماء، وباءت كل الوسائل التي استخدموها بالفشل الذريع (١).

هذه الظواهر هي في الواقع دلائل على أن الحضارة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الوحل، وقد ضللتها عن طريقها، التي لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة، ولا حل لهذه

الأزمة الا بالرجوع إلى الله، والتسليم بأهمية الدين للحياة، فهو الأساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه، وليست هناك من أسس أخرى.

كتب البروفسور تشستر باولز (٢)، السفير الأمريكي الأسبق لدى الهند، يقول:

(١) ان الأمثلة التي ذكرها المؤلف هنا؟ من أسبوع الكرم إلى التلاعب في أموال الدولة؟ أمور عادية جدا في الهند، وهي تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسؤولين، وترتب على ذلك أن الحالة الأخلاقية للشعب الهندي آخذة في التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لا يعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر، فغالبيتهم العظمى تحري وراء مصالحها الذاتية، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبية في كل وسط، من أدناه إلى أرقاه وهي حال تدمي قلوب الساسة الوطنيين المخلصين، ولكنهم مغلوبون على أمرهم.

(٢) Chester Bowles هو من أشهر الخبراء الاقتصاديين في الولايات المتحدة الأمريكية
المعرب.

(١٨٣)

ان الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين، في طريق نهضتها الصناعية. والنوعان معقدان غاية التعقيد. فأما أولهما: فهو مشكلات الحصول على رأس المال، والمواد الخام، والخبرة الفنية، وطرق استخدامها أفضل استخدام. وأما النوع الثاني من هذه المشكلات فيتعلق بالشعب والإدارة الحكومية. فعلىنا قبل المضي في ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضى عليه (من المشكلات) فعلا.

ومن كلمات المهاتما غاندي: ان المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراهة الانسان، على حين أن الانسان هو الشيء الأهم من كل الأشياء (١). فالشعب مجتمع يخضع للبرامج التقدمية، ولكن عند التقدم، وهي رأس المال والخبرة الفنية، لا تجدي نفعا في مجتمع يسوده الفراغ السياسي والحضاري (٢). ما الطريق إلى سد هذا الفراغ لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام. كل بواجبه، لرفع شأن البلاد؟.

انه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين، والحق أن الانسان لن يستطيع الوصول إلى جوابه في ظل المجتمع الالحادي. فكل مشروع تقدمي يصاب بتناقض مثير، يتجلى في أن

العقائد الشخصية لدى أفرادها تخالف العقيدة الاجتماعية. فبرنامج التقدم الاجتماعي مثلا يهدف إلى إقامة مجتمع رفاهي يتمتع بالأمن والسلام، ثم يقول المفكرون: ان هدف

الانسان الأساسي هو الحصول على السعادة المادية! فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم، لأنهم يحرضون الأفراد على عمل هو عكس ما يحتاج اليه المجتمع. ويرجع هذا التناقض إلى أن برنامجا من هذا النوع لم يحقق أهدافه إلى يوم الناس هذا، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية.

ان معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الانسان بكل قواه إلى تحقيق كل ما تصبو اليه أمانيه، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية، في هذا العالم المحدود، لا طريق

اليه دون التأثير على الآخرين. ولذلك، فعندما يسعى الفرد إلى تحقيق مطالبه يتحول إلى رزء بالنسبة للآخرين.. فأمنية الفرد تدمر أمانى المجتمع. وحين يجد فرد، يتقاضى مرتبا بسيطا، أن موارده لا تكفي لتحقيق سعادته الشخصية فإنه يسعى إلى تحقيق

ذلك بكل الصور الممكنة، حتى ليقدم على السرقات. الرشاوى، والغش، والتزوير، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة.. وعندئذ يبدأ المجتمع في أن يعاني نفس

المشكلات
التي كان يعاني منها أحد أفرادها.

(١) The Makings of a Just Society, Delhi ١٩٦٣ , pp .٦٨ - ٦٩ .
(٢) المرجع السابق: ص؟ ٣١ .

ان العالم الحديث يعاني من مشكلة، لم يجربها الانسان طوال تاريخه هي مشكلة جرائم الأطفال، التي أصبحت جزءا من المجتمع الحديث! من أين يأتي هؤلاء المجرمون الصغار؟

انهم ضحايا السعادة المادية... فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياة الزواج بعد وقت قليل، وحينئذ يبدأون في البحث عن وجوه وأجساد جديدة، ويحصلون على الطلاق، بيد

أن المجتمع هو الذي يدفع ثمن الطلاق، حين يللمم في رحابه أطفالا يتامى في حياة آبائهم وأمهاتهم، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيء لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى، فهم أحرار من كل قيد، وهم ناثرون على المجتمع الذي أنجبهم.

وتبدأ هذه الحال بالصلعكة، ثم تنتهي إلى الجرائم القذرة التي كانوا ثمرتها. ولقد صدق السير الفريد ديننج في مقاله: ان أكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض أسر محطمة (١).

وهذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية. فجميع الحوادث التي نسميها في قواميسنا جريمة وذنبا هي محاولة قوم للحصول على أمانهم الذاتية في الحياة، بعد أن أخفقوا في تحقيقها لسبب أو آخر. وهذه

الحوادث تظهر في أغلب الأحيان في صور: الاغتيال، والخطف، والتدليس، والتزوير، والقرصنة، والحروب، والزنا، وما إلى ذلك من الجرائم التي تعاني منها الانسانية: وهذا التناقض يبين بجلاء أن هدف الحياة الأساسي هو الحصول على رضا الله في الآخرة،

لا غير. انه هو الهدف الوحيد الذي يمكنه انقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير، والسير بهما في طريق الرخاء والسعادة المتبادلة، لأن الفرد في هذا الهدف لا يصادم أمانى المجتمع، بل يشترك في كفاحه بطريقة ايجابية فعالة.

فميزة نظرية (الآخرة) تأكيدها على أنها هي الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية في حين تبين في نفس الوقت، أنها هي الهدف الوحيد للانسان الفرد أيضا، لأن أي شئ لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية، والموافقة لأهداف البشرية.

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن، وبدأ الأطباء يقولون: ان العالم يستطيع القضاء على كل مرض، غير الموت والشيخوخة!! ولكن

الأمراض
تكثر وتشعب، وتنتشر بسرعة مذهلة، ومنها الأمراض العصبية التي هي نتائج أعراض
التناقض الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع.
لقد حاول العلم الحديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجسم الانساني، ولكنه

(١) The Changing, p ١١١.

فشل في تغذية الشعور، والأمان، والإرادة، وكانت حصيلة ذلك جسما طويل القامة ممتلئ النواحي، ولكن الجانب الآخر من الجسم، وهو أصل الانسان، أصبح يعاني من أزمات لاحد لها.

لقد أكدت احصائية: أن ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب، من ناحية أو أخرى. ويقول علماء النفس الحديث: ان من أهم

جذور هذه الأمراض النفسية: الكراهية، والحقد، والجريمة، والخوف، والارهاق، واليأس،

والترقب، والشك، والأثرة، والانزعاج من البيئة. وكل هذه الأعراض تعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الايمان بالله.

ان هذا الايمان بالله يمنح الانسان يقينا جبارا، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب، فهو يجاهد في سبيل هدف سام أعلى، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القدرة.

ان الايمان بالله يعطي الانسان محركا هو أساس سائر الأخلاق الطيبة، ومصدر قوة العقيدة، العقيدة التي عبر عنها السير وليام أوسلر **William Osler**. بقوله: انها قوة محرقة عظيمة، لا توزن بأي ميزان، ولا يمكن تجربتها في المعامل.

ان العقيدة هي سر مخزن الصحة النفسية الموفورة، التي يتمتع بها أصحابها، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي الا بالأمراض، أقساها وأعتاها.

ومن شقوة الانسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض

نفسية وعصبية جديدة، ولكنهم في نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه

الأمراض. وهذه الظاهرة تثير شعورا كئيبا بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير، ولذلك أكبوا على الميدان الثاني، يسترون خيبتهم، ويظهرون بطولتهم أمام العالم!.

والى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلا: ان علماء الطب النفسي يبذلون كل جهودهم في كشف أسرار القفل الدقيقة الذي سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة!.

فالمجتمع الجديد يسير في اتجاهين في وقت واحد فهو يحاول من جهة الحصول على جميع

الكماليات المادية على حين يتسبب؟ لتركه الدين؟ في خلق أحوال تجعل من الحياة جحيما، انه يعطيك دواء الشفاء من الفم. ويحقنك السم في العضل!.

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف؟ يقول:
تعرفت أثناء دراستي بالكلية الطبية على التغييرات التي تطرأ على أنسجة الجسم بعد
الإصابة بالجراح، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضاً محددة تطرأ على
هذه الأنسجة، مما يؤدي إلى اندمال الجروح وشفائها، وعندما أصبحت طبيبا بعد اتمام
دراستي

كنت جدا مقتنع بكفاءتي وأنتي أستطيع أن أحقق نتيجة موفقة بالتأكيد، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة، ولكن سرعان ما أصبت بصدمة كبيرة، حيث فرضت علي الظروف أن

أشعر أنني أعرضت عن أهم عنصر في علم الطب، ألا وهو: الله. كانت بين المرضى الذين كنت مشرفا على علاجهم في المستشفى، عجوز في السبعين من

عمرها، أصيب أعلى فخذها بصدام، وأكدت صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة، فقدمت

لها تهنئاتي بسرعة شفائها، وأشار لي كبير الجراحين: أن أطلب منها العودة إلى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة، لأنها استطاعت أن تمشي دون أن تستند إلى شيء. وكان ذلك يوم أحد، حين جاءت ابنتها تزورها على عاداتها الأسبوعية، فقلت لها: ان والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن، وعليك أن تحضري غدا لترافقها إلى البيت. ولم تلفظ

الفتاة بشيء أمامي، بل توجهت إلى أمها، وقالت لها: انه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) إلى بيتهما، وخير لها الآن أن تنظم لها سكنى باحدى دور العجزة.

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز، فشاهدت أن انهيارا سريعا يطرأ على جسمها، ولم

يمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز، لا بسبب فخذ مكسور، بل جراء قلب كسير.

وقد حاولت أن أقوم بجميع الاسعافات اللازمة لانقاذها، ولكن حالتها لم تتحسن. كانت

عظام فخذها المكسورة، قد تحسنت كثيرا، ولكنني لم أجد علاجا لقلبها الكسير.. أعطيتها

كل ما عندي من الفيتامينات، والمعادن، ووسائل التئام العظم المكسور، ولكن العجوز لم

تستطع أن تنهض مرة أخرى، لقد انجبرت عظامها دون شك، وكانت تملك فخذها قوية. ولكنها

لم تقو على الحياة، لأن إلزام عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات، والمعادن، ولا انجبار العظم، وانما كان (الأمل)، الأمل في أن تعيش على نحو معين، فمتى ذهب الأمل

في الحياة، ذهبت معه الصحة.

وكان لهذا الحادث تأثير عميق في نفسي: لاحساسي بأن هذا الحادث كان من

المستحيل وقوعه، لو كانت هذه العجوز تعرف اله الأمل، الذي أو من به لكوني مسيحيا (١). هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذي يعاني منه العالم في كل جانب من جوانب حياته، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن تمحي الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس، وهو في هذه المحاولة يسعى إلى نهضة الانسان، متجاهلا (الروح)، عنصره الأصلي. ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة. ولكن حرمان الانسان من العقيدة الإلهية يفضي به إلى الموت، رغم كون جسمه في صحة جيدة.

(١) The Evidence of God, pp ٢١٢ - ١٤.

لقد دمر هذا التناقض الانسانية تدميراً، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين، والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة، والمدن المتلائة ببريق الحضارة هي بؤر الجرائم، ومصانع المصائب، والحكومات الجبارة مصابة

بالدسائس الداخلية وعدم الثقة، والمشروعات الفخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها.. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادي الهائل، وكل هذا

وذاك يرجع إلى حرمان الانسان من نعمة الايمان بالله، لقد حرمتنا أنفسنا من المنبع والأساس الذي هياها لنا خالقنا ومالكننا.

ان سبب الأمراض النفسية، التي أشرت إليها، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس،

وقد لخص عالم النفس الشهير البروفسور يانج Jung C. G. فان تجاربه عنها في الكلمات التالية:

طلب مني أناس كثيرون، من جميع الدول المتحضرة، مشورة لأمراضهم النفسية، في السنوات

الثلاثين الأخيرة. ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى؟ الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم، وهو ما بعد ٣٥ سنة؟ الا الحرمان من العقيدة الدينية. ويمكن أن يقال: ان مرضهم لم يكن الا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل

عصر، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى الا عندما استرجع فكرته الدينية (١). وانها لكلمات جلية: لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٢). ولو أردنا المزيد من الايضاح، فلسوف أقتبس من الأستاذ (١). كريسي موريسون) رئيس أكاديمية نيويورك (سابقاً)، قوله:

ان الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم والمشاعر السامية، وكل ما

يمكن اعتباره نفحات إلهية؟ لا يمكن الحصول عليها من طريق الالحاد.

فالالحاد نوع من الأنانية، حيث يجلس الانسان على كرسي الله.

لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين.

سوف يتحول النظام إلى فوضى.

سوف ينعدم التوازن، وضبط النفس، والتمسك.

سوف يتفشى البشر في كل مكان.

إنها لحاجة ملحة أن نقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله (٣).

(انتهی)

۱۱۰ .Quoted by C. A. Coalson, Science & Christian Belief p (۱)

(۲) ق: ۳۷ .

(۳) .Man Does not Stand Alone, P ۱۲۳ .